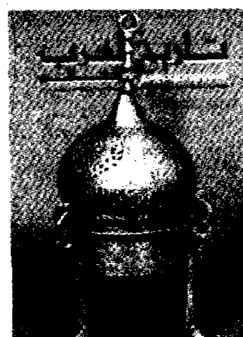
تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة السابعة • العددان ٧٥-٧٦ • كانون الثاني (يناير) - شباط (فبراير) ١٩٨٥م • الموافق ربيع الثاني - جمادى الأولى ١٤٠٥هـ.



□ مخزن أسلحة إسلامي يعود للقرن الثالث عشر الميلادي.



□ مبخرة فضِّية، صنعت في مصر او سورية. تُعَد فريدة من نوعها، لأن المباخر المماثلة كانت تصنع عادة من النحاس الأحمر أو الأصفر تزينها النقوش العربية.

- المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.
- المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.
- المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

تاريخ العرب والعالم

العددان ٧٥/٧٦ — كانون الثاني — شباط ١٩٨٥

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج : مطبعة المتوسط ش.م.م.

التوزيع : الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٨ ل.ل.	سوريا	٩ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الإشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً.
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً.
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب. ٥٩٠٥ ــ بيروت. لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ــ تلفون ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT . LEBANON

Vol. 7 – No. 75/76 – Jan-Feb. 1985

ANNUAL SUBSCRIPTION : $100 (INCLUDING $25 FOR ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS, INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■



الحرف العربي واللغات الافريقية*

د. يوسف الخليفة أبو بكر

— ١ —

تطور الحرف العربي عبر القرون

قبل أن نتناول بالبحث قضية الحرف العربي في اللغات الأفريقية، يجدر بنا أن نعرض في إيجاز للأطوار التي مر بها حتى اكتسب المرونة التي جعلته قادراً على التعبير عن أصوات العشرات من لغات الأمم الإسلامية التي لا تتحدث العربية. ذلك لأن التطور الذي أصاب الحرف العربي عبر هذه القرون إنما يرجع إلى حركة الاصلاح التي تمت في القرنين الهجريين الأول والثاني، والتي جعلت الحرف العربي يؤدي دوراً خطيراً في تاريخ التراث البشري عامة، والتراث العربي والاسلامي خاصة، ويمتد مجاله من اللغة العربية إلى مجال العشرات من لغات الأمم الاسلامية التي يقارب تعدادها اليوم بليون نسمة.

— ٢ —

الحرف العربي قبل الاسلام



تحدث الباحثون من العرب والفرنجة حول الأصل الذي انحدرت منه الكتابة العربية. وقد اتفقوا على أن أصل الكتابة العربية يرجع إلى الكتابة المصرية القديمة (الهيروغليفية) التي اشتق منها الخط الفينيقي، ومن الخط الفينيقي اشتقت عوامل من الخطوط ينتمي الخط العربي إلى واحد منها. ويتفقون أيضاً على أن الصورة التي وصلت إلينا من الكتابة العربية اشتقت مباشرة من الخط الحيري والأنباري (الذي سمي فيما بعد بالخط الحجازي والأخير منحدر من الخط النبطي). وفي الفترة بين منتصف القرن الثالث الميلادي ونهاية القرن السادس الميلادي تحول الخط العربي من صورته النبطية الخالصة إلى صورته المعروفة لدينا[١] في المخطوطات الاسلامية المنسوبة إلى النصف الأول من القرن الهجري الأول. وبينما يتفق الباحثون على أن أول السلسلة التي انحدر منها الخط العربي وهي (الخط الهيروغليفي) ونهاية السلسلة (الخط النبطي)، فإنهم يختلفون في السلسلة الوسط. وليس هناك من الوثائق التاريخية ما يؤيد هذا أو ذاك[٢].

الشيء المؤسف أن الوثائق التي وصلت إلينا عن صورة الكتابة العربية قبل الاسلام قليلة. ولا تتعدى بضعة نقوش عثر عليها في شمال الجزيرة العربية. وفي جملتها تكون جملا وعبارات معدودة، مكتوبة بخط بدائي. منها نقش حران

(*) ألقيت هذه المحاضرة في ندوة نظمتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بعنوان «العلاقة بين الثقافة العربية والثقافات الأجنبية» (٢١ — ٢٦ شباط ١٩٨١).

□ د. يوسف الخليفة ابو بكر: خبير بمعهد الخرطوم الدولي للغة العربية.

(شمال جبل الدروز) ويرجع تاريخه إلى عام ٥٦٨م وهو أول نص عربي كامل بتراكيبه وجمله. وهنالك نقوش أخرى سابقة لنقش حران ولكنها مكتوبة بخط نبطي منها نقش زبد ٥١١م ـ ٥١٢م ونقش النمارة (الآن جبل الدروز) ويرجع تاريخه إلى عام ٣٢٨م ونصه عربي. وأقدم هذه النقوش جميعا نقش أم الجمال (غربي حوران) وهو بخط نبطي ولغة نبطية. ويقال أن ملوك العرب قبل هذا التاريخ كانوا يستخدمون الخطوط الأخرى كالثمودي واللحياني والصفوي المتفرعة من الخط المسند الجنوبي [٣].

والذي يهمنا هنا هو أن أقدم صورة وصلت إلينا من الكتابة العربية قبل الاسلام تميزت بالخصائص التالية:

١ ـ انها كانت متصلة الحروف.
٢ ـ انها كانت خالية من النقط (الأعجام).
٣ ـ أنها كانت قاصرة على تمثيل الأصوات الصحاح دون الحركات.
٤ ـ إن كثيرا من حروفها كان يعبر عن أكثر من صوت واحد.

وكانت هذه هي سمة الكتابات السامية عموما. وإن كانت الكتابة السريانية قد استخدمت النقط للتمييز بين بعض حروفها[٤]. هذا بخلاف الكتابة العربية الجنوبية المسماة بالخط المسند، والتي كانت تستخدم في اليمن، وهي منفصلة الحروف، الأمر الذي يؤكد انحدار الكتابة العربية من كتابات الشمال لا من كتابات الجنوب[٥].

ـ ٣ ـ

الحرف العربي عند ظهور الاسلام

لم يكن العرب قبل الاسلام يعيرون الكتابة اهتماما على نحو اهتمامهم بالكلام المنظوم والمنثور. وكان تعلم الكتابة متروكا للظروف الفردية. ولم تعرف مؤسسات عنيت بتعليم الكتابة بطريقة منظمة أو غير منظمة. ويبدو أنه لم يكن هنالك تشجيع على تعلمها أو افتخار بمعرفتها، ولم تكن واحدة من المهارات ذات الشأن في ذلك المجتمع الجاهلي. وقد وصف القرآن العرب بالأمية في قوله تعالى (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم..؟) ومع ذلك فقد كانت الكتابة معروفة لدى العرب في الجاهلية وكان يستخدمها ملوكهم في الرسائل والوثائق. وتشير بعض المصادر العربية إلى رجلين اشتهرا في الجاهلية بمعرفة الكتابة، وهما عمرو بن زراره (وكان يسمى «الكاتب»)، وغيلان بن سلمة الذي أسلم يوم الطائف. وقد اشتهرت الطائف بالكتابة. وهي موطن قبيلة **ثقيف**. ولذا فإننا نستطيع أن نفسر لماذا اهتم الحجاج بن يوسف **الثقفي** بإصلاح الكتابة، بل أن هذا يؤكد الرأي القائل بأن الحجاج الثقفي هو الذي أخذ المبادرة وأمر بإصلاح الحرف العربي في منتصف القرن الهجري الأول. ويؤيد انتشار الكتابة في قبيلة ثقيف قول سيدنا عثمان بن عفان للجنة التي جمعت المصحف في عهده (اجعلوا المملي من هذيل والكاتب من ثقيف).

دخلت الكتابة طورا جديدا بمجيء الاسلام، **وكانت نقطة التحول هي نزول الوحي وتدوينه بالحرف العربي على مدى ثلاثة وعشرين عاما**، وبذلك ارتبطت الكتابة بالقرآن وأصبحت جزءا لا يتجزأ من العمل الديني. ولأول مرة في تاريخ الكتابة العربية يوجه اهتمام مباشر بتعليم الكتابة على مستوى العامة، عندما جعل الرسول صلى الله عليه وسلم فدية الواحد من أسرى قريش: أن يعلم الأسير (الذي يعرف الكتابة) عشرة من صبيان المدينة الكتابة. ثم صار تعلم الكتابة من شعائر الدين كما صارت الكتابة ـ فيما بعد ـ أصلا لكل تعليم.

ومن ناحية أخرى صارت الكتابة منذ الأيام الأولى للاسلام وسيلة للاتصال الخارجي، وارتبط بها انتشار الاسلام خارج الجزيرة العربية وداخلها، فقد كتب الرسول صلى الله عليه وسلم الرسائل إلى الملوك يدعوهم إلى الاسلام، وبذلك أصبحت وظيفة الكتابة سياسية واجتماعية ودينية.

وقد استنسخ كبار الصحابة القرآن حتى صار لكل منهم نسخته الخاصة به، وجمع القرآن وروجع فور انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى في عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق، ثم جمع وروجع مرة أخرى على عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان، وكان المصحف الامام الذي نسخت منه نسخ وزعت على

الأمصار الاسلامية آنذاك.

كان الحرف العربي الذي كتب به المصحف ونسخت منه المصاحف وكتبت به رسائل الرسول صلى الله عليه وسلم، ورسائل الخلفاء الأربعة من بعده بدائيا من الناحيتين الوظيفية والجمالية. كانت الحروف غير مشكولة وغير منقوطة، وكانت بدائية من حيث أشكالها الهندسية حيث لم تكن تستوف مقوماتها الجمالية. وقد استمر الأمر على ذلك طوال النصف الأول من القرن الهجري الأول. على أن القلقشندي شكك في كتابه صبح الأعشى. عند حديثه عن نقط المصاحف الذي بدأه أبو الأسود — شكك في أن تكون حروف القرآن ظلت عارية من النقط إلى حين نقط المصحف(٧).

— ٤ —

حركة إصلاح الكتابة

ما هو المعيار العلمي للكتابة السليمة؟

لقد وضع علماء اللغة المحدثون معيارا او شروطا للكتابة السليمة، أو كما يسمونها «الكتابة الصوتية» أو «الكتابة الفونيمية». تتلخص هذه الشروط في الآتي: (١) أن يكون لكل صوت (فونيم) رمز خاص به، و (٢) الا يكون للصوت الواحد أكثر من رمز واحد يعبر به عنه. (One — to — one correspondance). فإذا اختل أحد هذين الشرطين في أي نظام هجائي عد ذلك عيبا واختلالا في نظام الكتابة بالمقياس العلمي. ويمثل لذلك بأن تشتمل حروف الهجاء على حرف يدل على أكثر من صوت واحد، كما هو الحال في اللغة الانجليزية حيث تجد صوت الحركة الممالة (الأمامية المتوسطة). يعبر بها عن أصوات كثيرة، فتعبر حينا عن الكسرة الممالة كما في كلمة (men) وتعبر حينا آخر عن الكسرة الصريحة كما في كلمة (Women) كما تعبر عن صوت الحركة المتوسطة (e) كما في كلمة (The) وكلمة (Writer) وتعبر أيضاً عن صوت الكسرة الطويلة كما في كلمة (be). وينطبق ذلك على الحركات الأخرى في اللغة الانجليزية كما نجد هذا الخلل في الصحاح الانجليزية (Consonants). وهذا العيب يسميه علماء اللغة (Underdifferentiation) أي ضعف التمييز.

أما النوع الثاني من العيوب الكتابية فهو أن تشتمل حروف الهجاء على صوت واحد يعبر عنه بحروف كثيرة (Allographs). ونجد لهذا أمثلة كثيرة في اللغة الانجليزية أيضا. من ذلك صوت الكاف الذي يرمز إليه حينا بـ k كما في كلمة (Book) ويرمز له حينا آخر بـ c كما في كلمة (Case) وحينا ثالثا يرمز له بـ ch كما في كلمة (Character) وحينا رابعا يرمز له بـ q كما في كلمة (Chêque) ومثل هذا العيب يسميه علماء اللغة (Overdifferentiation) وامثلته كثيرة أيضا في اللغة الانجليزية.

إذا حاولنا تطبيق هذين المعيارين على الكتابة العربية في صورتها قبل حركة الاصلاح (أي قبل الأعجام) وقارناها بما تم عمله بعد ذلك فسنجد أن الحروف الهجائية قبل حركة الاصلاح أي حتى النصف الأول من القرن الهجري الأول كانت تشتمل على ستة أحرف خصص كل منها للتعبير عن صوت واحد فقط وهي (ا ك ل م هـ و) أما بقية الحروف الهجائية وعددها ٩ أحرف فكانت تعبر عن ٢٢ صوتا إذ كان كل منها يعبر عن صوتين أو أكثر وهي (ب ح د ر س ص ط ع و)، وبذلك انطبق عليها العيب الكتابي الذي يسمى (Underdifferentiation) ناهيك عن أصوات الحركات التي لم يكن يرمز لها بأي رمز في ذلك الوقت البتة.

والعمل الذي قام به أبو الأسود الدؤلي ومن جاء بعده من العلماء حتى الخليل بن أحمد وضع الكتابة العربية في مصاف الكتابات العلمية التي تسمى الكتابة الصوتية (أو الفونيمية)، فبفضل جهود هؤلاء العلماء أصبح لكل صوت عربي رمز خاص به يعبر به عنه في الكتابة سواء أكان هذا الصوت صحيحاً أم حركة. وتم ذلك على مراحل، وكان لكل مرحلة ظروفها وعلماؤها. وتتلخص هذه المراحل فيما يلي:

(أ) المرحلة الأولى — نقط الحركات:

كان السبب المباشر الذي دعا إلى اللجوء إلى ابتكار رموز تعبر عن الحركات هو فشو اللحن وخشية أن يؤثر ذلك على قراءة القرآن. فعلى الرغم من الاهتمام الذي وجهه المسلمون الأوائل

سُوْرَتُوْلُ ٱلْفَاتِحَةُ

كنكل ون جبنلت بنكل بلبيذي
عرنلت بنكل حبثك كامل كل مكنكول.
ذكل وحيبتي ميلا د عن يازدويب تيمط
جيكم غ سكي ماسكي غ كغ. لم ون
هنا ذي نلا ط بن محمد هيتن دويب ذب.
«الفاتحة» عن هيتر فرك دويب سكي غ كغ.
ون وييب دويب سكي سب ناتدي زكل هنا ذي
ناكنكور لو هنا ذي لو رنكور غط فلدي ربلط
سكي غ كغ. لمو هنا ذي ناكنكور بردي لو
رنكور جونب. ذي «الفاتحة» غو تلنتي توي
جونب كبيوي ها عن باورنتد جولد نكوروو تر.

▫ **نموذج من المخطوطات والكتب باللغات الافريقية المكتوبة بالحرف العربي.**

لاستقامة اللسان وتمسكهم بقراءة القرآن على النحو الذي نزل به، فإن تطور اللغة لم يتوقف، وظل اللحن يفشو وينتشر حتى ظهر على ألسنة العامة والخاصة. وهنا سرى إحساس بخطورة فشو اللحن على كتاب الله، وصحب هذا الاحساس إدراك لقصور الكتابة العربية آنذاك عن الوفاء بتمثيل الألفاظ في شيء من الدقة.

وأول ظاهرة لغوية دخلها الفساد في اللغة آنذاك هي «إعراب أواخر الكلمات». وتذخر كتب النحو واللغة بالروايات التي تتضمن أمثلة للحن في الحديث اليومي وفي قراءة القرآن، وكلها تتصل بإعراب أواخر الكلمات. هذا هو السبب الذي جعل الاهتمام يتوجه بادىء ذي بدىء إلى ابتكار رموز للحركات تضبط بها أواخر الكلمات قبل التفكير في نقط الحروف.

هنالك روايات مختلفة حول أول من أخذ زمام المبادرة ووجه بإصلاح الكتابة، وحول أول من بدأ عملية الاصلاح. قيل أن أبا الأسود قد فعل ذلك بأمر من سيدنا علي بن أبي طالب الذي سمع رجلا يقرأ (إن الله بريء من المشركين ورسوله) بجر لام رسوله بدلا من رفعها، وقيل أنه فعل ذلك بأمر من زياد أمير العراق، وقيل أنه

فعل ذلك بنفسه حين سمع رجلا يخطىء في هذه الآية.. وهنالك أقوال أخرى ليس هذا مجال الخوض فيها. ومهما يكن من أمر الذي دعا إلى الاصلاح فإن الراجح لدى العلماء أن أبا الأسود الدؤلي هو أول من أجرى تجربة ابتكار رموز الحركات.

ولما كان السبب في إصلاح الكتابة هو فساد اللسان بفشو اللحن كان من الطبيعي أن يبدأ هذا الاصلاح بالجانب الوظيفي للحرف العربي قبل الجانب الجمالي. ولما كان موضع الفساد هو إعراب أواخر الكلمات كان من الطبيعي أيضا أن يبدأ الاصلاح بضبط أواخر الكلمات، وأن يأتي نقط الحروف في مرحلة تالية لذلك.

كيف اكتشف أبو الأسود الحركات؟
وكيف رمز لها؟

لم يكن معروفا لأبي الأسود ولا لمن عاصروه أو سبقوه من العرب أن عدد الحركات في اللغة العربية ثلاثا أو أقل أو أكثر، إذ لم تكن هنالك رموز تعبر عنها. ومقدرة المتحدثين باللغة على الكلام بالسليقة لا يعني بالضرورة إدراكهم لنظامها الصوتي أو النحوي. والذي يقود السيارة بمهارة لا يعني ضرورة أنه يدرك أسرار الآلات التي تعمل على تحريكها. وكان على أبي الأسود أن يجري تجربة ميدانية ليكتشف طبيعة الحركات العربية، ثم يرمز لكل حركة برمز خاص. وقد اختط أبو الأسود لنفسه منهجا علميا حين بدأ بملاحظة حركة أعضاء النطق وعلى التحديد حركة الفم والشفتين ليصل إلى القيم الصوتية للحركات (Vowel quality) التي تصاحب كل حركة للفم والشفتين. وطلب أبو الأسود إلى تلميذه أن ينظر إلى حركة فمه وأن يستمع جيدا إلى الصوت الذي يصاحب كل حركة للشفتين ثم أعطاه قلما وصبغا يخالف لونه لون المداد الذي كتب به المصحف الذي كان يجري عليه التعديل. قال أبو الأسود لصاحبه: «إذا رأيتني فتحت شفتيّ بالحرف فانقط نقطة فوقه على أعلاه، فإن ضممت شفتيّ فانقط نقطة بين يدي الحرف، فإذا كسرت فاجعل النقطة تحت الحرف، فإن اتبعت شيئا من هذه الحركات غنة (أي تنوينا) فاجعل نقطتين. واستمر أبو الأسود وصاحبه على ذلك أتيا إلى آخر المصحف.

بذلك وصل أبو الأسود إلى معرفة عدد الحركات في اللغة العربية، ووصل إلى معرفة التنوين، ووضع لكل من ذلك رمزا خاصا به يميزه عن الآخر. ورمز أبو الأسود لكل حركة من الحركات الثلاث بنقطة، **فوضع بذلك مبدأ التمييز بالنقط**. كما اختار **مبدأ اختلاف مواضع النقط** وسيلة للتمييز بين الحركات، واختار كذلك **تعدد النقط** وسيلة أخرى للتعبير عن الحركات أو التنوين. وهي تتلخص في الآتي:

١ ــ الفتحة، ورمز لها بنقطة فوق الحرف هكذا ـ

٢ ــ الكسرة ورمز لها بنقطة تحت الحرف هكذا ـ

٣ ــ الضمة ورمز لها بنقطة بين يدي الحرف هكذا ـ

٤ ــ التنوين بالفتحة ورمز له بنقطتين فوق الحرف هكذا ـ

٥ ــ التنوين بالكسره ورمز له بنقطتين تحت الحرف هكذا ـ

٦ ــ التنوين بالضمة ورمز له بنقطتين بين يدي الحرف هكذا ـ:

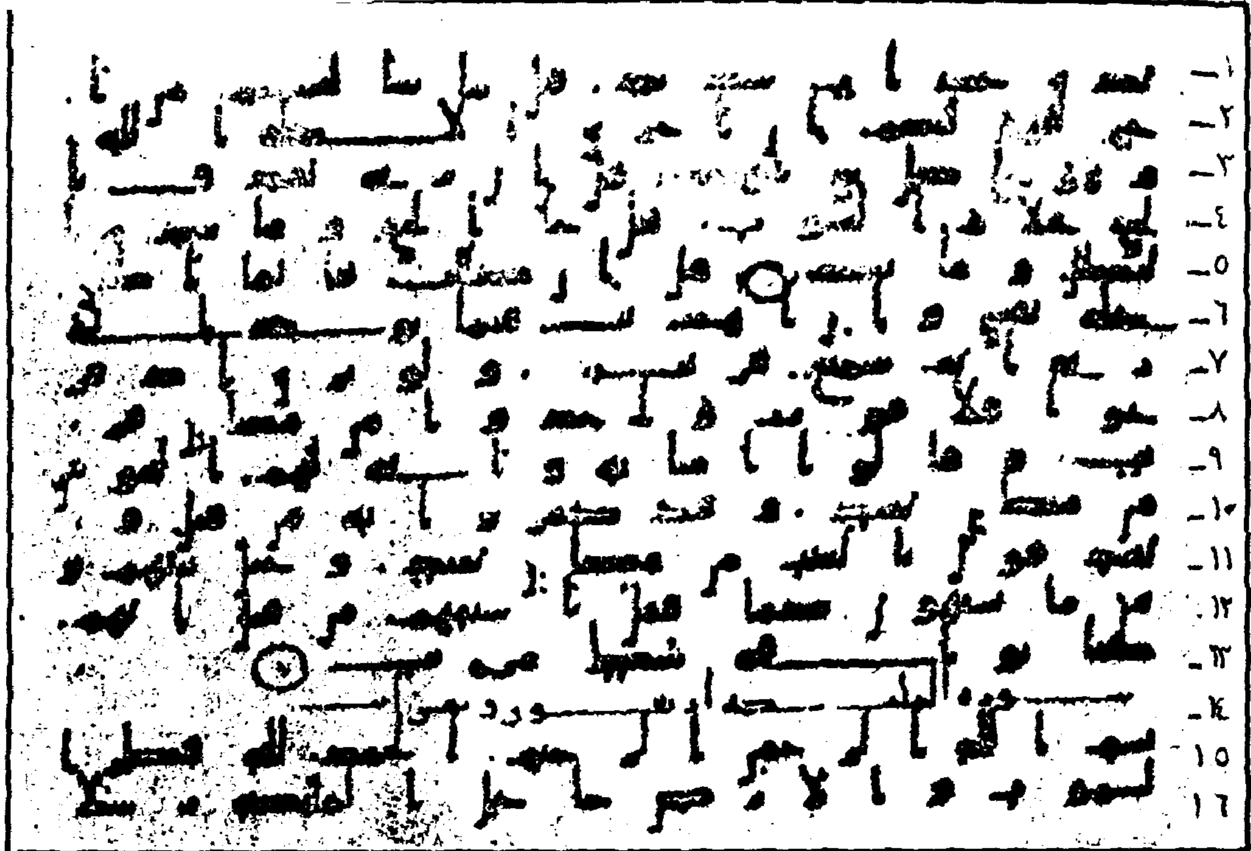
ويجدر أن نشير هنا إلى أن النماذج التي وصلت إلينا من العصور الاسلامية الأولى للاسلام توضح أن نقط التنوين يكون حينما نقطتين في شكل رأسي هكذا (:) ويكون حينا آخر في شكل أفقي هكذا (..)(انظر النموذج ص ٧)

النموذج التالي عبارة عن الآيات الثمانية الأخيرة من سورة سبأ وأول سورة فاطر (سورة الملائكة)، وقد نسبت في بعض المصادر إلى عهد الخليفة عثمان بن عفان[٨]. إلا أنني أرجح أن تكون من عهد متأخر عن ذلك لأنها مشتملة على نقط الحركات كما اقترحه أبو الأسود الدؤلي. والمعروف أن المصاحف التي كتبت على عهد عثمان كانت خالية من نقط الحركات ونقط الحروف.

الآيات:

قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله. مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بينن.

١ ــ يدي عذاب شديد، قل ما سألتكم من أ



في هذا النموذج يتضح لنا ان نقط التنوين كان يكتب احياناً في شكل افقي ــ ـــ ـــ ، ويكتب احياناً اخرى في شكل راسي ــ ـــ (قارن السطر ٧ «سميع قريب» بالسطر ٨ «مكان» والسطر ٩/٨ «قريب». انظر ايضاً السطر ١١ «مكان بعيد»).

٢ ــ جر فهو لكم أن أجرى إلا على الله

٣ ــ وهو على كل شيء شهيد، قل ان ربي يقذف با

٤ ــ لحق علام الغيوب، قل جاء الحق وما يبدىء ا

٥ ــ لباطل وما يعيد. قل أن ضللت فإنما أضل

٦ ــ على نفسي وأن اهتديت فبما يوحي إلَيَّ

٧ ــ ربي إنه سميع قريب. ولو ترى إذ فز

٨ ــ عوا فلا فوت وأخذوا من مكان قر

٩ ــ يب. وقالوا آمنا به وإني لهم التناوش

١٠ ــ من مكان بعيد. وقد كفروا به من قبل و

١١ ــ يقذفون بالغيب من مكان بعيد. وحيل بينهم و

١٢ ــ بين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل أنهم

١٣ ــ كانوا في شك مريب.

١٤ ــ سورة الملائكة أربعون وخمس آيات

١٥ ــ بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله فاطر

١٦ ــ السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا

كما تجدر الاشارة إلى أن أبا الأسود هو من أطلق كلمة غنة لتعني التنوين.

(ب) المرحلة الثانية ــ نقط الحروف والشد

المبدأ الذي وضعه أبو الأسود لاصلاح الكتابة عن طريق النقط أوحى لمن أتى بعده من العلماء الذين أكملوا عملية الاصلاح أن يميزوا بين الحروف أيضا بالنقط وباختلاف تعدد النقط واختلاف مكان النقط من الحرف. وأوصى كذلك للأجيال القادمة من الأمم التي دخلت الاسلام وكتبت لغاتها بالحرف العربي، أن تتخذ أيضا هذه المبادىء لتطويع الحرف العربي ليعبر عن الأصوات المختلفة في تلك اللغات.

هنالك خلاف حول أول من قام بأعجام الحروف أي نقطها. وتشير معظم الروايات إلى أن نقط الحروف تم على يدي العالمين المشهورين عمر بن عاصم الليثي ويحيى بن يعمر العدواني وكلاهما من تلاميذ أبي الأسود الدؤلي. ويقال أنهما قاما بهذا العمل بأمر من الحجاج بن

يوسف الثقفي. وليس غريبا على تلميذي أبي الأسود أن يقتفيا أثر شيخهما بتطبيق المبادىء التي وضعها لنقط الحركات، على الحروف للتمييز بينها حتى يصير لكل صوت رمز خاص به يعبر عنه. وهذه المبادىء هي:

١ ــ التمييز بالنقط.

٢ ــ التمييز باختلاف موضع النقط من الحرف.

٣ ــ التمييز بتعدد النقط.

وحتى لا يلتبس نقط الحروف بنقط الحركات جعل ناقطو الحروف نقطهم بالمداد الأسود وأبقوا على نقط أبي الأسود بصبغ يخالف لونه لون مداد الحروف. وبذلك صار نقط الحرف جزءا لا يتجزأ من صلب الحرف أي صارت شخصية الحرف تتكون من الشكل الأساسي للحرف زائداً النقط فوق الحرف أو تحته بنقطة واحدة أو نقطتين أو ثلاثة نقط.

وكان جملة ما أضيف من نقط للتمييز بين الحروف كما يلي:

(أ) النقطة الواحدة فوق الحرف وقد ميزت ثمانية حروف هي: خ، ذ، ز، ض، ظ، غ، ف، ن.

(ب) النقطة الواحدة تحت الحرف وقد ميزت حرفين هما: ب، ج.

(ج) النقطتان فوق الحرف وقد ميزت حرفين هما: ت، ق.

(د) النقطتان تحت الحرف وقد ميزت حرفاً واحدا هو: ي.

(هـ) النقط الثلاث وقد ميزت حرفين هما: ث، ش.

وهنالك ستة حروف لم يدخلها الأعجام هي: ا، ك، ل، م، هـ، و.

ويبدو أنه لم يكن هنالك أساس صوتي أو غير صوتي تقرر بموجبه عدد النقط أو مكانه بالنسبة للحرف هذا أو ذاك. وكان من الممكن أن تكون للباء نقطتان أو أكثر فوق الحرف أو تحته، وهذا ينطبق على كل الحروف الأخرى. ويبدو أن اختيار موضع النقط من الحرف كان أيضا اعتباطيا. وكل ما هدف إليه واضعو النقط هو إزالة اللبس بالتمييز بين الحروف بحيث يكون لكل صوت حرف خاص به يميزه عن الحروف الأخرى، مهملا كان أم معجما. وبذلك حققوا الهدف العظيم الذي رموا إليه بنجاح عظيم.

المرونة التي اكتسبها
الحرف العربي بالنقط:

إن المبدأ الذي وضعه أبو الأسود ومن جاء بعده من العلماء من اتخاذ **مبدأ التمييز بين الحروف عن طريق النقط، وموضعه من الحرف، وتعدده**، جعل كل حرف من الحروف العربية قابلا لاحتمالات النقط الخمسة التي اقترحت، وهي: ـنـ ـبـ ـنـ: ـبـ ـثـ وبذلك اصبحت الحروف المعجمة التي **يمكن إنتاجها** ٧٥ حرفا عبارة عن حاصل ضرب ٥ × ١٥ (ا ب ح د ر س ص ط ع ف ك ل م هـ و). يضاف إلى ذلك ثلاثة عشر حرفا مهملا بعد حذف الحرفين (ب) و (ف) اللذان لا يستعملان مهملين للتعبير عن صوت (فونيم)، وعليه تكون جملة الاحتمالات ٨٨ حرفا. اختير للغة العربية من هذه الاحتمالات الثمانية والثمانين ٢٨ حرفا. واستفادت لغات الأمم الاسلامية من الاحتمالات الأخرى واستخدمت بعضها في لغاتها لتعبر بها عن الأصوات التي لا توجد في اللغة العربية مثل: (گـ ڪـ ڬـ ڤ پ چ څ ۼ ڊ ڕ ژ ظ ڟ... الخ) وقد طبقت ذلك كثير من اللغات غير العربية التي كتبت بالحرف العربي.

وأضافت بعض لغات الأمم الاسلامية مبدأ جديدا في النقط للتعبير عن بعض أصواتها التي لا توجد في اللغة العربية. من ذلك:

(أ) النقطتان الأفقيتان فوق الحرف أو تحته (ـنـ، ـيـ).

(ب) أربع نقط فوق الحرف أو تحته (ـٹـ، ـٿـ).

(ج) نقط الحرف ثلاثا فوقه في شكل مثلث قاعدته إلى أعلى ورأسه إلى أسفل (ـٺـ) وعكس ذلك تحت الحرف (ـپـ).

هذا بالاضافة إلى رموز اللغة العربية التي استخدمت ما يناسبها في لغتها واحتفظت بالبعض الآخر لتعبر به عن أصوات اللغة العربية عند تعلمها.

إذا أضفنا هذه الاحتمالات الجديدة الستة (ـٺـ، ـپـ، ـٺـ، ـيـ، ـٹـ، ـٿـ) لكل حرف من الحروف الخمسة عشر (المهملة) أنتجت لنا ستين شكلا

جديدا يضاف إلى الثمانية والثمانين ليكون مجموع الأشكال الممكنة ١٧٨ هذا بخلاف الاضافات التي تمت في عدد من اللغات ولم يستخدم فيها النقط مثل الكاف الفارسية گـ والحروف المركبة المستخدمة في الأردو واللغات الأفريقية على النحو الذي سنفصله فيما بعد.

لقد سقنا هذه المقدمة لندلل على أن الاسهام الذي قدمه سلفنا الصالح وعلى رأسهم أبو الأسود الدؤلي ومن جاء بعده، كان له الفضل في إكساب الحروف العربية التي وجدوها (وعددها لا يزيد على ١٥ حرفا) مرونة جعلتها قادرة على توليد أشكال مختلفة عن طريق التمييز بالنقط حتى قاربت المائتي شكل. وبذلك أعطى الحرف العربي لغات الأمم الاسلامية فرصا واسعة لتولد منها ما يتناسب مع أصواتها من رموز أصولها عربية ولا تختلف إلا بالنقط.

الشـد:

في هذه المرحلة (الثانية) من مراحل تطوير الحرف العربي، اختير أيضا رمز يعبر عن التضعيف (الشد) وهو ظاهرة لغوية يعتبرها علماء الأصوات (فونيما) يفرق بين معاني الكلمات. ومنذ القرن الهجري الأول فطن العلماء العرب إلى أهمية هذه الظاهرة الصوتية واقترحوا لها رمزا يعبر عنها في الكتابة.

ويبدو أن الرمز الذي اقترح للشد قد مر بمرحلتين قبل أن يستقر نهائيا على يد الخليل بن أحمد. وكان في المرحلتين متأثرا بالمبدأ الذي وضعه أبو الأسود لنقط الحركات من حيث مكانته بالنسبة للحرف (فوقه أو تحته أو بين يديه) وفي كل مرحلة كتب الشد بطريقة مختلفة. وتثبت المخطوطات طريقتين لكتابة الشد:

في الطريقة الأولى يرمز للشد بنصف دائرة مفتوحة إلى أعلى أو أسفل أو كما عبر صاحب كتاب «الخراز في الضبط» وصف شكلها بدال قائمة الجناحين هكذا: (◡)، (◠). وكانت تكتب مع الحركات على النحو التالي:

— الشد بالفتح ـ◡ـ (النقطة ترمز للفتحة).
— الشد بالكسر ـ◠ـ (النقطة ترمز للكسر).
— الشد بالضم ـ◡ـ (النقطة ترمز للضم).

أما في الطريقة الثانية فقد رمز للشد برأس شين هكذا:

— الشد بالفتح ـّـ
— الشد بالكسر ـّـ
— الشد بالضم ـّـ

يلحظ هنا أن الشد بالكسر كتب تحت الحرف، وبالضم بين يديه على طريقة أبي الأسود ويبدو أن الكتابة العربية ظلت تتردد بين استعمال الشكلين السابقين للشد حتى منتصف القرن الثاني الهجري، أما في المصاحف فقد استمر العمل بها لبضعة قرون.

والراجح أن الانتقال برمز الشد من مرحلة نصف الدائرة إلى رأس الشين (ـّـ) تم على يدي الخليل بن أحمد الذي قدم إضافات أخرى إلى الكتابة العربية لم يستطع أحد بعده أن يضيف إليها شيئا إلى يومنا هذا، حيث استوفت كل مقوماتها الوظيفية. وإضافات الخليل التي سنذكرها فيما يلي هي المرحلة الثالثة لأطوار الحرف العربي.

(ج) المرحلة الثالثة — مرحلة نضج الكتابة:

في هذه المرحلة استوفت الكتابة العربية كل مقوماتها الوظيفية على يدي الخليل بن أحمد الفراهيدي. ويعزى إلى الخليل ابتكار الرموز التالية:

١ — رمز السكون ـْـ
٢ — رمز الهمزه ء
٣ — رمز المد ~
٤ — رمز الصلة ص

كما يعزى له استبدال نقط الحركات الذي اقترحه أبو الأسود برموز الحركات المعروفة لدينا الآن (ـَـ ـُـ ـِـ ـٌـ).

وبعد أن كان نقط الحركات معبرا عن حركات أواخر الكلمات صارت العلامات الجديدة (الفتحة والكسرة والضمة) ترمز إلى الحركات سواء اكانت في آخر الكلمة (الاعراب) أم في بنية الكلمة، أم كانت تخلصا من التقاء الساكنين. وتبعا لتغير علامات الاعراب من النقط إلى الشكل المعروف لدينا تغيرت أيضا علامات التنوين من النقط إلى العلامات المعروفة لدينا الآن.

واستقرت علامة الشد على الشكل المعروف لدينا، وصارت الشدة المحركة بالكسر تكتب فوق

الحرف بدلا من تحت الحرف.

ووضع الخليل علامة الامالة دائرة مفتوحة تحت الحرف الممال ـِ مثل «الناس»، «مجريها».

الرموز الصوتية (الفونتيكية) في القرآن:

قام علماء الضبط والرسم القرآني بوضع مجموعة من العلامات الفونتيكية لضبط قراءة القرآن. وهي قاصرة على القرآن ولا تستخدم في نظام الكتابة العامة لعدم الحاجة إليه.

ومع أن الكتابة العربية قد استقرت من الناحية الوظيفية (لا الجمالية) على الصورة التي انتهت إليها في عهد الخليل، إلا أن كتابة المصاحف ظلت تعمل قرونا طويلة ببعض الرموز التي اختفت من النظام الهجائي والاملائي العام. فما نزال نجد في بعض المصاحف الرموز المكتوبة بالألوان الأحمر والأصفر. وقد بدأت تختفي كتابة الرموز بالألوان بظهور المطابع الحديثة حيث استبدلت الرموز الملونة برموز كتبت بلون المداد الذي كتب به المصحف (الأسود). وتم ذلك في أوائل هذا القرن العشرين.

كيف كتبت اللغات الأفريقية بالحرف العربي

الاحصائية التي قام بها كاتب هذه السطور حول عدد اللغات التي تمت كتابتها بالحرف العربي في أفريقيا وآسيا تشير إلى أن هنالك أكثر من ستين لغة ومن لغات الأمم والمجموعات الاسلامية كانت تكتب بالحرف العربي من بينها حوالي ثلاثين لغة أفريقية. وعلى الرغم من أن الاستعمار كان من أهم أهدافه محاربة العقيدة الإسلامية ومحاصرتها في أضيق نطاق، ومحاربة اللغة العربية ــ لغة القرآن ــ إلا أن هذه الحرب امتدت أيضا إلى الحرف العربي الذي كتبت به تلك اللغات. وقد يعجب المرء ويتساءل عن السبب الذي من أجله حارب الاستعمار الحرف العربي.. ولكن العجب يزول إذا علمنا أن الحرف العربي الذي تكتب به لغة قوم من شأنه أن يكون حلقة الوصل بينهم وبين القرآن المكتوب بالحرف ذاته، وهو مدخل سهل لتعلم القرآن. فالذي يتعلم كيف يكتب لغة بالحرف العربي يستطيع قراءة القرآن بأقل جهد فإذا كتبت اللغة بحرف غير عربي انقطعت الصلة بين متكلميها وبين قراءة القرآن، ما لم يبذل جهد مضن لمعرفة الحرف العربي ومن ثم تكون قراءة القرآن ممكنة.

ثم أن للحرف الذي تكتب به اللغة ــ أي لغة ــ تأثيراً نفسيا عميقا على أهل اللغة التي تكتب بهذا الحرف من حيث ارتباطهم بتراث هذا الحرف، فهو في كل لغة يمثل جزءا من التراث الشعبي للمتكلمين باللغة، ويمثل جزءا من تاريخهم وحضارتهم وشخصيتهم في الماضي والحاضر، ويمثل بالتالي جزءا من تكوينهم النفسي. لهذا فإن ارتباط الانسان بالحرف الذي تكتب به لغته تمتد جذوره إلى أعماق نفسية بعيدة الغور.

والكتابة أشد محافظة من اللغة، فاللغة بمرور الزمن تتطور وتتغير بعض أصواتها ومعاني مفرداتها وتراكيبها، ولكن الكتابة لا تتطور بنفس السرعة، وفي كثير من الأحيان تجد محاولات تطوير الكتابة مقاومة شديدة من المتكلمين باللغة حتى ولو كان التطوير ضروريا ومنطقيا ومفيدا. وقد تؤدي محاولة تغيير الحرف إلى ثورة، كما أن تغيير نظام الكتابة من حرف إلى حرف آخر لا يكتب له النجاح في أغلب الأحيان ما لم يكن مصحوبا بالعنف والقهر كما حدث في تركيا ولغات المسلمين في روسيا وأوروبا الشرقية.

ويمتد تاريخ الحرف العربي في اللغات الأفريقية إلى تاريخ دخول الاسلام والثقافة العربية والاسلامية في هذه القارة. فاللغة السواحلية كتبت بالحرف العربي منذ عهود سحيقة لم يعرف حتى الآن متى كانت بدايتها على وجه التحديد، ولكن الوثائق (المخطوطات الدينية والاشعار) تشير إلى أن بعضها كتب منذ القرون الأولى للاسلام بالحرف العربي، ودور الوثائق والمخطوطات في أفريقيا وعواصم البلدان الأوروبية تكتظ بالمخطوطات الأفريقية المكتوبة بالحرف العربي والتي يرجع تاريخها إلى عدة قرون مضت. ان المخطوطات الأفريقية تعتبر من المجالات البكر التي تستحق الدراسة، وهي تنطوي عن حقائق هامة في تاريخ الحضارة العربية والاسلامية وتاريخ الشعوب الأفريقية.

بسم الله الرحمن الرحيم

□ نموذج من المخطوطات والكتب باللغات الافريقية المكتوبة بالحرف العربي.

اللغات الأفريقية التي كتبت بالخط العربي

عدد اللغات الأفريقية التي كتبت بالخط العربي عبر القرون وإلى يومنا هذا تناهز الثلاثين لغة، على رأسها كبريات اللغات التي تتكلمها عشرات الملايين اليوم في أفريقيا من هذه اللغات ما يلي:

لغة الهوسا التي **تتحدث في** نيجريا والنيجر والكمرون والسودان وغانا وبلاد أخرى في غرب أفريقيا.

لغة الفلاني بلهجاتها المختلفة وهي فلاني وفلفلدي وباغرمي وبورورو، وفونا جولان (وتسمى فوتا فولا) ويولار، وماتشينا. **وهي تتحدث في** المنطقة التي تمتد من السودان وحتى السنغال.

لغة السواحيلي التي **تتحدث في** تانزانيا وكينيا ويوغندا والكنغو.

لغة مانديكان وهي تلي الهوسا والسواحيلي والفلاني في الانتشار، ولهجاتها بامبارا (وتسمى بامانا) وديانغرتي، وكالونغو وكوغورو (كاكوورو)، وماساسي، ونلياماسا، وسامونو، وتورو، وخاسونكي، وهي **تتحدث** في سيراليون وغانا وليبيريا، وفولتا العليا وغينيا.

ولغة سوننكي وتسمى أيضا دياكانكي ومارکا، وسراكوني، وسراولي، وتوباكاي، وواكوري، وغادياغا. ولهجاتها أزير، وبوزو **وتتحدث** في: مالي والسنغال وموريتانيا وغامبيا.

ولغة ولوف وهي تتحدث في السنغال وغامبيا.

ولغة تمنى وهي **تتحدث** في سيراليون.

واللغة الصومالية[٩] وهي **تتحدث** في الصومال وجزء من كينيا وجزء من الحبشة. والصومال هي القطر المسلم الوحيد في أفريقيا شرقها وغربها الذي **يتحدث** أهله جميعهم لغة واحدة.

ومن لغات السودان (كتبت بالحرف العربي في الخمسينات من هذا القرن) **الدينكا والزاندي والباري والمورو واللاتوكا والشلك والنوير والمورلي والأنواك**. وسبق أن كتبت اللغة النوبية في شمال السودان[١٠] كما كتب إحدى لغات جبال النوبة بالحرف العربي حديثا وكتب الحرف العربي اللغات غير العربية التي تتحدث في الجزائر وهي:

(لغة كابيلي) وكذلك **لغة شلهي** التي **تتحدث** في جبال الأطلس، جنوب مراكش.

اللغات الأفريقية بين الحرف العربي والحرف اللاتيني

على الرغم من أن الاستعمار شرع منذ أن وطئت أقدامه أرض أفريقيا يوجه حربا ضد الاسلام عقيدة، ولغة وحرفا، وأحل الحرف اللاتيني محل الحرف العربي لكتابة هذه اللغات، فقد قاوم الحرف العربي وصمد ضد هذه الحرب طوال القرون الأربعة الماضية. وما زالت هذه اللغات ــ فيما عدا القليل منها ــ تكتب بالحرف العربي. بها تكتب العقود والمواثيق بين الناس، وبها تكتب العلوم الاسلامية ويشرح التفسير والحديث، وبها يكتب الشعر. بل أن الطفل الأفريقي المسلم يفتح عينيه على الحرف العربي منذ نعومة أظفاره قبل أن يفتحها على الحرف اللاتيني، وإذا فاته ذلك فقد يدركها في حلقات محو الأمية. لقد أجرى بعض العلماء الأوروبيين[١١] تجربة بين الناطقين بلغتي ماندينغ (بمبارا) وتمن (Temne) بين الأميين الذين لم يتعلموا كتابة لغتهم بالحروف العربية ولكن تعلموا القرآن، والتجربة التي أجراها أوضحت أنهم استطاعوا أن يقرأوا ويكتبوا نصوصا بلغتهم بالحروف العربية دون صعوبة، ونصح بنشر كتابة الحرف العربي بهذه اللغات لأن ذلك من شأنه أن يزيد عدد القارئين في وقت وجيز. وأشار إلى أن ذلك مصدر هام لتعليم الكبار لم يتنبه إليه المخططون للتعليم في البلاد، وأن الذين تنبهوا إليه أهملوه. ودعا الباحث إلى ضرورة القيام بأبحاث في هذا الشأن للاستفادة من هذه الثروة في برامج التعليم والتنمية.

وفي غامبيا (غرب افريقيا) كانت هنالك نشرة إخبارية تصدرها الحكومة بلغة ماندينكا بالحرف العربي، وصادفت نجاحا عظيما على المستوى الشعبي، واستخدمتها حكومة غامبيا على نطاق واسع عندما اعتزمت إصدار عملة جديدة. كما صدرت بها الارشادات الصحية التي تصدرها

وزارة الصحة، والارشادات التي تعدها وزارة الزراعة للفلاحين[١٢]. ومن المألوف أن تجد اسماء المستشفيات وبعض المحلات العامة مكتوبة بلغات تلك البلاد بالحرف العربي.

ومنذ وقت طويل اتضح للارساليات التبشيرية المسيحية فعالية الحرف العربي عندما تترجم الأناجيل إلى هذه اللغات. وقد جمع الأستاذ إي. نورث نماذج من الانجيل المكتوب بهذه اللغات بالحرف العربي. وقد وجدت أن عدد اللغات — لغات الأمم الاسلامية — في أفريقيا وآسيا التي أورد هذا الكاتب لها نماذج من الانجيل بالحرف العربي تبلغ ٤٦ لغة وذلك في كتابه (كتاب الألف لسان) A Book of Thousand Tongues) الذي نشرته جمعية الكتاب المقدس بالولايات المتحدة عام ١٩٢٣.

وبالمثل نجد الجماعة الأحمدية (القاديانية) تستغل الحرف العربي الذي كتبت به اللغات الأفريقية في أعمالها التبشيرية في أفريقيا. وقد شاهدنا في غامبيا عينات من رسائلهم ونشراتهم بلغة ماندينكا بالحروف العربية.

إن أفريقيا بعد الاستقلال، وبعد أن أفاقت إلى حد ما من الصدمة الحضارية الاستعمارية. بدأت تبحث عن شخصيتها الأصيلة بين ركام الماضي الذي خلفه الاستعمار. وقد وجدت من بين تراثها المشرق الحرف العربي، وبدأ تفكير جاد بين العلماء الأفارقة لتطوير الحرف العربي الذي تكتب به هذه اللغات من الناحيتين الوظيفية والجمالية. ويدعو الأستاذ كريم توري (Karim Turay) في بحث له قدمه إلى المعهد الدولي الأفريقي بلندن إلى ضرورة القيام بأبحاث لتقنين الكتابة بالحروف العربية التي كتبت بها لغات الهوسا وماندينكا وتمني، والاستفادة من مدارس القرآن بأفريقيا كمراكز لمحو الأمية حيث أثبتت التجربة نجاح هذه الفكرة.

إن الحرف العربي لم ينهزم أمام الحرف اللاتيني بل قاومه ثم عايشه عبر القرون الأخيرة. وظل يؤدي رسالته على المستوى الشعبي، ملبيا الحاجات الثقافية الأصيلة لهذه المجتمعات وحاجاتهم اليومية، وتطلعاتهم الدينية والأدبية والثقافية. أما الحرف اللاتيني فقد دخل تحت ظل السيف مع الاستعمار وانتشر تحت رقابته وعاش تحت رعايته محميا بكل الأسلحة وبكل المغريات. وعلى العكس من ذلك نجد الحماية التي وجدها الحرف العربي داخلية ذاتية وليست خارجية، لأنه صار جزءا من التكوين الحضاري للشخصية الأفريقية الأصيلة.

الأطوار التي مر بها الحرف العربي في أفريقيا

تقدم أن فكرة التمييز بين الحروف عن طريق النقط قد أكسب الحرف العربي مرونة جعلته قادرا على التعبير عن أصوات الكثير من اللغات غير العربية. وقد استفادت كثير من اللغات الآسيوية من هذه المرونة فأكملت هجاء أصواتها الصحاح حتى صار لكل صوت رمزه الخاص به (One — to — one correspondance) وذلك كاللغة الفارسية والأردية والسندية. ويبدو أن هذه اللغات قد مرت بالمراحل التي مرت بها الكتابة العربية، فبدأت أول الأمر تكتب لغاتها بالحروف العربية دون تعديل، ولما كانت هذه اللغات تشتمل على أصوات ليست لها مقابلات في الحروف العربية اضطرت إلى أن تحمِّل الحرف العربي عبء التعبير عن عدد من أصواتها الخاصة بها (Underdifferentiation) فصار الحرف العربي الواحد يعبِّر عن عدة أصوات، تماما كما كان الحال في الكتابة العربية قبل حركة الاصلاح التي بدأها أبو الأسود الدؤلي. ثم أحس أهل هذه اللغات بقصور الحروف العربية عن تمثيل أصوات هذه اللغات، فلجأوا إلى ما لجأ إليه أبو الأسود ومن جاء بعده بإضافة النقط إلى الحروف لكي تعبر عن أصواتها الخاصة بها مثال ذلك اللغة السواحيلية التي كانت وما تزال تكتب بالحرف العربي منذ أقدم العصور. فقد مرت كتابة هذه اللغة بالحرف العربي بالأطوار الثلاثة[١٣] التالية:

□ **في الطور الأول**: استخدمت اللغة السواحيلية في كتابتها الحروف العربية كما هي دون تعديل لكي تعبر بها عن جميع أصواتها الخاصة بها حتى تلك التي لا توجد في اللغة العربية وبذلك صار الحرف الواحد يعبِّر به عن أكثر من صوت واحد، كما كان الحال في الكتابة العربية في أول أمرها. مثال ذلك حرف الباء (ب)

كان يعبر به عن أربعة أصوات: (١) الصوت الشفوي المجهور الشديد b كما هو الحال في اللغة العربية، (٢) الباء المهموسة p، (٣) الباء الأنفية المجهورة mb، (٤) الباء الأنفية المهموسة mp. ولكل هذه الباءات أصوات لها وظيفة فونيمية في هذه اللغة. وكذا الأمر بالنسبة لكثير من الأصوات الأخرى. فقد استخدم حرف الغين (غ) ليعبِّر به عن الغين العربية في الكلمات العربية الأصل وعن الأصوات السواحيلية الأصل أيضا وهي: g،ŋg وفي نفس الوقت كانت هنالك أصوات يعبر عنها بأكثر من حرف واحد مثل الـ g يكتب حينا (غ) وحينا آخر (ج) وهذا ما يسمى (Overdifferentiation) واستمر الحال على هذا المنوال حتى نهاية القرن التاسع عشر.

□ **الطور الثاني**: الفترة ما بين عام ١٩٠٠ و ١٩٣٥. جرت محاولة لاصلاحات جزئية على نظام الكتابة حيث أدخلت حروفا جديدة في هجاء اللغة السواحيلية مثل حرف الجيم المنقوطة ثلاثا چ ليعبر به عن الشين المهموسة كما في الكلمة الانجليزية (Church) كنيسة والكلمة الفارسية چهار بمعنى أربعة، ومن المحتمل أن يكون هذا الحرف مستعارا من الفارسية، غير أن عملية الاصلاح هذه كانت محدودة ولم تشمل جميع الحروف. ومع ذلك فقد وجدت معارضة من الكثيرين في تانزانيا.

□ **الطور الثالث**: كانت هنالك محاولة لتقنين كتابة اللغة السواحيلية، وكان ذلك بعد عام ١٩٣٥ حيث أدخل أحد القضاة واسمه الشيخ محمد الأمين بعض الحروف المستخدمة في كتابة اللغة الفارسية والأردية إلى الحروف السواحيلية فأدخل الفاء المنقوطة ثلاثا ڤ والغين المنقوطة ثلاثا كما أدخل الحروف المركبة للتعبير عن الأصوات المركبة مثل (مب) = mb و (ند) = nd و (ني) = ny وهكذا.. غير أنه ما تزال هنالك عديد من المشكلات التي تركت وهي تنتظر الحل، بالنسبة لبعض الأصوات الصحاح وبالنسبة للحركات التي لا يوجد لها نظير في اللغة العربية خاصة وأن نظام هذه اللغة يسمح بتوالي أربع حركات دون أن يكون بينها صوت صحيح.



□ نموذج من المخطوطات والكتب باللغات الافريقية المكتوبة بالحرف العربي.

اللغات الأفريقية الأخرى

الظروف التي مرت وتمر بكتابة اللغة السواحيلية تنطبق تماما على كثير من اللغات الأفريقية الأخرى **فهي جميعا في طور محاولة التقنين**، ويسري إحساس عام بين العلماء الأفارقة من رجال الدين والمثقفين بأن الوقت قد حان لادخال تعديلات جذرية على كتابة اللغات الأفريقية بطريقة علمية وذلك بإضافة رموز عربية جديدة تعبر عن الأصوات الصحاح والحركات

التي لا توجد في العربية. غير أن هذه المحاولات يعوزها المدخل العلمي من ناحية وتحتاج إلى إجراءات لتوحيد الرموز التي تكتب به هذه اللغات حتى يكون النظام الكتابي عالميا. وفيما يلي موجز للمشكلات التي تواجه الحرف العربي في أفريقيا.

المشكلات التي تواجه الحرف العربي في أفريقيا

قبل أن نتحدث عن المشكلات التي يواجهها الحرف العربي في أفريقيا يجدر بنا أن نحدد الهدف من كتابة هذه اللغات بالحرف العربي، ثم نحدد النظام الهجائي الأمثل الذي نرمي إليه ثم نعود إلى الوضع الراهن لنحدد المشكلات التي يواجهها الحرف العربي ووسائل علاجها.

الهدف من كتابة اللغات الأفريقية بالحرف العربي

نستطيع أن نجمل الهدف من كتابة اللغات الأفريقية بالحرف العربي في الآتي:

١ ــ المحافظة على التراث الأفريقي الحضاري واستمراره.

٢ ــ التعبير عن أغراض الحياة المعاصرة: التعليمية والدينية والثقافية وأغراض الحياة اليومية.

٣ ــ الاتصال بمصادر الحضارة العربية الاسلامية.

٤ ــ محو الأمية الحضارية والمساعدة على التنمية المحلية.

٥ ــ أن يكون من الميسور الطباعة به على الآلات الكاتبة والمطابع.

لكي يتحقق هذا الهدف يجب أن يكون النظام الهجائي للغة دقيقا واضحا يزيل اللبس ويعبر عن النظام الصوتي للغة بدقة.

النظام الهجائي الأمثل

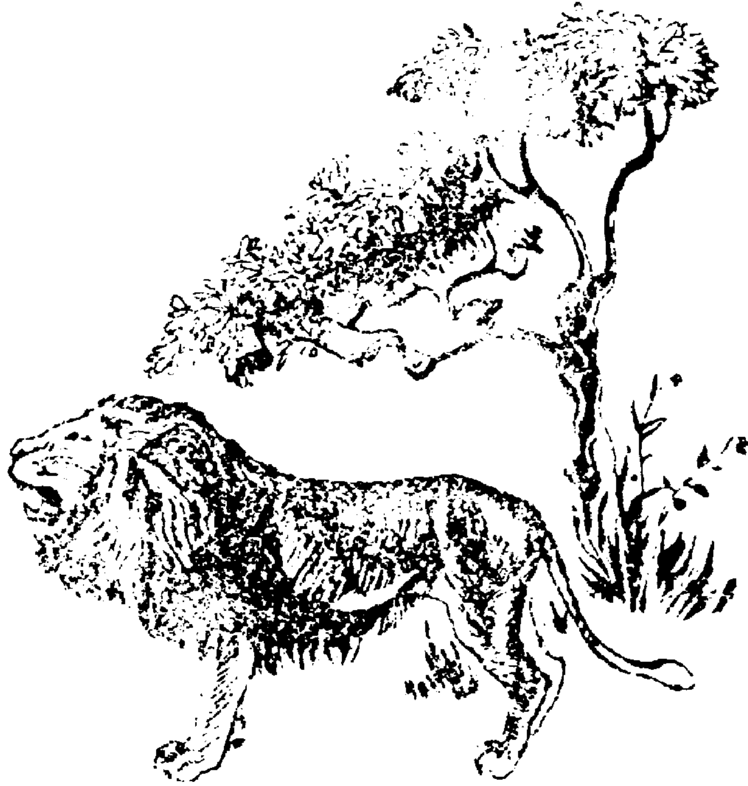
قدمنا في الصفحات السابقة أن المعيار العلمي للنظام الهجائي الأمثل هو: (١) أن يكون لكل صوت من أصوات اللغة (الفونيمات) حرف خاص به يعبر عنه (One — to — one correspondance) بمعنى أن الحرف يجب أن يعبر عن صوت واحد فقط. (٢) ألا يكون هنالك صوت يعبر عنه بأكثر من حرف بمعنى الا يعبر عن الصوت نفسه مرة بحرف معين ومرة أخرى بحرف آخر. فنحن نريد إذا أن يكون لكل صوت من أصوات كل اللغات الأفريقية حرف خاص للتعبير عنه، سواء أكان هذا الصوت صحيحاً (Consenant) أو حركة (Vowel) أو نغماً (Lone). وقد قدمنا أن المرونة الكامنة في الحرف العربي تجعله قادراً على تمثيل العشرات من الأصوات اللغوية.

ومن ناحية أخرى يجب أن نضع في الاعتبار علاقة هذه اللغات باللغة العربية وحروفها.

المُطَالَعَةُ الأَوَّلِيَّة بِلُغَةِ الزَّانْدِى

- ١ -

بَمبَت كِتَابُ چدَيْ



مكتب النشر بالخرطوم

١٩٦٠

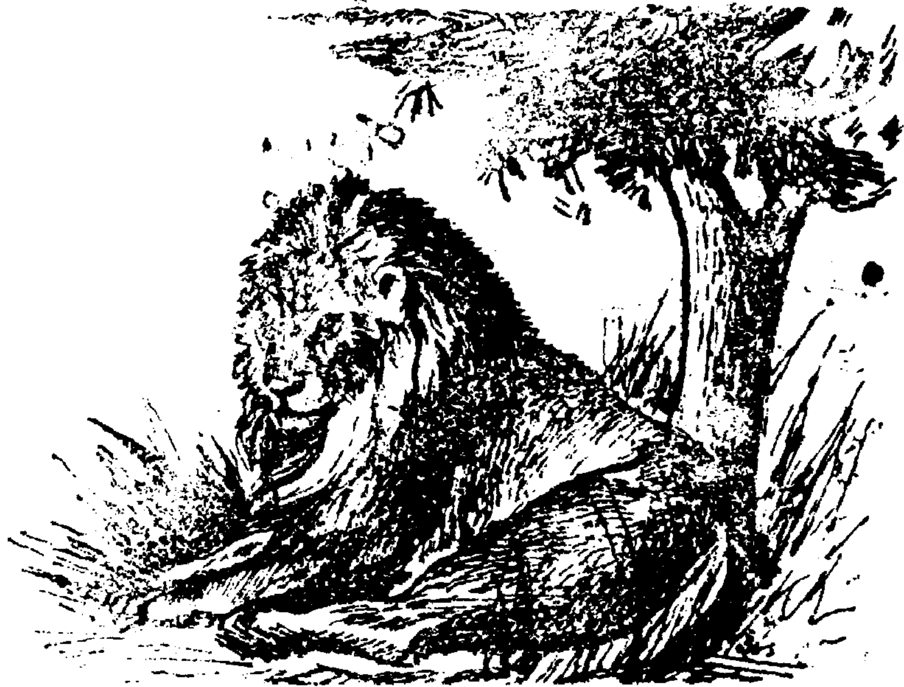
□ نموذج من المخطوطات والكتب باللغات الإفريقية المكتّوبة بالحرف العربي.

المُطالعةُ الأوَّليَّةُ بِلُغَةِ الفورُو

— ١ —

كِتْ

لُوسِ زُ لُوكَ بِ



طبع مكتب النشر بجوبا

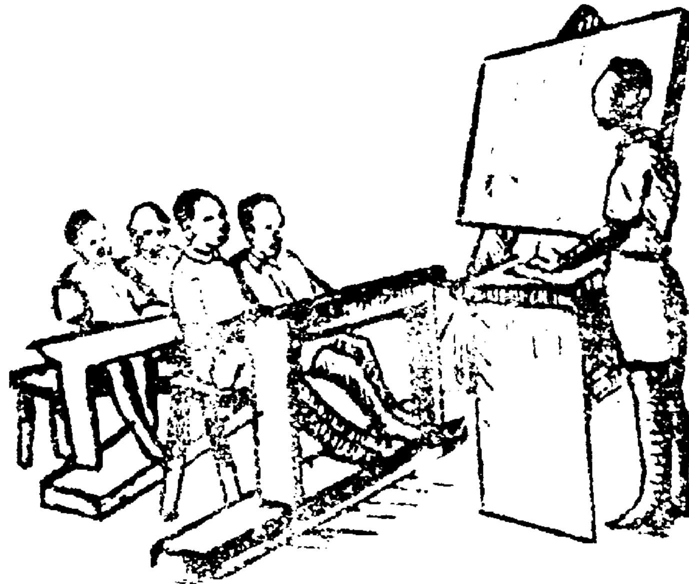
١٩٦٠

□ نموذج من المخطوطات والكتب باللغات الافريقية المكتوبة بالحرف العربي.

المطالعة الأولية بلغة اللاتوكا

- ١ -

اَكِتابْ إهِرِتْ
إبـّـرِ
تْ إكَيْنَ أ تُهْ



طبع مكتب النشر بجوبا

١٩٦٠

□ نموذج من المخطوطات والكتب باللغات الافريقية المكتوبة بالحرف العربي.

وبتعبير أدق العلاقة بين أصوات هذه اللغات وأصوات اللغة العربية حتى نتفادى اللبس الذي قد يحدث عند اختيار الرمز أو الحرف العربي الذي يعبر عن أصوات هذه اللغات ويعبر في نفس الوقت عن أصوات اللغة العربية. ولتوضيح ذلك نستطيع أن نقسم أصوات هذه اللغات وأصوات اللغة العربية إلى المجموعات التالية:

□ **المجموعة الأولى**: مجموعة من الأصوات تشترك فيها هذه اللغات الأفريقية مع اللغة العربية. وفي هذه الحال تستخدم هذه اللغات الحروف العربية ذاتها مثل صوت الباء b، والتاء t والكاف k على أن يعبر الحرف عن صوت واحد هو الصوت المشترك بين اللغتين العربية واللغة الأخرى.

□ **المجموعة الثانية**: هي مجموعة الأصوات التي تختص بها اللغة العربية ولا توجد في اللغة المعنية. وفي هذه الحال يجب الاحتفاظ بحروف هذه الأصوات لتعبر عن أصوات اللغة العربية، وذلك حتى لا يختلط الأمر على أبناء هذه اللغة عند تعلمهم اللغة العربية. مثال ذلك أن بعض اللغات الأفريقية لا يوجد فيها صوت الثاء (ث) وقد استفادت من هذا الحرف العربي لتعبر به عن صوت من أصواتها الخاصة بها ولا يوجد في اللغة العربية وهذا سليم من الناحية الهجائية المحضة غير أن الغرض من إصلاح الكتابة ليس أكاديميا وحسب وإنما له ارتباطات حضارية مع اللغة العربية. فأبناء هذه اللغة الذين يتعلمون هجاء لغتهم ويتدربون على ربط رمز التاء بصوت خاص بلغتهم سيواجهون مشكلة عند تعلمهم اللغة العربية حيث يجدون أن هذا الرمز (ث) يعبر عن صوت آخر في اللغة العربية. لذا فلا بد عند التفكير في ابتكار نظام هجائي لهذه اللغات أن يحتفظ للغة العربية بجميع أصواتها الخاصة بها ولا تستخدم هذه الأصوات للتعبير عن أصوات أخرى غير عربية.

□ **المجموعة الثالثة**: هي مجموعة الأصوات الخاصة باللغات الأفريقية ولا توجد في اللغة العربية وبالتالي لا توجد لها رموز بين الحروف الهجائية العربية الثمانية والعشرين. وهذه هي الأصوات التي تحتاج إلى أن يختار لها رموز تعبر عنها.

فما هي هذه الأصوات الأفريقية التي لا يوجد لها نظائر في اللغة العربية وتحتاج إلى ابتكار رموز خاصة؟

إذا ألقينا نظرة على اللغات الأفريقية فإننا نستطيع أن نلحظ أن الأصوات التي تشتمل عليها هذه اللغات ولا توجد في اللغة العربية تنحصر في الأنواع التالية:

□ **النوع الأول**: أصوات صحاح بسيطة (أي مخرجها واحد) مثل الباء المهموسة p والفاء المجهورة v والكاف المجهورة g.

□ **النوع الثاني**: أصوات صحاح مركبة (تصدر من مخرجين مختلفين) (Double articulation) مثل الباء الأنفية mb والنون الأنفية nd والكاف الشفوية kw.

□ **النوع الثالث**: الحركات البسيطة والمركبة.

بالنسبة للأصوات الصحاح ذوات المخرج الواحد والتي لا توجد في العربية فإننا لا نجد في أي لغة أكثر من بضعة أصوات. بل إذا أحصيناها في جميع اللغات الأفريقية فإن عددها ليس كبيرا بالدرجة التي يمكن أن يتصورها الانسان، وإذا أحصينا الشائع منها فسوف لا تتعدى عشرة أنواع. وأن عددا من هذه الأصوات سبق أن وجد له بالفعل حرف في لغات الأمم الاسلامية في آسيا التي كتبت بالحرف العربي. من هذه الأصوات:

الباء المهموسة پ p
الفاء المجهورة ڤ v
الكاف المهموسة گـ g
الدال الشفطة دᵀ أو ٻ ɗ
التاء الشفطية تᵀ ƭ
النون الحنكية الأمامية ني ñ, ɱ
النون الطبقية ڠ
الراء الشفطية ڔ
الجيم المهموسة چ
الشين المجهورة

أما النوع الرابع وهو الأصوات المركبة فهو شائع في اللغات الأفريقية ولا يوجد في اللغة العربية لأن أصوات اللغة العربية كلها بسيطة ويمكن أن نحصر معظم هذه الأصوات في الآتي:

١ ـ الأصوات الهوائية aspirated، مثل bh
٢ ـ الأصوات المهموزة glatlalized، مثل k̂ d̂

٣ ـ الأصوات الأنفية prenasalized، مثل mb

٤ ـ الأصوات الجانبية Laterally released، مثل tl

٥ ـ الأصوات الشفوية lab — ialized، مثل kw kp

٦ ـ الأصوات الحنكية palatalized، مثل ty، ky

لأسباب عملية يمكن الرمز لمثل هذه الأصوات برمز الصوتين اللذين يتركب منهما فتكتبها مب ند كو... الخ. كأ دأ على نحو ما تم في الكتابات بالحروف اللاتينية. وقد استخدمنا ذلك في كتابة لغات جنوب السودان بالحروف العربية.

اما الحركات فالمعروف أن العربية لها ثلاث حركات هي الفتحة والكسرة والضمة. إلا أن معظم اللغات بما في ذلك اللغات الأفريقية يشتمل نظامها على خمس حركات هي الحركات العربية الثلاث مضافا إليها الكسرة المالة والضمة المالة، وبعض اللغات تزيد حركاتها على خمسة حركات. وهي مشكلة ليست مستعصية الحل على كل حال.

فقد جرت عدة محاولات لاضافة رموز لحركات جديدة تنسجم مع حركات اللغة العربية. لكتابة اللغات الأفريقية بعضها قديم ومتبع في كتابة لغة الهوسا (الفلاني) والآخر حديث كتبت به لغات جنوب السودان والمحاولات الأخيرة تشمل عددا كبيرا من الحركات الموجودة في اللغات الأفريقية.

منها محاولة د. عساكر وهي الرمز للكسرة المالة هكذا ٮ͞ والرمز للضمة المالة ـــه هكذا ⊆.

وعليه يكون جدول الحركات القصيرة كالآتي:

i — u

e — u

a

الأولى: أن تكتب الحركة على الف مثلا كلمة (aliouona) بمعنى (الذي رآه)، يمكن أن تكتب هكذا: آلأ اُ أنَ.

الثانية: أن تكتب الحركات على همزة ونبرة هكذا ألِـئـُـئُـئَن.

إلى جانب ذلك هنالك مشكلة اختلاف الرمز للصوت الواحد من لغة افريقية إلى لغة أخرى. فتجد لغة تستخدم الرمز ݝ وأخرى تستخدم الرمز ݝ وكلاهما يعبر عن صوت واحد. وأمثلة ذلك كثيرة في اللغات الأفريقية واللغات الآسيوية ايضا. فاللغة الأردية مثلا تعبر عن الدال الشفطية بالرمز ڈ بينما تعبر اللغة السندية عن نفس الصوت بالرمز ڊ وهكذا.

مقترحـــات

إن تطوير كتابة اللغات الأفريقية بالحرف العربي يحتاج إلى الآتي:

أولا: إجراء دراسة وافية ومقارنة للرموز العربية التي تكتب بها لغات الأمم الاسلامية.

ثانيا: نشر تلك الدراسات على مجموعة من العلماء المختصين في اللغات الأفريقية لدراستها من جانبهم تمهيدا لاجتماع للخبراء في هذا المجال.

ثالثا: عقد اجتماع للخبراء الأفارقة بحيث يمثل كل لغة خبير أو أكثر للتفاكر حول أفضل السبل لتطوير رموز كتابة اللغات الأفريقية بالحرف العربي وتوحيد الرموز التي تكتب بها تلك اللغات.

رابعا: اتخاذ التدابير اللازمة لصنع مفاتيح للآلة الكاتبة للحروف الخاصة بهذه اللغات حتى تتوفر الآلات الكاتبة لكل لغة من هذه اللغات. وهو أمر ميسور.

خامسا: اتخاذ التدابير اللازمة لعمل حروف طباعة للحروف المقترحة علما بأن معظم هذه الحروف موجود بالفعل في الآلات الكاتبة وأحرف الطباعة باللغتين الأردية والفارسية.

سادسا: نلحظ من المخطوطات المرفقة أن هذه اللغات تكتب بخط بدائي يفتقد الناحية الجمالية. وعليه ينبغي وضع خطة لتحسين خطوط هذه اللغات.

سابعا: بعد الاتفاق على الرموز اللازمة **وتوحيدها** تقوم المنظمة بتدريب قيادات أفريقية تعمل على نشر الكتابة بالرموز العربية الموحدة وتعمل على تحسين الخط من الناحية الجمالية.

بذلك نكون قدمنا إسهاما تاريخيا للحرف العربي من ناحيتيه الوظيفية والجمالية.

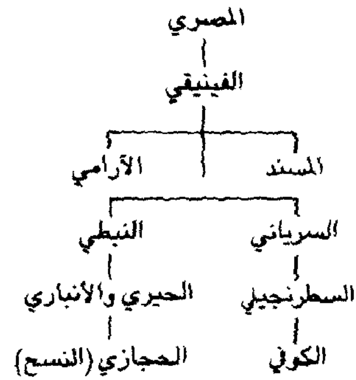
والله الموفق.

الهوامش والمراجع

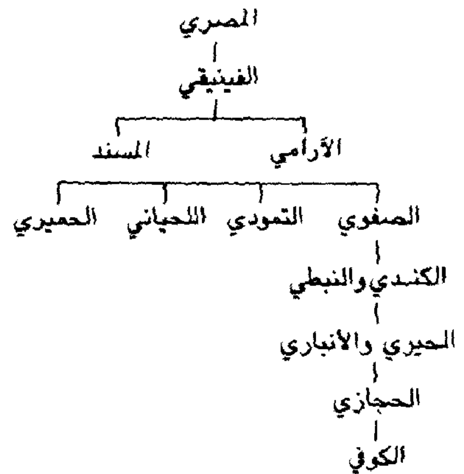
(١) عبدالعزيز الدالي: الخطاطة: الكتابة العربية. مكتبة الخانجي، القاهرة (١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م)، ص ٢٥.

(٢) فيما يلي سلسلة الخط العربي عند العرب والفرنجة كما أوردها الشيخ احمد الاسكندري والشيخ مصطفى عناني في «الوسيط في الأدب العربي» ط. دار المعارف، القاهرة (١٩١٦)، ص ٣٥.

سلسلة الخط العربي على راي الفرنجة



سلسلة الخط العربي على راي العرب



(٣) Khalid Semmaan, Linguistics in the Middle Ages, Leiden, pp. 6, 7.

(٤) نفس المصدر، ص ١٤.

(٥) خليل محمود عساكر، **الكتابة العربية بين نموها الراسي ونمو افقي مقترح** (البحث قدم لمؤتمر الكتاب المدرسي الذي عقد بمركز تنسيق التعريب بالرباط، فبراير ١٩٨٠)، ص ٥.

(٦) سورة الجمعة: آية ٢.

(٧) **صبح الأعشى**، ج ٣، ص ١٥١ (نقلاً عن لبيب السعيد): المصحف المرتل، ص ٧٤.

(٨) انظر الخطاطة للدكتور عبدالعزيز الدالي، ص ٤١ و ٥٧.

(٩) انظر عبدالدائم عنبر: **الصومال واللغة العربية** (بحث أعد لمعهد الخرطوم الدولي للغة العربية عام ١٩٧٥/٧٤)، ص ١٣.

(١٠) اورد الأستاذ نورث محرر (كتاب الالف لسان) اللغة النوبية من بين اللغات التي سبق أن كتبت بالحرف العربي وقدم بعض النصوص من الانجيل المكتوب بهذه اللغة بالحرف العربي وقد اورد هذا الكتاب ٤٦ لغة غير العربية مكتوبة بالحرف العربي وقدم نماذج لكل لغة مما ترجمه إليها المبشرون من آيات الانجيل (انظر مراجع أخرى أدناه).

(١١) Karim Turay, *Arabic Sub — Saharan Africa. Hausa, Fulani and Swahili as Major Contact Languages in Africa (A paper* prepared to the International African Institute, London, 1975.

(١٢) نفس المصدر.

(١٣) من محاضرات القاها الأستاذ ياري كيهوري على طلبة الفرقة الأولى بمعهد الخرطوم الدولي للغة العربية في يناير ١٩٨١.

مراجع أخرى

(1) J. Berry, «The Making of Alphabet» in Readings in the Sociology *of Languages* ed. Joshua A. Fisherman, The Hagues, Mouton, 1968.
(2) Le Clezo, Yves, «Writing Shilluk with an Arabic Script» in *Directions in Sudanese Linguistics and Folklore* ed.
Sayyid H. Hureiz and Herman Bell, University of Khartoum Press 1975.
(3) Eric N. North (editor), The Book of a Thousand Tongues, New York and London, 1938.
(4) Salih al — Tuma, «The Arabic Writing Systems and Proposals *for Reform» in the Middle East Journal,* Vol. 15, 1961.
(5) Sebeok, T, A, (ed) Current Trends in Linguistics Vol. 7, (Linguistics in Sub — Saharan Africa), Mouton, 1971.
(6) W.A. Smalley, Writing Systems and their Characteristics» in Orthography Studies ed, W.A. Smalley, London 1964.
—— «The Use of Non — Roman Scripts for New Languages in Smalley; op. cit.
(7) Yousuf el — Khalifa Abu — Baker, The Medium of Instruction and Linguafranca in The Southern Sudan» in Education in Sudan (Proceedings of the Annual Conference of the Philosophical Society of the Sudan) ed. Yousuf Badri, 1968.
(8) United Nations Year Book (1966/67).
(٩) يوسف الخليفة أبو بكر، كتابة اللغات الجنوبية بالحروف العربية، مقال نشر بمجلة الدراسات السودانية، العدد الاول ١٩٦٨، جامعة الخرطوم ١٩٦٨.

التنظيمات الشعبية في بلاد الشام في خمسة قرون

الأحداث، الزعر

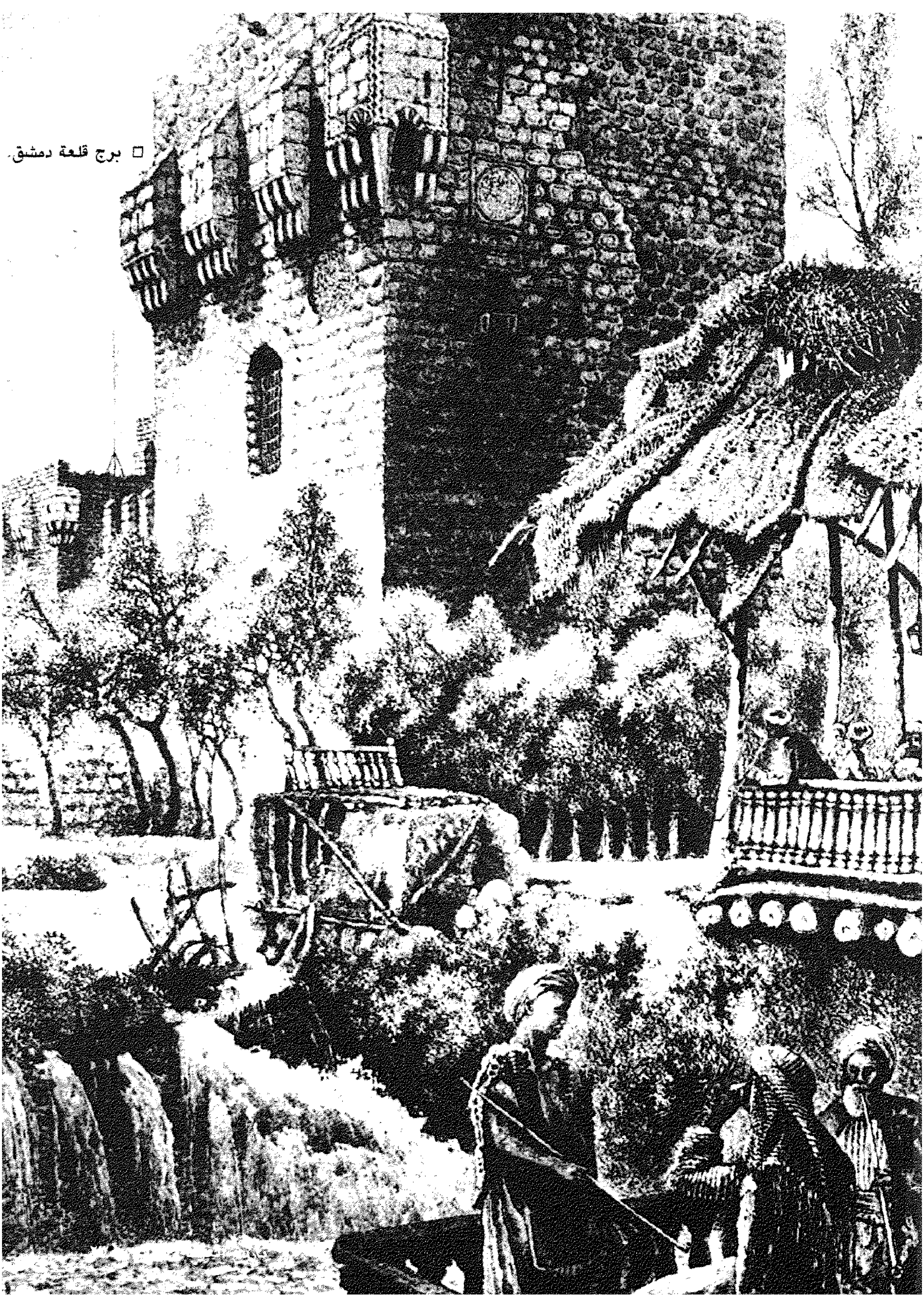
د. سهيل زكار

الفوارق شديدة بين باحث التاريخ في أيامنا هذه، ومؤرخ العصور الماضية، فلقد نظر المؤرخ السابق إلى التاريخ على أنه أخبار الملوك والحكام والقادة، في حين أن الباحث المعاصر، يرى التاريخ تاريخ الشعوب، وأن الجماهير هي البطل الحقيقي للتاريخ، ولهذا انصرفت الدراسات الحديثة نحو الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وغيرها من الجوانب التي ارتبطت بحياة الجماهير.

ومثل هذه الأبحاث صعبة جداً، فهي فن من الفنون التاريخية قائم بذاته، ثم إن المواد التي نجدها في مصادرنا جلها سياسي، وفي الماضي كانت النصيحة توجه إلى الباحث في التاريخ العربي بضرورة اللجوء إلى المصادر غير السياسية لجمع المواد الاقتصادية والاجتماعية، والمقصود بذلك كتب الجغرافية والرحلات والقصص والنقود وبعض المقطوعات الأدبية من شعر ونثر، ومع التمسك بهذه النصيحة نزيد واحدة تقضي بضرورة العودة إلى الكتب السياسية، إنما بعد أن نتعلم طرق توجيه الخبر السياسي اقتصادياً واستغلاله اجتماعياً.

إن لهذا قواعد خاصة أردت الاشارة إليها هنا، دونما توسع، ذلك أنني بصدد إخراج كتاب عن مدن الشام في العصر المملوكي ــ اقتصادياً واجتماعياً، يراعى فيه هذا المنهاج، وسأوقف بحثي هنا على بعض التنظيمات الاجتماعية التي شهدتها بلاد الشام في الماضي البعيد والأقرب، واخترت نموذجين يجمع بينهما الطبيعة الشعبية ويفرق الزمن، وهما: الأحداث، والزعر.

□ د. سهيل زكار: استاذ التاريخ الاسلامي في جامعة دمشق ــ كلية الآداب



□ برج قلعة دمشق.



لقد عرف مجتمع مدن بلاد الشام في القرن الخامس هـ / الحادي عشر م وقبله بعض التنظيمات الشعبية البلدية، ويمكن تقسيم هذه التنظيمات من حيث الأطر العامة إلى قسمين رئيسيين: واحد صغير مثّل القشرة العليا من المجتمع من تجار وأثرياء وأشراف، وبعض من شغلوا الوظائف الدينية من قاضٍ ومحتسب، وقسم كبير مثّل الجزء الأكبر من الناس، وعرف باسم الأحداث، ولقد قام التعاون والتآلف أحياناً بين هذين القسمين، ولكن نظراً لطبيعة القسم الأول الخاصة، وبالتالي بسبب مصالحه الذاتية المتميزة، فإن دوره كان في الغالب سلبياً، اتسم بالمداهنة للحكام، والاعتدال في المنهج.

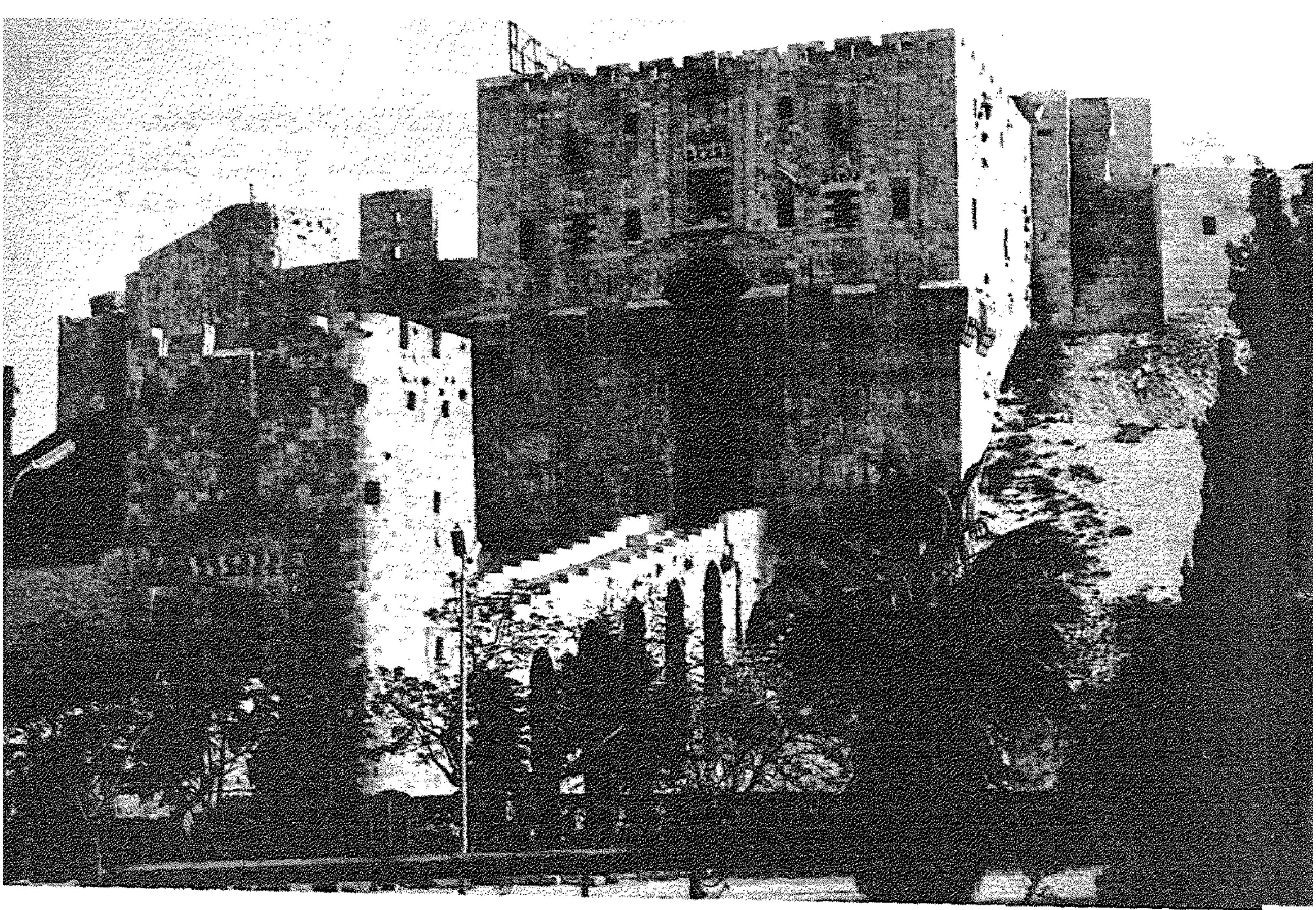
وفي التاريخ الاسلامي لئن كان من السهل تصور قيام اتحاد بين أغنياء وتجار وأشراف مدينة ما، وبالتالي تكوين طبقة خاصة، وتنظيم جامع، فإنه لمن الصعب، إن لم يكن من المستحيل التعرف إلى بداية نشوء منظمة شعبية، ثم كيفية تطور هذا التنظيم وتكامله؛ والسبب الرئيسي لهذا هو أن المؤرخ المسلم كان غالباً من الطبقة العليا، ونادراً ما أولى المحكومين اهتمامه، ولهذا فقد تحدث فقط عن الأمراء والملوك ذوي المؤسسات الظاهرة التي كانت تميز الدول.

وينطبق هذا على أصل منظمة الأحداث في بلاد الشام، حيث أنه من الصعب تحديد تاريخ لقيامها، ثم أسباب هذا القيام، وبعد ذلك المراحل التي اجتازها التنظيم حتى تكامل وأخذ شكله. ويقترح المستشرق الفرنسي كلود كاهن بأن من الممكن أن تكون منظمة أحداث الشام ذات صلة، أو بالحري هي امتداد للمنظمات التي عرفتها الامبراطورية البيزنطية التي كانت تحكم الشام قبل الفتح الاسلامي.

ليس هناك شواهد مادية تؤيد هذا الاقتراح، وعندي أن منظمة الأحداث قد ولدت في بلاد الشام المسلمة، ونمت في إطار هذه البلاد، ونبعت من مشاكلها الخاصة السياسية والاجتماعية والاقتصادية. ولم يكن لمنظمة الأحداث أية علاقة بمنظمات الامبراطورية البيزنطية ــ الزرق والخضر ــ. فلقد نشط الأحداث أكثر ما نشطوا في حلب ودمشق، وكانت هاتان المدينتان، وخاصة حلب مدناً من الدرجة الثانية زمن البيزنطيين، لأن القدس وأنطاكية كانتا تحتلان مركز الصدارة، ولقد قلل الفتح الاسلامي من مكانة القدس وأنطاكية وزاد من أهمية حلب ودمشق، ثم إنه ليس من الضرورة أبداً أنه عندما تتحكم امبراطورية أجنبية بأمة من الأمم أن تنجح في فرض عاداتها وأحزابها ومنظماتها على الأمة المحكومة. يضاف إلى هذا أن بلاد الشام كانت دائماً المؤثرة في بيزنطة من كافة النواحي، وخاصة النواحي الاجتماعية والدينية منها، ثم إن بلاد الشام كانت مشغولة قبل الفتح العربي بالمشاكل الدينية وذلك كوسيلة للتعبير عن تميزها عن بيزنطة، علماً بأنه لم يرد في أي من المصادر إشارة إلى وجود منظمات محلية سياسية اجتماعية أثناء الفتح الاسلامي وزمن الحكم الأموي.

بعد سقوط الخلافة الأموية كان ظل الحكم العباسي في الشام دائماً ضعيفاً، ولما ازداد ضعف الحكم العباسي تعرض الكثير من مدن الشام لعديد من المخاطر، ومن المحتمل أنه عندما وجد أهالي هذه المدن أن العباسيين ليس بإمكانهم درء هذه المخاطر، قام بعضهم بإنشاء بعض التنظيمات الدفاعية، وإليك مثال موضح لهذا: في سنة ٢٨٩هـ/ ٩٠١ ــ ٩٠٢م أخفق جيش عباسي عداده عشرة الاف مقاتل في صد حملة قرمطية ضد حلب، وقام القرامطة بحصار المدينة، ولما رأى الحلبيون اخفاق الجيش العباسي، ووقوعهم تحت الحصار، كونوا قوة محلية لم تتول الدفاع عن المدينة فقط، إنما قامت بهجوم مفاجىء على القرامطة نتج عنه هزيمتهم، وفك الحصار عن حلب.

ومعروف أنه بعد قيام الدولة العباسية، اتخذت هذه الدولة العراق مركزاً لها، ثم انشغلت بمشاكل خراسان والمشرق، فاضطرت لهذا إلى الاعتماد على النظام الدفاعي في علاقاتها العسكرية مع الامبراطورية البيزنطية، فأقامت عدداً من الحصون والقلاع التي وضعت فيها الحاميات العسكرية للتصدي لأي هجوم بيزنطي، وبات اسم خط الحدود الأول مع بيزنطة يعرف باسم العواصم، ولقد تطور في هذه العواصم نظام دفاعي خاص، كانت له أسسه العسكرية التي



□ واجهة قلعة حلب.

تعتمد على سكان كل ثغر من الثغور، ولحسن الحظ أنه وصلنا جزء كبير من كتاب اسمه سير الثغور كتبه أبو عمرو عثمان الطرسوسي المتوفى حوالي سنة / ٤٠٠هـ ـ ١٠٠٩م / وذلك ضمن المجلد الأول من كتاب بغية الطلب لابن العديم (الذي قمت بتحقيق الجزء الأكبر منه).

لقد قدم أبو عمرو في كتابه سير الثغور وصفاً رائعاً مفصلاً للحياة العسكرية في الثغور، وكان أروع وصف ذاك الذي تناول به هذه الحياة في مدينة طرسوس، كبرى مدن الثغور، وأبعدها شهرة. لقد كان غلمان طرسوس يدفعون قبل بلوغهم الحلم إلى بعض الشيوخ الأساتذة الثقات من أهل المدينة، فيقوم هؤلاء بتصنيف الغلمان إلى فئات ثم يأخذون في تدريبهم على الشؤون العسكرية، ويستمر ذلك حتى يبلغ هؤلاء الغلمان سن الرجولة حيث يلتحق آنذاك كل فتى منهم بسرية من سرايا الجهاد والدفاع عن الثغر.

إنه لمن المتصور والحالة السياسية كما وصفت من حيث الاضطراب، وتجارب العواصم العسكرية كما بينت، أن قام أهالي كل مدينة وبلدة في الشام بتشكيل منظمات عسكرية شعبية لأغراض الدفاع، ثم إن الاضطراب السياسي مع التبدل السريع في الدول الذي شهدته المنطقة لا بد وقد جعل بعض العسكريين الذين فقدوا مناصبهم مع قيام كل دولة جديدة يلتحقون بمثل هذه المنظمات، وهكذا أعاروها خبراتهم وساعدوا على تطويرها وزيادة صبغتها العسكرية إلى أن غدت نوعاً من «الميليشيا الشعبية»، ثم إن ضعف جميع الحكومات التي قامت في الشام منذ ما قبل القرن العاشر م لا بد وأنه جعل الحكام لا يتغاضون فقط عن نشاط هذه «الميليشيا» بل يستخدمونها من أجل مآربهم وأغراض حكمهم الخاصة، وهذا لا بد قد أثر في تطور منظمة الأحداث، وساعد على توطدها، وإن في بعض الأمثلة التي سأقدمها عن نشاط الأحداث ما يكفي للتدليل على صحة جميع ما افترضته.

إن الفترة الممتدة ما بين النصف الثاني للقرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي وأواخر القرن الخامس هـ / الحادي عشر م، قد شهدت ذروة

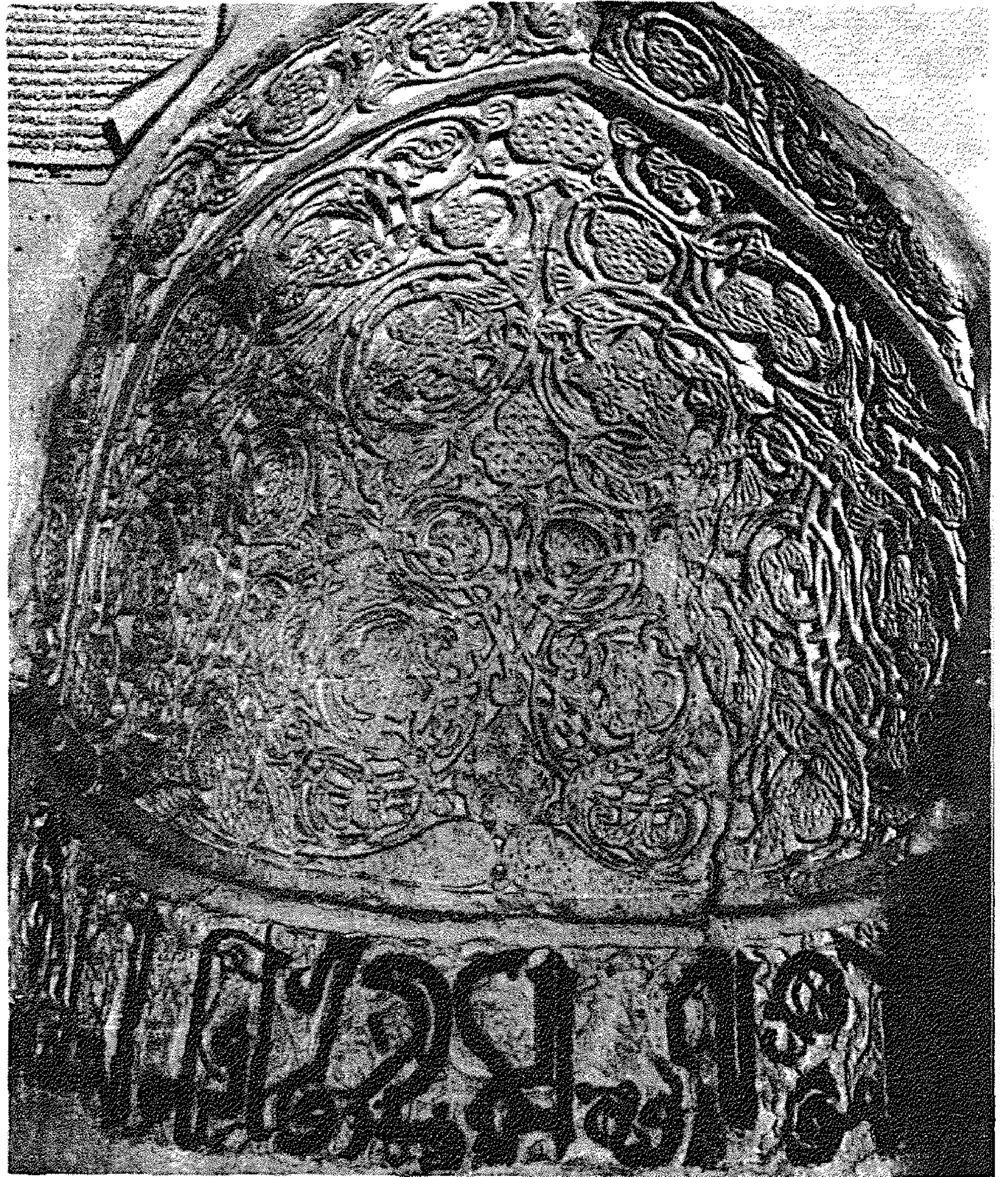
نشاط الأحداث، وتجلى هذا بصورة واضحة بشكل رئيسي في مدينتي دمشق وحلب، وخلال هذه الفترة خضعت أجزاء كبيرة من الشام للحكم الفاطمي. ولما كان الفاطميون قد قام مذهبهم على اطاعة الامام بشكل مطلق، فإنهم لم يسمحوا بوجود أي هيئة أو تنظيم إلى جانبهم، ولهذا اصطدموا عندما حاولوا فتح جنوب الشام بالأحداث، ولم يتمكنوا من دمشق إلا بعد القضاء بشكل مبرم على غالبية أفراد منظمة الأحداث، ورغم ذلك فقد بقي للأحداث قوتهم في شمالي بلاد الشام، وخاصة في حلب. وعندما قدم السلاجقة إلى الشام وألحقوه بسلطنتهم التي اتخذت من الأوتوقراطية العسكرية قاعدة لحكمها، قاموا بتصفية الأحداث، لذا عندما جاء الصليبيون إلى الشام وجدوه خالياً من جميع القوى والمنظمات الشعبية المحلية، فاستطاعوا فتح أجزاء كثيرة منه ومن مدنه دون كبير عناء.

بعد أن استولى الفاطميون على مصر، زحف في سنة ٣٥٩هـ / ٩٦٩م جيش فاطمي على رأسه القائد البربري جعفر بن فلاح، نحو بلاد الشام كي يعمل على ضمها إلى الحكم الفاطمي، ولقد لقي هذا الجيش أثناء زحفه في فلسطين مقاومة من بقايا الجيوش الأخشيدية، لكنه تغلب عليها، وتابع سيره نحو دمشق، وقبيل وصوله إليها فر حاكمها الأخشيدي منها، فخلت المدينة «من السلطان، فطمع الطامع، وكثر الزعار وحمال السلاح»، ونظم الدمشقيون أمور الدفاع عن مدينتهم بأن أغلقوا أبوابها، وأوقفوا الرماة على شرفات الأسوار، وأقاموا الحواجز داخل المدينة، وكسروا قني الماء، وحفروا الخنادق، ولقد اشترك الرجال والنساء والصبية في الاعداد للدفاع عن دمشق، وكاد أهالي دمشق أن يتمكنوا من صد قوات الفاطميين عندما هاجمت مدينتهم، لولا أن جماعة من التجار والأشراف قامت فشكلت وفداً قام بالتوسط لدى جعفر بن فلاح، وأخذ يبث التخاذل بين المدافعين مما سبب إيقاف المقاومة، وفتح أبواب دمشق لجيش ابن فلاح.

لقد كان القائم بأمر الدفاع عن دمشق رجلاً من عامة أهلها اسمه أبو اسحق محمد بن عصودا، وبعدما دخل جعفر بن فلاح دمشق هرب محمد بن عصودا إلى الأحساء، فاجتمع بزعيم القرامطة الحسن الأعصم، فحرضه على مساعدة دمشق، فلقي الاستجابة منه، وجاء جيش قرمطي إلى الشام، وتوجه نحو دمشق، فالتقى بجيش ابن فلاح فهزمه، ولقي ابن فلاح مصرعه أثناء المعركة، وهكذا تخلصت دمشق من الحكم الفاطمي، وعين القرامطة على المدينة من يحكمها، وتابعوا سيرهم نحو مصر كي يخلصوها بدورها من الحكم الفاطمي، ولكنهم أخفقوا وهزموا، وجردت الجيوش الفاطمية مجدداً في اثرهم لملاحقتهم ولاعادة جنوب الشام إلى حظيرة الخلافة الفاطمية.

وحدث هذا كله سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م، وكان الخليفة المعز لدين الله الفاطمي يحكم في القاهرة، لذا قام بتعيين ظالم بن مرهوب (أو موهوب) العقيلي حاكماً على دمشق، وحاول ظالم العربي الأصل أخذ دمشق بالحديد والنار، فأوقع الحرائق بعدة أماكن من المدينة، لكن ذلك لم يفت من عضد الدمشقيين بزعامة الأحداث، وأخيراً تم الوصول إلى تسوية غادر بموجبها ظالم بن مرهوب المنطقة، وسمح الأحداث لحاكم فاطمي آخر من أصل بربري اسمه جيش بن الصمصامة بدخول مدينتهم، وكان هذا حلاً مؤقتاً وغير ناجع، إذ ما لبثت أن عادت الاضطرابات إلى دمشق، وهنا تدخل المعز لدين الله بالأمر، فأوعز إلى واليه على طرابلس بالقدوم إلى دمشق لحل مشاكلها، فقام هذا بصرف القوات الفاطمية وأجلاها عن دمشق، وهكذا تم الوصول إلى تفاهم مؤقت مع أحداث دمشق، الذين أحكموا قبضتهم على المدينة وأمورها، ولقد كان زعيم الأحداث في هذه الآونة رجلاً عامياً عرف باسم ابن الماورد، وكانت منطقة باب الصغير هي نقطة تمركز الأحداث، أو مكان تكتنهم.

وحدثت في هذه الآونة مشاكل سياسية كبيرة في بغداد أدت إلى خلع الخليفة العباسي المطيع لله (٣٣٤ ــ ٣٦٣هـ/٩٤٦ ــ ٩٧٤) واستخلاف ولده الطائع، وقد نجم عن هذا فيما نجم قيام بعض العسكريين الأتراك بهجر بغداد، وكان من بين هؤلاء ألبتكين الحاجب، الذي ترك العراق، وجاء نحو دمشق، وعندما وصلها عسكر مع غلمانه خارجها، فخرج إليه شيوخ المدينة



□ طاسة محراب جامع فلوس في دمشق. (العهد الفاطمي)

وأشرافها فرحبوا به، وسألوه «الاقامة عندهم، والنظر في أحوالهم، وكف الأحداث الذين بينهم، ودفع الأذية المتوجهة عليهم منهم» وقبل ألبتكين العرض، ودخل دمشق فرتب أمورها، إنما بالاتفاق مع الأحداث، الذين كانت علاقته بهم جيدة، ولم تتأثر أوضاعهم بدخوله دمشق، ولم يضعف نفوذهم بها، لأنه اهتم بالمشاكل الخارجية، وترك أمور المدينة الداخلية لزعماء الأحداث ومقدميهم، وكان أكبر هؤلاء رجلاً عرف باسم قسام التراب، وقسام هذا كان أصله من «تلفيتا» إحدى قرى دمشق من قوم من العرب كان يقال لهم الحارثيون، وقد نشأ في دمشق، وكان يعمل في التراب ثم انضم إلى الأحداث، فتزايد أمره بينهم حتى غدا أول رجل فيهم.

وهكذا سارت أمور دمشق بشكل جيد، لكن الخلافة الفاطمية ما كانت لتسمح باستمرار الأوضاع هكذا، لما قد يسبب لها من مشاكل، لهذا جرد الخليفة العزيز قواته بامرة جوهر الصقلبي فاتح مصر، وأمره أن يسترد دمشق بأي ثمن، وأخفق جوهر، واستطاع ألبتكين صد الفاطميين وإلحاق الهزيمة بهم في أكثر من معركة، مما اضطر العزيز إلى الخروج بنفسه لحربه، واستطاع العزيز إيقاع الهزيمة بالبتكين وأخذه أسيراً، وعاد به إلى مصر في سنة ٣٦٨هـ/٩٧٨م، لكن ما حل بألبتكين لم يؤد إلى سقوط دمشق، بل حافظت المدينة على استقلالها، واستبد قسام وأحداثه بأمورها، فضبطوها ضبطاً جيداً، وكإجراء احتياطي قام قسام

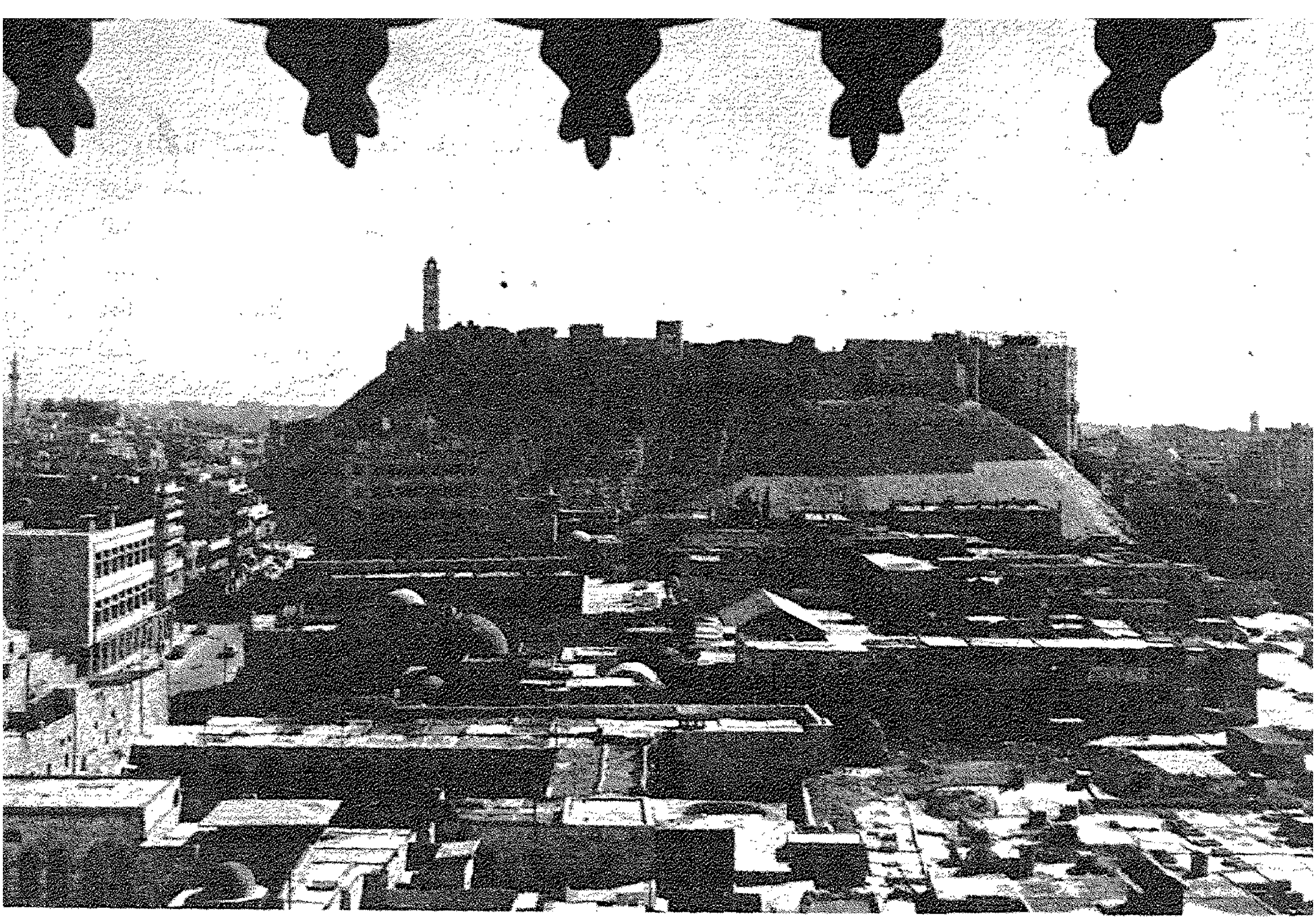
بمراسلة الخليفة العزيز، فاعترف اسمياً بسلطانه، ودافعه عن دمشق، وتظاهر العزيز بالرضا، لكنه قام في السنة التالية ٣٦٩هـ/ ٩٧٩م بإرسال جيش قوامه أربعة آلاف مقاتل من أجل استعادة دمشق، وقدم هذا الجيش نحو دمشق، لكنه أخفق في دخولها، واضطر إلى الانسحاب راضيا بتعهد من قسام وأحداثه الا يسلموا دمشق لحاكم يدين بالطاعة للعباسيين. ودام الحال على هذه الصورة حتى سنة ٣٧١هـ/ ٩٨١م حين جهز جيش فاطمي جديد لاعادة السيطرة على دمشق، وذلك بعدما اخفقت محاولات أخرى مختلفة مثل قطع المؤن والتجارة عنها، واثارة الأعراب ضدها، بعدما اخفقت جميعا في اسقاط حكم قسام.

ووصل الجيش الفاطمي إلى أسوار دمشق، وأخذ بحصارها، وطال الحصار واشتدت مقاومة قسام وأحداثه، وفي ذروة الصراع قام أشراف وأثرياء دمشق بالاتصال بقائد القوات الفاطمية، ثم أخذوا بتثبيط الناس عن قسام، وضغطوا عليه كي يوقف المقاومة ويسلم المدينة، وفي لحظة إعياء نفسي وجسدي شديد وخوف قبل قسام بتسليم دمشق للفاطميين على شرط الأمان له ولأصحابه. وهكذا فتحت دمشق أبوابها، ودخلت القوات الفاطمية، وأخذت بمقاليد الأمور بها، ولكن سلطتها لم تتعد الواقع النظري، فقد احتفظ الأحداث بسيطرتهم الفعلية، وبنفوذهم المؤثر، ودام الحال هكذا حتى سنة ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م زمن الخليفة الحاكم بأمرالله، حين ثار أحداث دمشق على واليهم الفاطمي، وطردوه من مدينتهم.

ويبدو أن مدن الشام الأخرى قد وجدت فيها في هذه الفترة تنظيمات مشابهة للأحداث لها قوتها: ففي مدينة صور تزعم الأحداث رجل اسمه العلاقة الملاح، وثار هذا الملاح أيضاً على الفاطميين وطردهم من صور، وأعلن استقلال صور، وضرب نقوده الخاصة به، وهنا كانت ردة فعل الدولة الفاطمية شديدة، حيث جهزت قواتها البرية من أجل القضاء على أحداث جنوب الشام، واستطاع الأسطول الفاطمي أخذ صور، وأوقع الهزيمة بالعلاقة، وأخذه أسيراً، حيث تم حمله إلى القاهرة، وهناك سلخ هذا الثائر حياً وصلب بظاهر القاهرة، ولا نعرف بالدقة موقف أحداث دمشق من ثورة العلاقة، كما انه ليس لدينا ما يشير إلى أن هناك صلات وتعاون وتنسيق بين أحداث مدن بلاد الشام.

ومهما يكن الحال، يبدو أن الضربة القاسية التي حلت بأحداث صور قد أثرت على معنويات أحداث دمشق، لذلك عندما وصل الجيش الفاطمي إلى دمشق لم يقاوموه، بل استقبلوه بالطاعة المشروطة، ورضي الجيش الفاطمي بذلك، أو على الأقل تظاهر بالرضا، ولم يدخل المدينة وعسكر خارجها، وأخذ يحضر لضربة قاصمة ضد دمشق وأحداثها، وأرسلت القاهرة والياً جديداً لتولي شؤون دمشق مع خطة غدر للقضاء على الأحداث، وكان اسم الوالي الجديد بشارة الأخشيدي، الذي وصل دمشق في سنة ٣٨٨هـ/ ٩٩٨م، لكنه لم يدخلها، بل أقام خارجها في إحدى قراها، وأخذ يقيم علاقة ود وصداقة مع مقدمي الأحداث الذين كانوا اثني عشر رجلاً، على رأسهم زعيم اسمه الدهيقين، وكان بشارة يدعوهم دائماً إلى ولائمه حتى اطمأنوا إليه، ووثقوا به، وفي شتاء هذا العام دعا بشارة مقدمي الأحداث مع حوالي مائتي رجل منهم إلى وليمة، وكان بنفس الوقت قد أعد قواته مع أوامر بالاستعداد للهجوم المباغت على دمشق، وعين لكل قائد من قادة جيشه حياً من أحياء المدينة كي يبطش به وبأهله، وعندما فرغ الأحداث من تناول الطعام ودخلوا الحمام من أجل غسل أيديهم، أغلقت عليهم الأبواب، وفتك بهم جميعا بطريقة ليس من الصعب تصورها، حيث تكرر وقوع ما يشابهها مراراً في تاريخ الاسلام، سواء حين ذُبح الأمويون من قبل العباسيين، أو أخيرا حين فتك محمد علي بالمماليك في قلعة القاهرة.

لقد كانت ضربة مروعة قضت على أحداث دمشق، وأخمدت جذوتهم، فلم نعد نسمع بوجودهم المؤثر فيها، ورزحت دمشق تحت الحكم الفاطمي حتى فتحها اتسز بن أوق الزعيم التركماني. وكانت الحامية الفاطمية في دمشق مؤلفة من جند من أصل بربري، وإن وجود حكم مكروه مع حامية شبه أجنبية، ثم خلو المدينة من التنظيمات المحلية كان من أسباب تعثر دمشق،



□ قلعة حلب.

وأخذها دوراً سلبياً في بداية تاريخ الحروب الصليبية.

وبعد هذا العرض الذي نالت فيه دمشق الحظ الأوفى، نجد لزاماً علينا التوجه نحو الشمال، ففي حلب قام الأحداث بأدوار فاعلة لا تقل عما حدث في دمشق، فالأحداث شغلوا الدور الحاسم في تصفية بقايا الدولة الحمدانية، واستيلاء صالح بن مرداس على مدينة حلب وتأسيسه لحكم الدولة المرداسية. ولدى استعراض تاريخ الدولة المرداسية يلاحظ كثرة الصراعات بين أمراء الأسرة المرداسية، وانه أثناء هذه الصراعات انتصر الطرف الذي وقف إلى جانبه الأحداث، وعندما اجتاح الغز بلاد الشام في النصف الثاني من القرن الحادي عشر، وقف الأحداث في وجههم وعادوهم، وتمكنوا في أكثر من مناسبة من طردهم من مدينة حلب، والأحداث هم الذين ساندوا مسلم بن قريش العقيلي في حروبه لتحرير الشام من التركمان. ففي معركة عفرين الحاسمة سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م، التقى جيش مسلم بن قريش العقيلي، وقوامه ستة آلاف مقاتل بجيش تركماني قاده سليمان بن قطلمش، وفي أثناء المعركة تخلى الأعراب من أتباع مسلم عنه، وتركوه يعاني مصيره، ولم يصمد مع مسلم سوى أحداث حلب، وكانوا ستمائة، وحاول مسلم الانسحاب إلى حلب، وجهد الأحداث في تغطية انسحابه، فسقط منهم أربعمائة من أصل ستمائة، وأخفق مسلم في الانسحاب وتلقى ضربة قاتله.

وسقط مسلم لكن مدينة حلب لم تسقط لجيش التركمان عندما قدم لأخذها، فقد حمل سليمان بن قطلمش جثة مسلم بن قريش، وأتى بها وطرحها أمام أسوار حلب، وكان يأمل بأن تسلم المدينة له، لكن الأحداث رفضوا، وكان زعيمهم اسمه الشريف الحُتَيْتي، وقام الحتيتي الذي لم يكن له سيطرة على قلعة حلب، ببناء قلعة لنفسه وأحداثه داخل مدينة حلب، ولا يزال موقع هذه القلعة معروفاً، فأحد أحياء حلب الواقعة إلى جنوب القلعة الكبيرة يعرف حتى الآن باسم «قلعة الشريف».

واتخذ الحتيتي من قلعته مقراً جديداً لحكم دولة حلب، وثكنة لأحداثه، وهكذا اديرت حلب إدارة شعبية، ووجد فيها نوع من أنواع الجمهوريات؛ وفي هذه الأثناء حاول سليمان بن قطلمش الاستيلاء على حلب فأخفق، وتلاه تُتش بن أرسلان صاحب دمشق فأخفق بدوره، وجاء السلطان ملكشاه على رأس جيش هائل إلى حلب سنة ١٠٨٦م، فتمكن من الاستيلاء على المدينة، وأسر الحُتيتي وحمله معه سجيناً.

لقد كانت حملة ملكشاه هذا ثاني حملة كبيرة يقودها أحد سلاطنة السلاجقة حتى حلب، فقد سارت هذه الحملة على نفس الطريق الذي سلكته حملة والده السلطان ألب أرسلان من قبل، وحققت حملة ملكشاه ما لم تحققه حملة والده، فقد أوصلت الامبراطورية السلجوقية إلى ذروتها في الاتساع، واستطاع ملكشاه أخذ الرُها وحلب وانطاكية، الأمر الذي أخفق أبوه في تحقيقه.

واصبحت حلب مثل دمشق وبقية أجزاء بلاد الشام تابعة للحكم السلجوقي المباشر، ولم يتساهل هذا الحكم مع الأحداث، بل عمل على تصفية قواهم.

لقد كان الأحداث يتقاضون أحياناً بعض المرتبات، وكانوا يقومون بوظائف الشرطة البلدية، يسهرون على الأمن، ويراقبون النظافة والنظام العام في المدينة. وبسبب نشاط الأحداث إحداث مؤسسة جديدة في كل من حلب ودمشق، اسمها «رئاسة المدينة» وفي البداية شغل مقدمو الأحداث هذا المنصب الهام، وفيما بعد كان هذا المنصب أخطر الأدوار في التأكيد على عروبة مدن الشام ونزعاتها الاستقلالية والعمل في سبيل تصفية وجود المؤسسات العسكرية الغريبة خاصة من التركمان.

ومهما يكن الأمر، فإن القضاء على الأحداث في بلاد الشام يمكننا من الاجابة على إحدى مشاكل تاريخ هذا البلد الاجتماعية والعمرانية، فلو نظرنا إلى مدن الشام، وخطط البناء الفوضوي بها، ثم تطور عمران هذه المدن، وقارنا تطور الحياة الاجتماعية في المدينة الشامية باحدى مدن أوروبة لشاهدنا فوارق ضخمة: وحين نبحث عن السبب نجد أن المدينة الأوروبية قد عرفت منذ زمن التنظيمات البلدية، ونجد أن هذه التنظيمات التي رافقت تطور المدينة في أوروبة وأشرفت عليه كانت معدومة حتى أواخر القرن الماضي في بلاد الشام.

إن القضاء على الأحداث، وازالتهم من مدن الشام قد حرم هذه المدن من هيئة اجتماعية، ربما لو كتب لها الحياة والاستمرار، كان وضع المجتمع والمدينة في الشام مخالفاً لما عليه الآن بشكل كبير.

إن الفراغ الذي أحدثه زوال الأحداث قد حاول شغله أكثر من تنظيم له الشكل العسكري الظاهري، مثل النبوية والفتيان، وأخيراً الزعر والحرافيش، ويبقى الزعر على رأس هذه التنظيمات، فقد كاد هذا التنظيم أن يرث النظام المملوكي ويأخذ مكانه.

الزعر

يستوجب موضوع زعر بلاد الشام بشكل عام، ودمشق بشكل خاص، عناية مركزة، فالأمر يتعلق بنوعية المقاومة الشعبية للنظام المملوكي، وبطبيعة المناورات السياسية لهذا الحكم العسكري، مع مسألة علاقات الطوائف الاجتماعية بعضها ببعض، وبروابطها بالدولة الحاكمة. ويظهر مصطلح الزعر لأول مرة في نهاية القرن الخامس عشر، ليدل على عصابات منظمة من الشباب، من أحياء المدن، وبلا شك إن هذه الظاهرة أقدم من ظهور هذا المصطلح، فالزعر كما هو مرجح هم نظائر القرن الخامس عشر لأحداث القرن الحادي عشر، وللزعر مكانة خاصة حيث كانت الجماعات الأكثر تنظيماً في مدن المماليك، وكانوا قوة فعالة ضد سيطرة المماليك، بسبب تنظيمهم العسكري، لذلك تكشف فعاليات العلاقات بين الزعر والمماليك، وبقية الشعب المدني مظاهر هامة لشخصية المقاومة الشعبية، والطرق التي تمكن المماليك من خلالها توجيه هذه المقاومة، تمشياً مع مصالح المماليك ونظام المجتمع الرسمي.

وكان الزعر عصابات منظمة، وواعية لذاتها من الشباب، وربما لم يكونوا متزوجين، حيث احتفظوا بزي مميز لشعرهم سمي باسم «قرعاني» وارتدوا ثياباً على أكتافهم كشكل من أشكال البزات الرسمية، وورد ذكرهم في المصادر



□ سور دمشق.

أحياناً باسم الأوغاد، وأهل الزعارة، والأشرار، وغوغاء الزعـران، وغوغـاء الحارات، وأوبـاش الزعران، وهذه جميعاً عبارات استهدفت النيل منهم، والحط من قدرهم، وعلى العموم كان الزعر عناصر مشاغبـة، معارضـة للسلطة المملوكية، ولا نعرف غير ذلك سوى النذر القليـل، وكان بعضهم أصحاب حوانيت، ونعـرف أن واحداً منهم كان نجاراً وآخر سمساراً، وثالث غزالاً او بائع خيوط، كما ان واحداً من زعمائهم كان يعرف بابن الطباخ.

وتمركز الزعر في الأحياء التي وقعت خارج أسوار المدن وفي القرى المجاورة، وفي دمشق كانت محلات: الشاغور، والميدان، والصالحية، وباب الجابية، وباب مصلّـى، والسويقة، أماكن نشاط للزعر والمعارضة للنظام المملوكي، ويلاحظ هنا أن هذه المناطق كانت تحوي كميات كبيرة من السكان بخلفيات ريفية لم تندمـج بعد بحيـاة المدينة، وتربط بعض المصادر الزعر بالعصبيات القبلية للعصر المملوكي مثل قيس، وعلى العموم كان الحي هو الحقل الخاص بالنشاط الاجتماعي وغيره للزعر.

وجرت قيادة زعر كل حي أو زقاق من قبل «الكبار» أو «المقدمين» ونعرف من أحد المصادر وجود أربعة «كبار للزعر» لحي الشاغور، وانتمى الكبار في كثير من الأحيان للعامة، إنما يلاحظ أن بعضهم حمل لقب شريف أو سيد، وحتى قاضي، مما يشير إلى أهمية الالهامات الدينية وسط هذه التنظيمات، لهذا لا غرابة حين نجد «ابن كسار» وهو من زعماء زعر دمشق يحمل لقب «خطيب وواعظ».

وعلى الرغم من وجود هذه الظاهرة فإن الزعر لم تكن علاقاتهم وطيدة بالعلماء ورجال الاقطاع الديني المتعاونين مع النظام المملوكي، فلقد مثّل الزعـر، من أحد الجـوانب، مصالح الاحيـاء، ودافعـوا عنها ضـد مخاطر الفسـاد، وغالبـاً ما هاجموا جامعي الضـرائب الجشعين، فقـد هاجموا وكلاء المماليك في عام ٩٠٢هـ/١٤٩٨ ـ ١٤٩٩، وقتلوا في الصالحية أكثر من ثلاثـين

شخصاً، وكان من بين القتلى رئيس الشرطة، واكثر من مئة رجل في المدينة نفسها. وفي الحقيقة كان الزعر العمود الفقري للمقاومة الشديدة ضد جبـي الضرائب العالية، وشغلوا دور القياديين في إغلاق وسد الشوارع، ومحاربة جند المماليك، وفي كثير من الأحيان تحولت أعمال الشعب في منطقة من المناطق إلى ثورة عارمة في المدينة بأسرها كما حدث عام ٩٠٧ هـ/١٥٠١ ــ ١٥٠٢م، وغالباً ما تعاون زعر الأحياء، وكونوا رابطة على مستوى مصالح المدينة بأسرها، ففي سنة ١٥٠٥م قام «أبو طاقية» زعيم زعر الشاغور بتوحيد زعر الأحياء المختلفة والقرى ضد المماليك، ومع ذلك وجدت مشاعر التنافس والحسد بين زعر الأحياء وكان ذلك ثغرة ولج منها النظام المملوكي والقوى المتعاونة معه، وحدث في بعض الأحيان أن جرى استئجار بعض عصابات الزعر للقيام بأعمال اغتيال وحرق وأعمال لصوصية لصالح النظام المملوكي ورجاله.

وعلى الرغم من هذا فإن نشاط الزعر المتلون سبب انعدام النظام، وفقدان المماليك لسلطانهم، إلى درجة دفعت ضباط المماليك إلى الاعتصام بالقلعة، حيث نقلوا سلعهم إليها لحمايتها.

ولايقاف هذا الاندفاع لقـوة الزعر، أدخـل المـماليك في حسبـانهم هذا المـظهر المـزدوج، وأدرجوا هذه العصابات في جيوشهم كقوة مشاة مساعدة، فقد احتاج المماليك لدعم عسكري من سكان سوريا، لأنهم اضطروا إلى إيجاد مقاومة مستمرة ضد الأعداء الأجانب والبدو، وبدأت فتـرة من التجنيـد الكثـيف، ففي سنـة ٨٩٣هـ/١٤٨٨م جرى استعراض زعر الشاغور في موكب رسمي، وكان تعدادهم يقارب ثلاثة آلاف رجل، ساروا جميعاً في الأزياء الرسمية وكانوا مجهزين ومسلحين بشكل كامل.

وسلح المماليك عصابات الزعـر وجهزوهـا، واكرموا زعمـاءها، وربمـا دفعوا النقـود ثمناً لولائهـا، وللاستفادة من رجـال العصـابـات، واعتبارها بمثابة احتياط عسكري شعبـي، وفي هذا المقام إذا لم يكن المماليك قد خلقوا تنظيم الزعر بالفعل، فإن سياساتهم قد أسهمت بشكل حاسم في دمج قـوى الزعر وتعـزيز صبغتهـا العسكرية،ومع الأيام ازدادت قوى الزعر وتنامت، حتى أن قوات الزعر باتت تظهر أثناء عمليات الاستعراض العسكرية أكثر عدة وعدداً من قوات المماليك النظامية كما وضح الحال بعد سنة ١٤٩٨م.

وتوفرت الفرصة بعد هذا التاريخ لأن يرث الزعر النظام المملوكي، ويحلوا محله، لكن لسوء الطالع عـرف رجال المـماليك كيف يتـلاعبون بزعمائهم، الذين شجعهم ضعف الدولة وقوتهم المتزايدة، لا على إحكام الأمـور والانتقال من الفوضى نحو تجربة السلطة، بل على المزيد من أعمال النهب والسلب، مما أوقع الصراع بين صفوفهم وافقدهم شعبيتهم.

وعليـه شكلت العلاقـات المتشابكـة للزعـر والمماليك وبقية السكان نموذجاً للأعمال، أصبح عنف الزعر فيه وبوساطتـه جزءاً من تـوازن دمشق السياسي في أواخر العصر المملوكي، وبرز الزعر أحياناً كأعنف عدو للدولة، فقد دافعوا بتنظيم رائع عن الأحياء ورفضوا دفع الضرائب والمكوس، وقتلوا الموظفين. وأفادت أعمال الزعر هذه في إضعاف السلطة المملوكية وتقوية أنفسهم، وجاءت الفرصـة للخطوة نحـو الثورة المغيـرة للأوضاع والنظام، لكـن الزعر لم يقوموا بها؟ فذلك لم يكن بالأمر الهين، فقد وجهت السلطات العاجزة عن قمع نشاطات الزعر، زعماء هذه العصابات نحو النهب والسلب، كما مـارست الضغوط عليهم بوساطة العلماء وبقيـة أفراد الطبقات العليا التي ارتبطت بالسلطة، وهكذا تحولت عصابات الزعر إلى الواقع الهامشي، بدلاً من احداث الثورة، تحولت من العنف السياسي إلى العنف الاجـرامي الصرف، وهكـذا كبح المماليك قواهم، لكن من يدري لو طال الزمن بالنظام المملوكي، وتعاظمت المشاكل هل كـان بامكان الزعر التحول مجدداً إلى العنف السياسي الذي يقـود إلى الثورة؟ هـذه رغبـات، وليس للرغبات مكان في التاريخ، فالذي حدث هو قيام السلطات العثمـانيـة بـوراثـة الحكم المملوكي ودخول بلاد الشام مع الوطن العربـي في مرحلة جديدة من تاريخها.

●

موطنها لبنان
أرزة طيران الشرق الأوسط الخطوط الجويّة اللبنانيّة
جذورها راسخة في الشرق الأوسط
وأغصانها ممتدّة في أرجاء الدّنيا



نيويورك
لندن
باريس
كوبنهاغن
فرانكفورت
بروكسل
جنيف
مدريد
زوريخ
تونس
نيس
مونروفيا
ميلانو
ابيدجان
روما
لاغوس
اثينا
كانو
اسطنبول
بيروت

القاهرة
لرنكا
انقرة
عمان
بغداد
جدة
الخرطوم
عدن
الكويت
الظهران
البحرين
الدوحة
دبي
أبو ظبي
رأس الخيمة
مسقط

العلاقات

(١٦٨٧ - ١٨٧٨)

د. عبد الرؤوف سنو



□ الامبراطور الروسي
نيقولا الأول.

منذ سقوط القسطنطينية بأيدي العثمانيين ظلت العوامل الدينية والاقتصادية تدفع روسيا للسيطرة على الممرات العثمانية وبالتالي على العاصمة العثمانية في سبيل تأمين تجارتها وتنفيذ ادعاءاتها في وراثة الامبراطورية البيزنطية. فتارة بالتوسع العسكري وأخرى بأسلوب التفاهم الدولي. أعلنت روسيا مراراً عن سياستها التقسيمية للدولة العثمانية. إلا أن خططها اصطدمت في كل مرة بمصالح دول أوروبية أخرى. فالنمسا كانت تنازعها الزعامة على البلقان، في حين عارضتها بريطانيا وفرنسا القضاء على الدولة العثمانية لأسباب استراتيجية واقتصادية. ونتج عن تضارب مصالح الدول الأوروبية في الامبراطورية العثمانية خلال القرن التاسع عشر تأزم متواصل في العلاقات الروسية العثمانية. وفي النصف الثاني من ذلك القرن اشتعلت الحرب مرتين بين الدولتين وتعرف الحرب الأولى من التاريخ تبعاً للمكان الذي دارت فيه «حرب القرم» (١٨٥٣ ــ ١٨٥٦) وانتهت بمؤتمر باريس. وتسمى الحرب الثانية بـ «الحرب البلقانية» (١٨٧٧ ــ ١٨٧٨) وانتهت بمؤتمر برلين. وكلا الحربين والمؤتمرين كانا بعيدي الأثر بنتائجهما في التاريخ الأوروبي والعثماني الحديث.

إن غرضنا من هذه الدراسة هو تتبع علاقات الدولتين في أربع حلقات: الأولى تشمل سياسة الاندفاع نحو القسطنطينية حتى معاهدة الممرات ١٨٤١ ــ الحلقة الثانية تلقي الأضواء على دور الدبلوماسية الروسية في مشاريع تقسيم الدولة العثمانية ــ أما الحلقة الثالثة فمخصصة لحرب القرم ومؤتمر باريس. وتنتهي الدراسة بالحلقة الرابعة التي تتعرض للحرب البلقانية ومؤتمر برلين.

□ د. عبد الرؤوف سنو: دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر ــ جامعة برلين الحرة. دبلوم في التعليم العالي والتنمية الدولية ــ جامعة كاسل.

الروسية - العثمانية

روسيا ومشاريع تقسيم الدولة العثمانية

الحلقة الثانية

أوروبا و «الرجل المريض»

قبل أن تسلك الامبراطورية العثمانية طريق التدهور والتجزئة، شغلت مسألة تقسيم ممتلكاتها الدوائر السياسية الغربية والرأي العام الأوروبي. فبعد افتتاح القسطنطينية وضعت خطط ومشاريع من قبل أباطرة وملوك، بابوات ورجال دين، سياسيين وكتاب، تهدف كلها إلى تجزئة ممتلكات الدولة العثمانية[1]. إلا أن قوة الامبراطورية وجبروتها حتى القرن السابع عشر، وكذلك الصراعات التي انخرطت فيها الدول الأوروبية ضد بعضها البعض وأخيراً تضارب مصالح بعض هذه الدول من عملية التقسيم، حالت دون أن ترى هذه الخطط الطريق إلى النور.

ولكن العظمة العثمانية لم تستمر طويلاً. فقد

□ خريطة تبيّن موقع الممرات المائية المطلة على البحر المتوسط.

اخذ الاعياء يدب في كيان الامبراطورية منذ نهاية القرن السابع عشر ويظهر بوضوح خلال القرنين التاليين مترجماً التدهور العثماني الداخلي وسياسات الدول الأوروبية المتعددة في تدمير الدولة العثمانية. ورغم اقتطاع أجزاء من ممتلكاتها، فإن تدمير الدولة العثمانية أو «الاجهاز» عليها بصفة نهائية لم يحدث خلال الفترة موضوع دراستنا. فكبت انفاس «رجل أوروبا المريض» — كما أطلق الغرب على الدولة العثمانية تشهيراً[٢] — الذي أعيته أوروبا بسياستها الاستعمارية والعنصرية والدينية، كان لا بد من أن يترتب عليه نتائج خطيرة تورط أوروبا في صراعات داخلية حول تركته. فالمسألة الشرقية وبقاء «الرجل المريض» مريضاً على قيد الحياة كانا يدخلان في صميم التوازن الأوروبي والتجانس الأوروبي[٣].

فبسبب تضارب مصالحهما الاستعمارية والاستراتيجية في أمريكا الشمالية والهند خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، لم تهتم بريطانيا و فرنسا في مسألة تقسيم الدولة العثمانية. فقد كان الأفضل لمصالحهما الاقتصادية والاستراتيجية، وإن كانت متضاربة، المحافظة على الامبراطورية وحصر روسيا داخل البحر الأسود وإغلاق المضائق بوجهها[٤]. ولكن نهاية القرن الثامن عشر، والقرن التالي حملا انقلاباً في السياسة الفرنسية والبريطانية فيما يتعلق بسلامة الامبراطورية العثمانية. فبغض النظر عن فشل سياستها في احتلال مصر (١٧٩٩ — ١٨٠١)، فقد استولت فرنسا على الجزائر (١٨٣٠) وفرضت حمايتها على تونس عام ١٨٨١. كما ساهمت في كثرة المشاريع التقسيمية للدولة العثمانية[٥]. وسارت بريطانيا على نهج فرنسا واستولت على المناطق الاستراتيجية في الدولة العثمانية المهمة لمواصلاتها مع الهند. فاحتلت عدن عام ١٨٣٩ وقبرص عام ١٨٧٨ ومصر عام ١٨٨٢ والسودان ١٨٩٩. وخلال العقد الأخير من القرن الماضي كانت الحكومة البريطانية تعرض على ألمانيا اقتسام ممتلكات الدولة العثمانية، لكن دون أن تحظى بموافقتها[٦]. وخلال الحرب العالمية الأولى وقعت بريطانيا مع روسيا ما يعرف بـ «اتفاقية الممرات»، التي نصت على استيلاء روسيا — حليفة بريطانيا في الحرب — على استانبول والممرات[٧].

أما النمسا فقد أنهت علاقاتها الحربية مع الدولة العثمانية مع نهاية القرن الثامن عشر بعدما تشبعت وحققت معظم أهدافها من جانب الدولة العثمانية ولم يتبق لها أطماع سوى بالبوسنة، والهرسك اللتين ضمتهما إليها عام ١٩٠٨[٨].

وبسبب مشاكلهما القومية، لحقت ألمانيا وإيطاليا متأخراً بالركب الاستعماري الأوروبي. فمصالحها الضخمة واستثماراتها الواسعة في الدولة العثمانية منذ الثمانينات من القرن الماضي جعلت ألمانيا تتبع سياسة المحافظة على سلامة الدولة العثمانية دون أن يمنعها ذلك من التفكير بالميراث الضخم الذي ينتظرها عند وفاة «صديقها» الرجل المريض[٩]. وكانت ألمانيا تتطلع للسيطرة على أسواق الشرق والاستيلاء على آسيا الصغرى لتكون منطقة امتصاص للفائض السكاني عندها. وعند اندلاع الحرب العالمية الأولى شاركت الدولة العثمانية فيها إلى جانب ألمانيا ضد الدول الحليفة. واستفادت ايطاليا من سياسة الأحلاف والتكتلات الأوروبية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر في تنفيذ سياستها الاستعمارية على حساب الدولة العثمانية في منطقة شمال أفريقيا. فاحتلت طرابلس الغرب عام ١٩١١، وسط عدم مبالاة ألمانية[١٠].

«المشروع الشرقي» (اليوناني)
١٧٣٥ — ١٧٨٩

كما رأينا سابقاً، لم تنه معاهدة ڤينارجة السياسة التوسعية الروسية على حساب الدولة العثمانية. فروسيا لم تكتف بما حصلت عليه من ممتلكات عثمانية وحق التدخل المزدوج لصالح الكنيسة الأرثوذكسية في استانبول وفي ولايتي الدانوب، بل ظل الاستيلاء على العاصمة العثمانية وممراتها الاستراتيجية شغلها الشاغل. وتبعاً لوصية بطرس الأكبر القاضية بالاستيلاء على البحر الأسود والممرات واستمالة النصارى الأرثوذكس من رعايا الامبراطورية العثمانية

سارت كل من الإمبراطورتين آنّة وكاترين الثانية.

وتعود المشاريع التقسيمية الروسية للدولة العثمانية إلى سنوات الحرب الروسية العثمانية (١٧٣٥ ـ ١٧٣٩) عندما عقدت روسيا تحالفاً مع النمسا لمشاركتها في الحرب ضد الدولة العثمانية وتقسيم ممتلكاتها بينهما. وكانت أطماع روسيا مركزة على السيطرة على البحر الأسود بضفتيه والقوقاز ومصب الدانوب الذي يشمل بسارابيا. وخلال معارك عام ١٧٣٨ طور الجنرال الروسي مونيش (Münnich) ما يسمى بـ «المشروع الشرقي»، ويقضي بزحف الجيوش الروسية إلى القسطنطينية بعد إثارة الشعوب المسيحية في البلقان وخاصة اليونانيين. ولكن هذه الخطة لم يكتب لها النجاح، إذ تمكن العثمانيون من إيقاف الزحف الروسي بعدما كبدوا النمساويين خسائر فادحة[١١] ومع ذلك فإن المشروع الشرقي، أي الاستيلاء على القسطنطينية، ظل يشغل مكاناً بارزاً في السياسة الخارجية الروسية تجاه الدولة العثمانية وفي أية محاولة للتفاهم الدولي لتقسيم الدولة العثمانية.

وبتوقيع اتفاقية تقسيم بولندا (٥ آب ١٧٧٢) جرى الحديث عن تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية. فقد عرضت على بلاطات بطرسبرغ وفيينا ستُ خطط لتقسيم الدولة العثمانية[١٢]. وكان أهم هذه الخطط مشروعان: يقضي الأول بأن تحصل روسيا على ملدافيا وولاشيا وبلغاريا وروميليا وتراقيا مع القسطنطينية والممرات، في حين تنال النمسا البوسنة والهرسك ومقدونيا حتى المورة. أما المشروع الثاني فقضى بتأسيس دولة تتبع روسيا وتضم مقدونيا والبانيا وروميليا والقسم الأكبر من الأرخبيل مع بلاد ما بين النهرين في آسيا الصغرى وتكون استانبول عاصمتها. أما روسيا فتتولى المنطقة الواقعة على الضفة اليسرى لنهر الدانوب ومناطق الأنهار في البحر الأسود باستثناء القرم، التي تبقى مستقلة تحت الحماية الروسية. ووعدت النمسا بولاشيا الصغرى وصربيا وبلغاريا والهرسك. وتقرر أن تشكل المورة دولة مستقلة يحكمها دوق نمساوي، أو تعطى للبندقية لقاء تنازلها للنمسا عن استريا وفريول وانضمامها للحلف المعادي للعثمانيين[١٣].

ويلاحظ هنا أن كلا المشروعين وضعا المصالح الروسية في استانبول بعين الاعتبار. ورغم مراعاة المشروعين للمصالح الروسية والنمساوية في البلقان ومناطق البحر الأسود وآسيا الصغرى، إلا أنه لم يتمخض عنهما أي اتفاق بين روسيا والنمسا وظلا مجرد أفكار أولية حول تقسيم الدولة العثمانية بين الدولتين.

وحركت ولادة قسطنطين، حفيد الامبراطورة كاترين الثانية، عام ١٧٧٩ المشاريع التقسيمية الروسية للدولة العثمانية، وخصوصاً لما يسمى بالمشروع الشرقي. فقد وضعت الامبراطورة خططا لتتويج حفيدها ملكاً يونانياً في الآستانة، وبذلك ترتبط هذه المملكة سلاليا بالأسرة الحاكمة في روسيا. وكانت استعادة القسطنطينية وإعادة نصب الصليب فوق آيا صوفيا حلما روسياً قديماً[١٤]. ويحدثنا الدبلوماسي البريطاني أيتون الذي كان يقيم في بطرسبرغ آنذاك ومقرباً من الدوائر السياسية الروسية، أن كاترين الثانية اتخذت كافة الترتيبات لاعداد حفيدها لهذا العمل الكبير. فقد تولت رعايته نساء يونانيات، كما لقن اللغة اليونانية منذ الطفولة وبعدها تعهده أساتذة يونانيون. وباختصار، كما يقول أيتون، «فإن مجمل تربيته (قسطنطين) كانت تلك التي تهيئه لتولي عرش القسطنطينية»[١٥].

وعلى ما يبدو فقد كانت الامبراطورة كاترين الثانية ميالة في بادىء الأمر للحصول على دعم بريطانيا في تنفيذ مشروعها. واستناداً لايتون فقد وضعت الامبراطورة والأمير بوتمكين (Potemkin) خططاً تقوم بموجبها روسيا بدعم بريطانيا في الحرب الأميركية لقاء تأييد بريطانيا لهجوم روسي ضد الدولة العثمانية وتنازلها لروسيا عن جزيرة مينورقة في المتوسط لتكون قاعدة للأسطول الروسي هناك ومركزاً لتحريض اليونانيين على الثورة ضد الباب العالي. وكان بوتمكين يستعد لعرض المشروع على السفير البريطاني في بطرسبرغ عندما تمكن الكونت بانين (Panin)، وزير الخارجية الروسي، المعارض للنفوذ البريطاني، من حمل الامبراطورة على رفض التعاون مع بريطانيا في المشروع الشرقي،

رغم كل محاولات بوتمكين لاثبات أن نجاح المشروع يتوقف على التحالف مع بريطانيا[١٦]. وهكذا أخذت كاترين الثانية تبحث عن دولة أوروبية أخرى لتتعاون معها في مشروعها.

وفي عام ١٧٨٠ زار الامبراطور جوزيف الثاني عاهل النمسا روسيا والتقى الامبراطورة كاترين الثانية في موليف (Mohliev)، التي عرضت عليه المشروع الشرقي، والذي أسمته «المشروع اليوناني»، ويقضي بتنصيب حفيدها ملكاً يونانياً في القسطنطينية[١٧]، ولكن مباحثات العاهلين لم تتعد مجرد التعرف على وجهات النظر حول الموضوع، إلا أن الاثنين اتفقا على الدخول في مفاوضات في العام التالي.

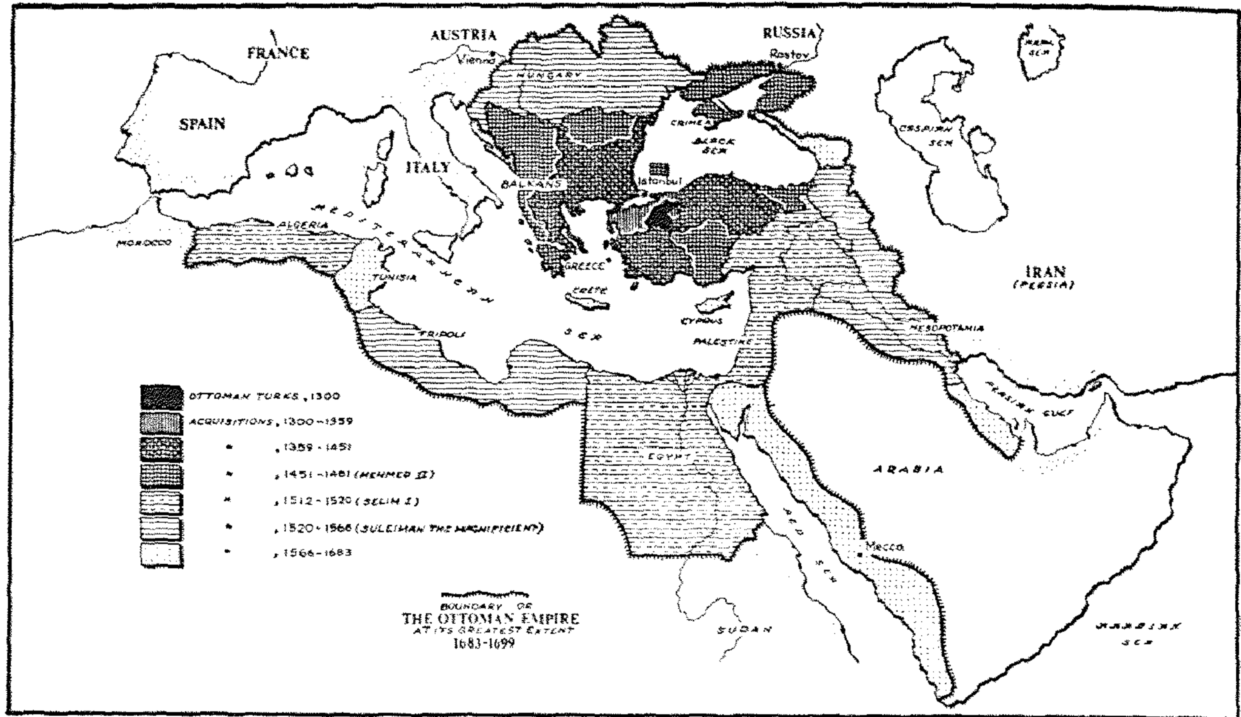
وبالفعل واصلت الدولتان مباحثاتهما في العام التالي بينما كانتا تستقبلان وفوداً بلقانية تسعى للحصول على دعمهما في الثورة ضد السلطان العثماني[١٨]. وكانت نقاط البحث تتركز على تحرير شعوب البلقان من الحكم العثماني — اعتراف كل دولة بمصالح الدولة الأخرى، بمعنى أن تتوسع النمسا في البلقان غرباً مقابل تعاونها مع روسيا في برنامجها ضد الدولة العثمانية[١٩]، وأخيراً مناهضة المسيحية للاسلام[٢٠]. وخلال المباحثات الدائرة كانت كاترين الثانية وجوزيف الثاني يتبادلان الرسائل حول موضوع تقسيم الدولة العثمانية. وقد استمر تبادل الرسائل بينهما حتى عام ١٧٨٣. ولعل أهم تلك الرسائل رسالة كاترين الثانية إلى الامبراطور جوزيف الثاني المؤرخة ١٠ أيلول ١٧٨٢ ورد جوزيف الثاني على هذه الرسالة في ١٣ تشرين الثاني نفس العام.

والواقع أن مشروع كاترين الثانية لتقسيم الدولة العثمانية كان ينص على إقامة دولتين مسيحيتين في البلقان. ففي رسالتها إلى جوزيف الثاني عرضت امبراطورة روسيا إقامة دولة مسيحية باسم داشيا وتضم بسارابيا وملدافيا وولاشيا تكون تحت النفوذ الروسي، على أن تحكم وراثياً ويتفق على حاكمها فيما بعد. وبخصوص المملكة اليونانية اقترحت كاترين الثانية تنصيب حفيدها قسطنطين ملكاً يونانياً في القسطنطينية، على أن تضم مملكته أيضا المناطق اليونانية السكان، بلغاريا، تراقيا ومقدونيا. أما روسيا فتستولي لنفسها على القرم وكوبان والمنطقة الممتدة بين البوغ والدنستر، التي نصت اتفاقية ١٧٧٩ بين روسيا والباب العالي على تبعيتها للدولة العثمانية. وبالاضافة إلى ذلك تستولي روسيا على جزيرتين في الأرخبيل لأجل مصالحها التجارية[٢١].

وفي رده على رسالتها وافق الامبراطور النمساوي على المقترحات الروسية وطلب بالمقابل أن تحصل بلاده على القسم الغربي من ولاشيا والجزء الأكبر من صربيا بما فيها بلغراد، وكذلك ممتلكات البندقية في استريا ودلماشيا، على أن تعوض البندقية بالمورة وكريت وقبرص[٢٢].

وما يتضح من الرسائل أن مشاريع تقسيم الدولة العثمانية لم يتناول ممتلكاتها في أوروبا فحسب، بل تعداه إلى ممتلكاتها في الشرق أيضاً، مما يحمل على الاستنتاج بأن الدولتين كانتا تزمعان حصر وجود الدولة العثمانية في الأناضول فقط. ومما يؤكد ذلك أنهما رأتا ضرورة الاتفاق مع فرنسا، صاحبة النفوذ في الشرق، وأن تحصل هذه الأخيرة على مصر وسوريا كتعويض عن هذه الصفقة الضخمة[٢٣]. وسرعان ما رحب المسيو دو سجور، السفير الفرنسي في بطرسبرغ بالمشروع، وزاد عليه ضرورة تحالف الأمم المسيحية لطرد «المسلمين البرابرة» في آسيا[٢٤]. لكن حكومة لويس السادس عشر كانت على النقيض لتصورات سفيرها في بطرسبرغ ترى ضرورة المحافظة على سلامة الدولة العثمانية. فبعد مراسلات نمساوية — فرنسية استمرت أكثر من نصف عام أعلنت الخارجية الفرنسية في ١٤ حزيران ١٧٨٣ أنها ضد تقسيم الدولة العثمانية[٢٥].

ورغم أنه يجب أن ينظر إلى تحركات روسيا في القرن عام ١٧٨٢ وضمه إليها في العام التالي على أنها كانت تهدف إلى تنفيذ المشروع التقسيمي للدولة العثمانية، إلا أن هذا المشروع لم ير النور. ولعل أسباب ذلك — كما يرى سول — هو أن خطة كاترين الثانية لم تكن هدفاً حقيقيا للسياسة الروسية الخارجية، ولا يمكن تطبيقها على الأرض، إذ أنها كانت ستدخل كثيراً من السلاف في البلقان، الذين تدعي روسيا حمايتهم وتسعى لتحريرهم من الحكم العثماني، تحت



□ النفوذ العثماني في أوجه.

حكم النمسا[٢٦]. وبالاضافة إلى ذلك فقد كان الامبراطور النمساوي منذ اللحظات الأولى للاتفاق مقيداً بعداوة فردريك الثاني، ملك بروسيا، ورأى ألا يتورط في البلقان، خاصة أنه أراد الابقاء على علاقات جيدة مع فرنسا التي عارضت مشروع تقسيم الدولة العثمانية. وهناك سبب آخر أفشل المشروع وهو اندلاع الثورة الفرنسية، التي قيدت إمكانيات روسيا والنمسا تجاه الدولة العثمانية خلال حروب ١٧٨٧ ــ ١٧٩٢[٢٧]. والواقع أن الدولة العثمانية توقعت فترة من الهدوء على جبهات القتال نتيجة لانشغال أوروبا بالثورة الفرنسية، مما حمل أحمد افندي، السكرتير الخاص للسلطان سليم الثالث، لأن يبتهل إلى الله بأن يجعل «الثورة في فرنسا تنتشر في أعداء الامبراطورية كمرض الزهري ويقذفهم في صراع طويل مع بعضهم البعض بحيث تكون النتيجة ما يدر بالنفع على الامبراطورية...»[٢٨].

ولم تعطل وفاة الامبراطورة كاترين الثانية (١٧٩٦) ولا المحالفة الروسية العثمانية (١٧٩٨) لطرد الفرنسيين من مصر خطط روسيا للقضاء على الدولة العثمانية والاستحواذ على العاصمة والممرات. ولقد خابت آمال الدولة العثمانية في أن ترى الهدوء المنشود نتيجة انشغال أوروبا بنزاعاتها الداخلية. فحتى مؤتمر فيينا كانت الحكومة العثمانية أشبه بكرة تتقاذفها الدول الأوروبية. فلكي تطرد الفرنسيين من مصر كان عليها أن تتحالف مع بريطانيا ومع عدوتها روسيا وتمنح الأولى امتيازات تجارية في البحر الأسود والثانية في الممرات. وعندما خرجت فرنسا من مصر واستعادت نفوذها مجدداً في استانبول بعدما هزمت التحالفات الأوروبية (١٨٠٥ ــ ١٨٠٦) ارتمى الباب العالي مجدداً في أحضانها، وسرعان ما ورطته الدبلوماسية الفرنسية في حرب ضد روسيا (١٨٠٦ ــ ١٨١٢) وأخرى ضد بريطانيا (١٨٠٧). ولكن التقارب الروسي الفرنسي في تلست (١٨٠٧) عاد وقذف بالحكومة العثمانية من مرمى بريطانيا. وكانت النتيجة مزيداً من الامتيازات لبريطانيا (معاهدة الممرات كانون ثاني ١٨٠٩).

نابوليون، الكسندر الأول ومشروع تقسيم الدولة العثمانية عقدة القسطنطينية والممرات

عقب انتصاره على روسيا وبروسيا في حزيران ١٨٠٧ فكر نابوليون بأن يتخذ من روسيا

حليفاً له ضد بريطانيا وبإعداد حملة برية روسية ـ فرنسية مشتركة لغزو الهند[٢٩]. ولكن هذا المشروع سرعان ما ارتبط بمشروع آخر وهو تقسيم الدولة العثمانية في أوروبا. ففي حزيران ١٨٠٧ عقدت اتفاقية تلست بين فرنسا وروسيا وبموجبها انسحبت روسيا من الجزر الأيونية لمصلحة فرنسا. ونصت المعاهدة في إحدى بنودها على إخلاء روسيا ولايتي الدانوب التي احتلتهما على الا يدخلها العثمانيون قبل التوصل لصلح مع روسيا. وبحال رفض الباب العالي ذلك تقوم روسيا وفرنسا باحتلال الممتلكات العثمانية في أوروبا باستثناء روميليا واستانبول[٣٠]. وهكذا وجدت الدولة العثمانية نفسها عام ١٨٠٧ تخوض الحرب التي ورطتها فيها الدبلوماسية الفرنسية منفردة، وفوق ذلك مهددة بمؤامرة تحيكها كل من فرنسا وروسيا.

وبعد صلح تلست تابع مفوضو روسيا وفرنسا مفاوضات تقسيم الدولة العثمانية، بعدما وضع القيصر الكسندر الأول ونابوليون خطوطه العامة. وكان الوزير رومانوف (Romanoff) ممثلاً لروسيا في المفاوضات، في حين مثل السفير كولانكور (Caulaincourt) الامبراطور نابوليون. وتركزت المناقشات مبدئياً حول حصول روسيا على ولايتي الدانوب وبلغاريا مقابل حصول فرنسا على البانيا واليونان وكريت، بينما تنال النمسا البوسنة وصربيا[٣١].

ولكن المباحثات سرعان ما اصطدمت بعقدة القسطنطينية والممرات. فروسيا أصرت على الاستحواذ على العاصمة العثمانية وممراتها الاستراتيجية، بينما عارض الفرنسيون ذلك، لأنه كان يتعارض مع سياستهم المتوسطية، حتى لا تكون الجيوش الفرنسية في حال غزوها لسوريا براً، تحت رحمة روسيا(*). وبالاضافة إلى ذلك رفض نابوليون أن تضع روسيا يدها على القسطنطينية كونها مدينة عالمية لا يجوز أن تمتلكها أية دولة[٣٢].

ويبدو أن طرح نابوليون لعالمية القسطنطينية جعل القيصر الكسندر يقترح تدويل المدينة لتكون مدينة حرة كإحدى دول الهنزا هامبرج او بريمن[٣٣]، واعتقد الكسندر الأول أن تدويل المدينة سيرضي نابوليون وبذلك تنتهي المسألة وتكون الممرات من نصيب بلاده. إلا أن المندوب الفرنسي سرعان ما ربط بين مسألة تدويل القسطنطينية وقضية الممرات، فاقترح أن تستولي روسيا على البوسفور الذي يطل على البحر الأسود مقابل أن تضع فرنسا يدها على الدردنيل، الذي يشرف على البحر المتوسط[٣٤]. ولكن هذا الاقتراح كان يتعارض مع الاستراتيجية الروسية المعلنة منذ أيام بطرس الأكبر، وهي الاستيلاء على الممرات والاطلال على المتوسط. وكان متوقعاً أن ترفض روسيا بأن تضع «بوابات منزلها» بأيدي غريبة[٣٥]. وخلال سير المفاوضات في النصف الأول من عام ١٨٠٨ أعرب القيصر الروسي عن رفضه القاطع لسيطرة فرنسا على الدردنيل، لأن ذلك يضر ببلاده، ولن يكسبها شيئاً من مشاريع التقسيم. كما شدد رومانوف أمام المندوب الفرنسي عن تمسك بلاده بالسيطرة على مفتاحي القسطنطينية، البوسفور والدردنيل، وعلى العاصمة العثمانية لأسباب اقتصادية ودينية، وهي تطوير التجارة الروسية في منطقتي البحر الأسود والمتوسط وكون القسطنطينية المدينة التي تضم آيا صوفيا، التي هي الكتدرائية الحقيقية للكنيسة اليونانية[٣٦].

وعندما وصلت المفاوضات إلى طريق مسدود عرضت روسيا تطوير مشروع تقسيم الامبراطورية العثمانية من تقسيم جزئي إلى تقسيم شبه نهائي لها. فاقترح أن تضاف مقدونيا إلى حصة النمسا باستثناء سالونيك، في حين تنال فرنسا بالاضافة إلى حصتها السابقة، جزر الأرخبيل جميعها وكريت وقبرص ورودس وسمرنة وسوريا ومصر. واعتقدت روسيا أن حصول فرنسا على هذه الحصة الثمينة سوف يجعلها توافق على استيلائها على الولايات الآسيوية العثمانية القريبة من البوسفور. وكان يعني هذا دفع العثمانيين إلى خلف جبال طوروس، وربما حتى ضفاف الفرات[٣٧]. كما

(*) كان تفوق الأسطول البريطاني في المتوسط على الأسطول الفرنسي هو الذي جعل نابوليون يفكر في تأمين مواصلات برية مع الشرق.

تعهد القيصر الروسي مقابل سيطرته على الدردنيل بتخصيص طريق برية عسكرية لفرنسا وللنمسا تؤدي إلى سوريا وبدعم حملة لاحتلال سمرنة ومناطق أخرى في الأناضول. أما نابوليون فكان على استعداد للمساومة على القسطنطينية والتضحية بها، لكنه تشبث بأن يكون مضيق الدردنيل لفرنسا وحدها وبالتالي منع الروس من التوغل إلى المتوسط. وفي هذا الاطار عرض كولانكور استيلاء الروس على الآستانة والبوسفور مقابل استحواذ فرنسا على مضيق الدردنيل[٣٨].

فشلت المفاوضات وكانت عقدة الدردنيل السبب الرئيسي لذلك. وبعد قليل كانت روسيا عرضة للغزو الفرنسي. وما هي إلا سنوات قليلة حتى كانت باريس نفسها تستسلم أمام ضربات المدفعية الروسية. أما الدولة العثمانية فواصلت سيطرتها على القسطنطينية للقرن الرابع على التوالي.

الأزمة اليونانية والبحث عن شريك

كانت مسألة تقسيم الدولة العثمانية تطرح فعلياً أمام الدبلوماسية الأوروبية في كل مرة كانت تتعرض فيها الامبراطورية العثمانية لهجمة من الغرب أو ثورة رعاياها المسيحيين المدعومين من الخارج. وعندما اندلعت الثورة اليونانية (١٨٢١) طرحت مجدداً مسألة تقسيم ممتلكاتها، وككل مرة كانت روسيا أكثر الدول تورطاً في هذه المشاريع التقسيمية للدولة العثمانية.

وكما رأينا سابقاً، قدمت الحكومة الروسية بعد اندلاع الثورة اليونانية مذكرة إلى الدول الأوروبية في حزيران ١٨٢١ تسألها فيها عن موقفها في حال تورطها في حرب مع الباب العالي[٣٩]. وبالاضافة إلى ذلك استوضحت الحكومة الروسية في مذكرتها «عما تقترحه الدول الأوروبية من بديل للحكم العثماني في حال انهياره»[٤٠]. وبعبارة أخرى أرادت الحكومة الروسية معرفة مدى تجاوب هذه الدول مع مشاريع تقسيم الدولة العثمانية وممتلكاتها.

وفي الشهر التالي كانت الحكومة الروسية تقوم باتصالات دبلوماسية مع فرنسا بغية مشاركتها في صفقة لتقسيم الدولة العثمانية. لكن الحكومة الفرنسية أهملت الموضوع، إذ كانت غير متأكدة من جدية القيصر الروسي، كونه لم يقدم مقترحات حسية تتعلق بالتقسيم[٤١]. وفي نفس الوقت كان الكونت شاتوبريان (Chateaubriand)، السفير الفرنسي في روما، يبعث إلى حكومته يحثها على الأخذ بمشروع القيصر الكسندر والتحالف معه[٤٢]. ومن جهة أخرى بعث إلى فرونيه (Ferronnays)، السفير الفرنسي في بطرسبرغ، يحثه على أن يثير مسألة استيلاء روسيا على القسطنطينية وتوزيع ممتلكات الدولة العثمانية الأوروبية على الدول المسيحية، على أن يرتبط ذلك بتعويضات للدول الأوروبية التي لا يمكنها التوسع شرقاً على حساب الدولة العثمانية[٤٣].

ورغم جهودها هذه المرة أيضاً فلم تجد الدبلوماسية الروسية حليفاً أوروبياً يشاركها خططها التقسيمية في الدولة العثمانية. ومع ذلك فبعد مرور ثماني سنوات على فشل هذا المشروع فإن الدبلوماسية الفرنسية ستكون هي الداعية لتقسيم الدولة العثمانية، بينما ستكون روسيا هي المدافعة عن سلامة الدولة العثمانية. فما هي يا ترى هذه المتغيرات في السياسة الخارجية الروسية تجاه الدولة العثمانية؟

موقف روسيا المعارض لمشروع بولينياك لتجزئة الدولة العثمانية

خلال اجتماع السفراء في بوروس (آذار ١٨٢٩) الذي اضطلع بمسألة تكوين الدولة اليونانية، اقترح وزير الخارجية الفرنسي، المسيو دو لا فيرونيه، أن يترك لروسيا حرية العمل في ولايتي الدانوب[٤٤]. وقد أتاح هذا الاقتراح حدوث تقارب فرنسي — روسي فيما يتعلق بالموقف تجاه الدولة العثمانية. وعندما سقطت مدينة أدرنة في خريف ذلك العام بيد القوات الروسية وأصبحت العاصمة العثمانية نفسها مهددة، بدا وكأن الامبراطورية العثمانية على وشك الانهيار وأن تقسيم ممتلكاتها قد أصبح أمراً واقعاً. وفي هذه الأثناء كان السفير الفرنسي في لندن الكونت دو بولينياك (Comte de Polignac) قد أصبح رئيساً للوزراء ويخطط لاتباع سياسة استعمارية

تقوي من وضع حكومته داخلياً. فبعد احتلال الجزائر (١٨٣٠) أخذ بولينياك يسعى للتحالف مع روسيا وتأييدها في سياستها تجاه الدولة العثمانية وبالمقابل الحصول على الدعم الروسي لفرنسا في المسألة البلجيكية(٤٥).

وفي هذا الاطار وضع بولينياك مشروعاً لاعادة النظر في خارطة أوروبا التي صاغها مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ ولتسوية المسائل السياسية العالقة في الغرب والشرق(٤٦). فأوعز إلى بوالوكونت (Boislecomte) رئيس الدائرة السياسية في وزارة الخارجية الفرنسية بإعداد مشروع لتقسيم ممتلكات الدولة العثمانية يكون أساساً للمفاوضات مع روسيا ومقبولاً من وجهة النظر الفرنسية على أن يمتزج بتعديلات إقليمية في أوروبا الوسطى ومنطقة الراين(٤٧).

وخلال إعداده للمشروع توقع بوالوكونت أن يأتي اليوم الذي يدخل فيه الروس القسطنطينية(٤٨). ولهذا رأى أن من مصلحة فرنسا إبعاد روسيا دوماً عن تلك المنطقة وإعادة إحياء مشروع المملكة اليونانية من جديد وأن تكون القسطنطينية عاصمة لها يحكمها امبراطور يختار من البلاد المنخفضة. واقترح بوالوكونت أن تكون ولايتا الدانوب وجزء من آسيا الصغرى من نصيب روسيا، على أن تحصل النمسا على صربيا والبوسنة والهرسك. أما نصيب فرنسا فكان يتعلق بالتسويات على الأرض الأوروبية، وهو أن تقتسم فرنسا وبروسيا الأراضي المنخفضة، فتحصل الأولى على الجزء البلجيكي ولوكسمبورغ مقابل حصول الثانية على الجزء الهولندي ومملكة ساكس بعد أن تتخلى عن أراضيها على الضفة اليسرى للراين لملك ساكس السابق. أما بريطانيا فتنال المستعمرات الهولندية(٤٩).

ومنذ البداية كانت إمكانية نجاح المشروع ضئيلة، خصوصاً أنه كان من المستبعد الحصول على موافقة بريطانيا وبروسيا عليه(٥٠). اما روسيا فهل كانت ستوافق على استبدال الحكومة العثمانية المنهارة في القسطنطينية عام ١٨٢٩ بحكومة فتية في الممرات تحصل على ضمانات دولية لوجودها؟ الجواب كلا. فما أن عرض المشروع على الحكومة الروسية حتى رفضته جملة وتفصيلاً، ليس لأنها كانت ترفض وجود دولة غيرها في القسطنطينية والممرات العثمانية فحسب، بل لأن القيصر نيقولا كان قد خرج في أيلول ١٨٢٩ عن السياسة التقليدية الروسية الداعية لتقسيم الدولة العثمانية وقرر اتباع سياسة جديدة وهي المحافظة على سلامة الدولة العثمانية وممتلكاتها(٥١). فما هي إذن دوافع هذا التغيير في السياسة الروسية المتبعة تجاه الدولة العثمانية منذ القرن الثامن عشر؟

السياسة الروسية الجديدة
رفض التقسيم والمحافظة
على سلامة الدولة العثمانية

عندما احتلت القوات الروسية مدينة أدرنة، العاصمة العثمانية الثانية، في صيف ١٨٢٩ وأخذت تنتظر الأوامر بالزحف على القسطنطينية، كلف القيصر الروسي لجنة سرية برئاسة كوشوبك لتبحث في النتائج التي قد تترتب على انهيار الدولة العثمانية. وقد ضمت اللجنة كبار رجالات الدولة ومن ضمنهم نسلرود وداشكو، مستشار القيصر الخاص.

وقد طرحت أمام اللجنة ثلاث مذكرات تتعلق بمصير الدولة العثمانية: الأولى تعود إلى عام ١٨٠٢ قدمها الكونت كوشوبك إلى القيصر الكسندر، والثانية مذكرة أحد زعماء اليونان، وهو كابوديسترياس (Capodistrias) والأخيرة مذكرة الكونت داشكوف وتعود إلى عام ١٨٢٨. وبعد افتتاح اللجنة لأعمالها في ١٦ أيلول ١٨٢٩ تلى المستشار نسلرود مذكرة كوشوبك، التي أظهرت مصلحة روسيا في عدم انهيار الدولة العثمانية. فالاحتفاظ بها جارة ضعيفة مهددة بثورات رعاياها المسيحيين له من المزايا أكثر من المساوىء. وإذا ما انهارت الدولة العثمانية من تلقاء نفسها، فعلى روسيا أن تتخذ كافة الاجراءات لحماية مصالحها وتبدأ على الفور مفاوضات مع الدول الكبرى للاتفاق على توزيع ممتلكات الدولة العثمانية وشعوبها.

وبعد ذلك تليت مذكرة كابوديسترياس التي طالبت بتقسيم البلقان العثماني إلى خمس دول من الدرجة الثانية وبإعلان القسطنطينية مدينة



□ المستشار الروسي نسلرود.

حرة. وكانت مذكرة داشكو آخر المذكرات الهامة التي بحثتها اللجنة. فقد توقع هذا أن يؤدي تدمير الدولة العثمانية إلى حرب أوروبية عامة. ولهذا اقترح بأن تتركز جهود روسيا على عدم الاستحواذ على أراض جديدة، بل تدعيم سلطتها ونفوذها في المناطق التي كانت قد احتلتها من الامبراطورية العثمانية. فيما يتعلق بامتلاك روسيا للممرات تساءل داشكو في مذكرته عن الثمن المتوجب على روسيا دفعه لتحقيق ذلك. ورأى أن تقسيم الدولة العثمانية لن يكون في مصلحة روسيا، إذ أن دولاً أوروبية هي أقرب جغرافياً لروسيا منها، سوف تسبقها للسيطرة على المناطق العثمانية. فالنمسا قد تأخذ صربيا والبوسنة والهرسك والجبل الأسود. أما انكلترا وفرنسا فقد تستوليان على مصر وكريت والجزر اليونانية. وفي هذه الحالة فستجابه روسيا أعداء خطرين في جنوب أوروبا بدلاً من العثمانيين الضعفاء. واقترح أخيراً أن تحتل القوات الروسية ضفتي البوسفور إذا ما وافق القيصر على تحويل القسطنطينية إلى مدينة حرة[٥٢].

وبعد مناقشتها للأفكار المطروحة أوصت اللجنة بوقف الحرب ضد الدولة العثمانية وعقد السلام معها. وفيما يتعلق بالسياسة المطلوب اتباعها تجاه الدولة العثمانية اقترحت اللجنة ثلاثة مبادىء لتكون أساس السياسة الروسية تجاه هذه الدولة[٥٣]، وهي:

١ ــ المحافظة في الوقت الراهن على السلطنة العثمانية ضعيفة قدر الامكان.

٢ ــ أن تحتل روسيا المضائق العثمانية والقسطنطينية في حال انهيار الدولة العثمانية في أوروبا.

٣ ــ أن تتفاوض روسيا مع الدول الأوروبية الأخرى، في حال انهيار الدولة العثمانية التام، فيما يتعلق بتوزيع ممتلكات الأخيرة.

وعندما عرضت هذه التوصيات على القيصر نيقولا قبلها وجعلها أساس سياسته تجاه الدولة العثمانية، خاصة وأنها كانت تبعد الدول الأوروبية عن الممرات وتضبط اتساع الحركات القومية في البلقان[٥٤].

مشاورات بطرسبرغ ــ فيينا ــ لندن ومصير الدولة العثمانية (١٨٣٣ ــ ١٨٤٤)

وضعت الأزمة المصرية هذه المبادىء الروسية على المحك. ففي عام ١٨٣٣ كان على روسيا أن تقوم بحماية السلطنة العثمانية من الانهيار أمام ضربات محمد علي، ليس بسبب تحمسها أو رغبتها بأن تقدم للباب العالي دعم دولة حليفة، بل لأن روسيا كانت تريد جارة ضعيفة، لا قوية مدعومة من فرنسا. وكما جاء على لسان نسلرود في مطلع عام ١٨٣٣، فإن روسيا لم تكن في تلك المرحلة راغبة بتقسيم الدولة العثمانية. إلا أن الأزمة المصرية أبانت لروسيا مدى الضعف العثماني وعدم قدرة الادارة العثمانية على الصمود، وبالتالي فنهاية الامبراطورية أصبحت وشيكة. ولهذا قررت الحكومة الروسية استباق «الكارثة المنتظرة» والقيام بكافة الترتيبات مع الدول الأوروبية بهدف الاتفاق معها على توزيع ممتلكات الدولة العثمانية[٥٥].

ومنذ البداية كانت فرنسا مستبعدة من أي اتفاق على مصير الدولة العثمانية، أما بروسيا فكانت لا تستطيع أن تقدم لروسيا سوى تأييد

أدبـي في المسألة الشرقية. وهكذا لم يكن أمام روسيا سوى التفاهم مع النمسا وبريطانيا. وهذا الموقف كان يبـرز اثنين من المعـالم الرئيسة للسياسة الخارجية الروسية حتى حرب القرم: اتفاقية ميونيخ غراتز مع النمسا، واتفاقية ١٨٤٤ السرية مع بريطانيا.

وبموجب معاهدة ميونيخ غراتز (١٨ أيلول ١٨٣٣) ضمنت روسيا تأييـد النمسا لهـا في سياستها تجاه الدولة العثمانية والمحافظة عليها ضعيفـة قدر الامكـان. كما اعتـرفت روسيا بالنمسا شريكاً كاملاً في أية تجزئة مستقبلية للدولة العثمانية[٥٦].

اتفاقية (١٨٤٤) الشفوية السرية بين روسيا وبريطانيا (مذكرة نسلرود)

وكانت هذه الاتفاقية ثاني المعالم الرئيسـة في السياسة الروسية الخارجية فيما يتعلق بمصير الدولة العثمانية، حدثت بعد أحد عشر عاماً على الاتفاقية مع النمسا. ويعود التأخر في ذلك إلى شدة الخلافـات الروسية ــ البـريطانيـة بعد معاهدة خنكار اسكلسي. ولكن بعد ١٨٣٩ حدث تقارب بين الدولتين فيما يتعلق بالمسألة المصرية وقد أسفر ذلك عن نتيجتين هامتين، وهما تعاون روسيا مع بريطانيا في حل المسألة المصريـة، ومعاهدة الممرات. وبعيداً عن المسألة الشرقية كانت هناك إشارات إلى تقارب الدولتين فيما يتعلق بالمسائل الفارسية والمنافسـة التجاريـة بينهمـا[٥٧]. وقد تكللت هـذه الجهود بتـوقيع اتفـاقية تجـارية روسيـة بريـطانية في مـطلع عـام ١٨٤٣[٥٨]، وبـزيـارة القيصر نيـقـولا لبريطانيا في حزيران ١٨٤٤.

والواقـع أن زيارة القيصر إلى لنـدن كانت للتوصل إلى اتفاق مع الزعماء البريطانيين حول مصير الدولة العثمانية. وخلال المفاوضات حاول القيصر اللعب عـلى التناقضـات البـريـطانيـة الفرنسية، وخصـوصاً تلك في منـطقة جنـوب الباسيفيك والاتفاق مع بـريطانيـا على تقسيم الدولة العثمانية، التي أطلق عليهـا لأول مرة «الرجل المريض على البوسفور»[٥٩]. وفي معرض حديثه عن الدولة العثمانية قال القيصر:

«إن تركيا أشبه برجل يحتضر، وقد نسعى لابقائه على قيد الحياة، ولكن مسعانا لن يكلل بالنجاح، فسيموت، بل يجب أن يموت. وعندها ستسود لحظة حرجة»[٦٠].

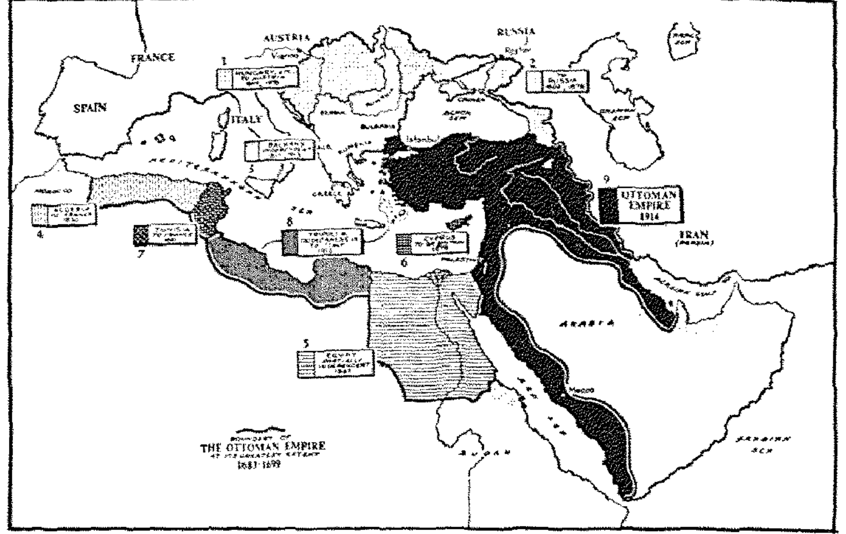
وفي منـاسبة أخـرى أبلغ نيقـولا الزعمـاء البـريـطانيـين، وفي مقدمتهم أبـردين، وزيـر الخـارجيـة، بـأنـه لا يـود الاستحـواذ عـلى القسطنطينية ولا يريد إعادة إحياء الامبراطورية البيزنطية «ولكن إذا ما انهارت الامبراطوريـة العثمانية من تلقاء نفسها... فإني (القيصر) لن أسمح بسقوط القسـطنطينيـة بأيـدي فرنسـا أو انكلترا»[٦١].

وتشير المصادر أن روسيا وبريطانيا توصلتا إلى اتفاق شفوي سـري بشأن تقسيم الدولة العثمانية في حال انهيارها، وبإخراج فرنسا من تلك الصفقة. ويعرف هذا الاتفاق أيضاً باسم «مـذكرة نسلرود» (Nesselrode Memorandum of 1844)، حيث أن تفاصيل تقسيم الدولة العثمانية من وجهة النظر الروسية كانت قـد تضمنتهـا مراسـلات نسلرود مـع المسـؤولين البريطانيين. ويمكن تلخيص هذا الاتفاق ببندين اثنين هما:

«١ ــ المحافظة عـلى الدولة العثمانيـة في حالتها الحـاضرة في ذلك الوقت (وهي حـالة صعبة، ولكنها ليست صعبة جداً إذا ما طبقت إصلاحات داخلية).

٢ ــ التـوصل إلى تفـاهم تمهيـدي عـلى تفاصيل التقسيم إذا ما تبين في المستقبل أنه لا يمكن المحافظة على تركيا ــ «إذا ما رأينا أنه ينبغي لها أن تتجزأ»[٦٢].

وقد أخطأ ماركس عندما توقع بأن تتورط بريطانيا نتيجة الاتفاقية في صراع مميت مع فرنسا، بينما تحصل روسيا على حرية تنفيـذ سيـاستهـا تجـاه الدولة العـثـمـانـيـة[٦٣]. فاتفاقية ١٨٤٤ لم تكن أكثر من تجميد مؤقت للخلافات والتناقضات الروسية البريطانية فيما يتعلق بمصير الدولة العثمانية. فبعد تسع سنوات على الاتفاقية كانت بريطانيا تخوض حرب القرم ضد روسيا مدعومة من فرنسا. أما أسباب هذا التحول في المواقف، فمرده إلى أن الاتفاقية كانت شفهية مما جعلها عرضة للتفسيرات المتناقضة.



□ خريطة تبين تراجع نفوذ الدولة العثمانية ما بين ١٦٩٩ ـ ١٩١٤

فبندا الاتفاقية أعلاه كانا في الواقع رفضاً أدبياً بريطانياً لسياسة القيصر نيقولا الداعية لتقسيم فوري لمتلكات الدولة العثمانية، وهذا ما لم يدركه القيصر. فبريطانيا كانت ترى أن الدولة العثمانية قد أعياها الضعف، لكنها لم تقطع الأمل في إعطائها دفعة من الصحة والعافية من خلال إصلاحات داخلية. ومع ذلك شاركت بريطانيا روسيا بضرورة التشاور والتفاهم حول تجزئة الدولة العثمانية فيما لو تبين أن الامبراطورية العثمانية سارية لا محالة في طريق الزوال. أما القيصر نيقولا فاعتبر أن الاتفاقية ألزمت بريطانيا بضرورة التعاون معه في سبيل تقسيم الدولة العثمانية. ولعل عدم وضع تحديدات دقيقة لمعايير الضعف والانهيار العثماني أو العافية والقدرة على الاستمرار ترضي الطرفين كانت إحدى الأسباب الرئيسية لاندلاع حرب القرم عام ١٨٥٣. ففي ذلك العالم اعتبرت روسيا أن الدولة العثمانية قد وصلت إلى درجة كبيرة من الاعياء وحان وقت تقسيمها، في حين كانت بريطانيا لا ترى أن الأمر قد وصل إلى هذا الحد وبالتالي لا يمكن التفكير الآن في عملية التجزئة(٦٤).

ويبدو أن القيصر نيقولا أدرك أن الدول الأوروبية التي اتصل بها لم تأخذ مقترحاته بشأن تقسيم الدولة العثمانية على محمل الجد، فصرح منذراً تلك الدول:

«إذا كنتم (الدول الأوروبية) لا تستطيعوا أن تقرروا التحالف معي في هذا المسألة (تجزئة الدولة العثمانية)، فإني مصمم على التصرف منفرداً»(٦٥).

وبعد تسع سنوات على زيارته للندن بدأ القيصر نيقولا ينفذ إنذاره، بعدما يئس من موقف بريطانيا التقليدي تجاه الدولة العثمانية، وبعدما ظهر نابوليون الثالث على الساحة الدولية منافساً يريد إحياء أمجاد نابوليون بونابرت. ففي ١٨٥٣ اشتعلت حرب القرم واستمرت حتى عام ١٨٥٦، وهذا ما سنبحثه في الحلقة الثالثة من هذه الدراسة.

المراجع

(١) T.G. Djuwara: Cent Projets de Partage de La Turquie (1281 — 1913) Paris 1914, pp. 3 — 4.

(٢) عبدالعزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج ٢، القاهرة ١٩٨٠، ص ٨٣٠ ـ ٨٣٤.

(٣) يقصد بـ «التجانس الأوروبي»، أو «التضافر الأوروبي» أساليب وطرق التشاور والتعاون بين القوى العظمى بهدف فض ومناهضة النزاعات والأزمات الدولية ولأجل إنهاء الحروب ومنع حدوثها. وليس هناك تأكيد متى استعمل هذا الاصطلاح لأول مرة في اللغة الدبلوماسية. لكنه بدأ يظهر باستمرار منذ صلح أوترخت عام ١٧١٣. انظر:

— Winfried Baumgart. Vom Europaeischen Konzert zum Voelkerbund. Friedenssicherung von Wien bis Versailles, Darmstadt 1974, p. 1.

هـ. أ. ل. فشر: تاريخ أوروبا في العصر الحديث (١٧٨٩ ـ ١٩٥٠)، الطبعة السادسة، تعريب أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع، القاهرة، د.ت. ص ١١٨ ـ ١٢٠.

(٤) خيرية قاسمية: روسية القيصرية والمشرق العربي، في «دراسات تاريخية»، عدد ٩ و ١٠، جامعة دمشق، تشرين أول ١٩٨٢، ص ٤٢.

(٥) عن الامبريالية الفرنسية في الشرق حتى ١٨٣٣، انظر:

— Vernon John Puryear: France and the Levant. From the Bourbon Restoration to the Peace of Kutiah, 1. ed. 1941, reprinted California 1968.

عن تطور السياسة الفرنسية الدينية والسياسية والاقتصادية حتى نهاية القرن الماضي راجع:

— Noel Verney et George Dambann: Les Puissances étrangerès dans les Levant en Syrie et en Palestine, Paris 1900.

حول مشاركة فرنسا في المشاريع التقسيمية للدولة العثمانية، انظر:

— Djuwara: Cent prohects, op. cit.

(٦) انظر الاتصالات الدبلوماسية التي اجراها اللورد ساليزبوري مع هاتسفلدت، السفير الالماني في لندن، في الفترة من تموز حتى تشرين اول ١٨٩٥ في:

— E.T.S. Dugdale: German Diplomatic Documents 1871 — 1914, in four Volumes, Vol. II, from Bismarck's Fall to 1898, Cap. XXIII, pp. 327 — 347; Gebhardt: Handbuch der deutschen Geschichte, edited by Herbert Grundmann, Vol. III, Stuttgart 1973, p. 337.

(٧) عبدالعزيز الشناوي، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٥.

(٨) Gebhardt, op. cit. Vol. III, p. 359f.

(٩) Abdel — Raouf Sinno: Deutsche Interessen in Syrien und Palaestina. 1841 — 1898. Aktivitaeten religioeser Institutionen, wirtschaftliche und politische Einfluesse, West Berlin 1982, pp. 295 — 298.

(١٠) M.S, Anderson: The Eastern Question 1774 — 1923. A Study in International Relations, N.Y. 1966, pp. 287 — 291.

(١١) Edward S. Creasy: History of the Ottoman Turks, 1. ed. London 1878, reprinted Beirut 1961, pp. 372 — 375; Djuwara, pp. 269 — 271.

(١٢) Djuwara, p. 279; Albert Sorel: La question d'Orient au XVIII^E siècle, le partage de la Pologne et le traité de Kainardji, Paris 1889, p. 165.

(١٣) Sorel, op. cit. 166.

(١٤) انظر الحلقة السابقة من الدراسة في مجلة «تاريخ العرب والعالم» العددان ٧٣/ ٧٤، ص ٤٨.

(١٥) W. Eton: A Survey of the Turkish Empire, 2. ed. London 1972, pp. 431 — 432.

(١٦) المرجع السابق، ص ٤٣٢ وما بعد.

(١٧) Djuwara, op. cit., p. 279.

(١٨) Anderson, op. cit., p. 8.

(١٩) Norman E. Saul: Russia and the Meditterranean 1797 — 1807, Chicago / London 1970, p. 11.

(٢٠) Édouard Driault: La question d'Orient depuis ses origines jusqu'a la paix de sèvres (1920), Paris 1921, p. 56.

(٢١) Edmond Rabbath: La question d'Orient sous l'Empire Ottomane 1789 — 1919, 1. ed. s.d. Beyrouth, p. 21; Driault, p. 56f.; Djuwara 298ff.

(٢٢) Djuwara p. 300f.; Anderson p. 9.

(٢٣) Driault, p. 57.

(٢٤) المرجع السابق، ص ٥٧.

(٢٥) Rabbath, p. 21; Djuwara 302f.

(٢٦) Saul, op. cit., p. 13f.

(٢٧) Anderson, p. 9.

ويذكر أيتون وينقل عنه كريزي وسول أن مشروعاً روسياً آخر لتقسيم الدولة العثمانية تعطل بسبب وفاة الامبراطورة كاترين الثانية عام ١٧٩٦،

— Eton, p. 465; Creasy, p. 445; Saul, p. 15.

(٢٨) Bernard Lewis: The Emergence of Modern Turkey, 2. ed. London / Oxford / N.Y. 1968, p. 65.

(٢٩) Driault, p. 77f., 92f.

(٣٠) الشناوي، ج ١، ص ٢١٥ ـ ٢١٦.

(٣١) Creasy, p. 486; Diuwara, p. 347.

(٣٢) عندما طرحت مسألة استحواذ روسيا للقسطنطينية رفضها نابوليون رفضاً قاطعا وقال:

— «Constantinople! Constantinople! never! for it is the Empire of the World». نقلاً عن:

William Miller: The Ottoman Empire and its Successors 1801 — 1927, London 1934, p. 39;

وقارن ايضا:

— Carl Ritter von Sax: Geschichte des Machtverfalls der Tuerkei bis Ende des 19. Jahrhunderts und die phasen der «orientalischen Frage» bis auf die Gegenwart, Wien 1908, p. 165.

(٣٣) Creasy, p. 486.

(٣٤) Djuwara, p. 363.

(٣٥) Driault, p. 93.

(٣٦) Creasy, p. 486.

(٣٧) Djuwara, p. 362; Creasy, p. 486.

(٣٨) Rabbath, p. 47; Djuwara, p. 363.

(٣٩) راجع الحلقة السابقة في مجلة «تاريخ العرب والعالم» العددان ٧٣/٧٤، ص ٤٨.

(٤٠) Sax, p. 196.

(٤١) J. Hajjar L'Europe et les destinées du Proche — Orient (1815 — 1848) Tournai 1970, p. 76.

(٤٢) Djuwara, p. 388 — 89.

(٤٣) Hajjar, op.cit., p. 76.

(٤٤) بيير نوفان: تاريخ العلاقات الدولية (القرن التاسع عشر ١٨١٥ ـ ١٩١٤)، تعريب جلال يحيى، القاهرة ١٩٨٠، ص ١١٩ ـ ١٢٠.

(٤٥) Vernon John Puryear: France and the Levant. From the Bourbon Restoration to the Peace of Kutiah, 1. ed. 1941, reprinted California 1968, p. 76f.; Driault, pp. 130f.

(٤٦) Puryear, op. cit., p. 77.

(٤٧) بيير نوفان، تعريب جلال يحيى، ص ١٢٠ ـ ١٢١.

— Djuwara, p. 380.

(٤٨) Djuwara, p. 380.

(٤٩) Puryear, p. 77; Driault, p. 131f.

(٥٠) نوفان، ص ١٢١.

(٥١) Handbuch der Europaeischen Geschichte, edited by Theoder Schieder Vol. V, Europa von der Franzoesischen Revolution zu den Nationalstaatlichen Bewegungen des 19. Jahrhunderts, Stuttgart 1981, p. 666f.

أ.ج. جرانت وهارولد تمبرلي: أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين، ١٧٨٩ ـ ١٩٥٠، ج ١، ترجمة بهاء فهمي، القاهرة،د.ت.،ص ٤٠٦ ـ ٤٠٧.

(٥٢) Vernon John Puryear: England, Russia, and the Straits Question 1844 — 1856, 1. ed. 1931, reprinted Hamden / Connecticut 1965, pp. 8 — 12.

وانظر ايضا جرانت تمبرلي، المرجع السابق، ج ١، ص ٤٠٧.

(٥٣) Puryear, England, Russia, op. cit. p. 12f.

(٥٤) انظر جرانت تمبرلي، ص ٤٠٧.

— HB, Vol. V, p. 667.

(٥٥) Puryear, England, Russia, op. cit., p. 15f.

(٥٦) انظر الحلقة الأولى من الدراسة في مجلة «تاريخ العرب والعالم»، العددان ٧٣/٧٤، ص ٤٨.

(٥٧) HB, Vol. V. p. 669.

(٥٨) Puryear, England, Russia, p. 37.

(٥٩) Charles Swallow: The Sick Man of Europe. Ottoman Empire to Turkish Republic 1789 — 1923, London 1923.

الشناوي، المرجع السابق، ج ٢، ص ٨٣٠.

(٦٠) Puryear, England, Russia, p. 46.

(٦١) المرجع السابق، ص ٤٨ ـ ٤٩.

(٦٢) المرجع السابق، ص ٥١، ٦٢ ـ ٦٥.

(٦٣) Karl Marx: The Eastern Question. A Preprint of Letters written 1853 — 1856 dealing with the Events of Crimean War, London 1969, p. 288.

(٦٤) Puryear, England, Russia, p. 53.

(٦٥) المرجع السابق، ص ٣٩.

أهميّة روافد العِلم في الحياة الثقافيّة لمدينة طرابلس

د. أنيس مصطفى الأبيض



قبل الحديث عن أهمية روافد العلم في الحياة الثقافية لمدينة طرابلس خلال القرن التاسع عشر لا بد من القاء نظرة على التعليم قبل عصر التنظيمات العثمانية، فلقد كان التعليم قبل عصر التنظيمات تعليماً دينياً، يبدأ في المنزل على يد مرب أو شيخ ويتعلم التلميذ فيه ترتيل أجزاء من القرآن الكريم، أما مبادىء الحساب فكان يتعلمها من قباني القرية، كما كان تعلم القراءة والكتابة هو الحد الأقصى للتعليم في القرى.

اما في المدن فكان التلاميذ يتلقون العلم في

خلال القرن التاسع عشر

المساجد، وكانت مادة التدريس الأساسية هي حفظ القرآن وتلاوته، وكثيراً ما استعملت مساجد القرى كمدارس، ولم تكن الحكومة تنفق على المدرسين أو على أبنية المدارس، بل كانت المدارس تدين بوجودها إلى تبرعات المحسنين الذين أنشأوها وحبسوا عليها الأوقاف الكافية.

اما في عصر التنظيمات، فقد شهدت ولاية سورية تطوراً فكرياً وثقافياً سريعاً إذا ما قارناه بتطور الثقافة والتعليم في العهد العثماني الأول، وقد مهدت الإدارة المصرية (١٨٣١ ــ ١٨٤٠م) لهذا التطور، وذلك بفضل المدارس الابتدائية التي أنشأها إبراهيم باشا في سورية وتطبيقه برنامجاً واسعاً للتعليم الابتدائي على نمط النظام الذي جرى تطبيقه في مصر.

وعلى هذا فان الحديث عن الروافد العلمية في طرابلس طيلة القرن التاسع عشر، يتطلب الوقوف على أماكن التعليم فيها ومعرفة الطريقة التعليمية التي كانت سائدة في ذلك العصر، حيث لم تكن هناك مدارس منتظمة، بل اقتصرت أماكن المعرفة والثقافة على المساجد والكتاتيب وبعض حلقات التعليم في البيوت يقوم بها المشايخ والعلماء. ولا يخامرنا شك بأن هذه الروافد العلمية قد أفسحت المجال لبروز طائفة من العلماء والأعلام النابغين الذين لا يُمارى في اقدارهم ممار.

لقد ولدت هذه الروافد العلمية عند أبناء الفيحاء نزعاً إلى العلم والأدب والدين، فلقد حفلت حواضر سوريا ومصر بنماذج طليعية من حملة مشعل الفكر الطرابلسي النهضوي من أمثال حسين الجسر[١] ورشيد رضا[٢] وفرح أنطون[٣] ونوفل نوفل[٤] ومحمود نشابه[٥] ومن إليهم من المتنورين الأفذاذ الذين أكثروا من الكتابة والتأليف في مختلف المباحث الدينية واللغوية والتاريخية والسياسية والاجتماعية والعسكرية، وكان لهم على تلافيف أدمغة من طلعوا بعد بصمات لا تمحى

المدارس والكتاتيب

يمكن القول أنه حتى منتصف القرن التاسع عشر لم يكن يوجد في طرابلس مدرسة بالمعنى الذي نفهمه الآن، تلقن فيها اللغات والعلوم والرياضيات والفلسفة، معلمون مختصون في مباحث معينة وكتب معلومة مخصوصة ووفق برامج مقررة، فقبل ذلك وفي أثنائها كانت المساجد والكتاتيب نفسها مكاناً رحباً لتلقين القرآن والحديث وبقية العلوم الدينية والعربية وخاصة الجامع المنصوري الكبير[٦]، الذي أحاطته مجموعة من المدارس القديمة، كان جل همها ينحصر في تدريس العلوم الدينية واللسانية ولا يقل عددها عن ست[٧]. وتعتبر المدرسة القرطائية[٨] أهمها على الاطلاق ومدرسة الناصر قلاوون[٩] ومدرسة الخيرية[١٠] حسن والمدرسة الطويشية[١١] التي يبرز بها البناء المملوكي والرفاعية والزريفية التي هي أقدم مدارس طرابلس.

أما مواضيع تلك الحلقات التي كانت تعقد في المساجد، فتناولت في بداية القرن الدروس الدينية

من حديث وتفسير وسيرة وقراءة وتجويد، في حين شملت تلك الدروس في منتصف القرن ونهايته المواضيع اللغوية والعقلية من فلسفة ومنطق وعلم الكلام، بدليل ما أخبرنا به الإمام رشيد رضا بأنه «قد تخرج في العلوم العقلية على يد الشيخ حسين الجسر الذي كان له المام واسع بالعلوم العصرية، يكتب وينظم في كل موضوع بعبارة سهلة، وكان له أسلوب خاص في التعليم يتحرى فيهالسهولة في البيان»[١٥].

أما الطلاب فإنهم كانوا يفدون إلى المدارس في سن مبكرة. وكانت الدراسة فيها ابتدائية تعقبها مرحلة متقدمة من الدراسة يتلقى فيها الطالب على الشيخ دروساً في فروع معينة من الفقه، وكانت هذه الدراسة تتم في حلقات دينية وتتناول العربية وعلومها والفقه والمنطق ومبادىء الرياضيات والتصوف وعلم الحديث[١٦].

ومما يؤكد ذلك ما ذكره الإمام رشيد رضا، بأنه قد أدخل المدرسة الرشدية في مدينة طرابلس وهي مدرسة ابتدائية للدولة، يدرس فيها الصرف والنحو والحساب ومبادىء الجغرافيا وعلم الحال والعقائد والعبادات «ثم دخلت المدرسة الوطنية الإسلامية وهي أرقى من المدرسة الرشدية وجميع التعليم فيها باللغة العربية إلا اللغتين التركية والفرنسية، وتدرس فيها العلوم العربية والشرعية والمنطق والرياضيات والفلسفة الطبيعية»[١٧]. وكذلك فيما يرويه الشيخ محمد سامي صادق[١٨] بأنه بعد أن تعلم القراءة والكتابة ومبادىء العلوم دخل المدرسة الشمسية[١٩] فتلقى فيها العلوم العربية والشرعية والعلوم العقلية المنطق وعلم الكلام والمقولات العشر مدة تزيد على عشر سنين[٢٠].

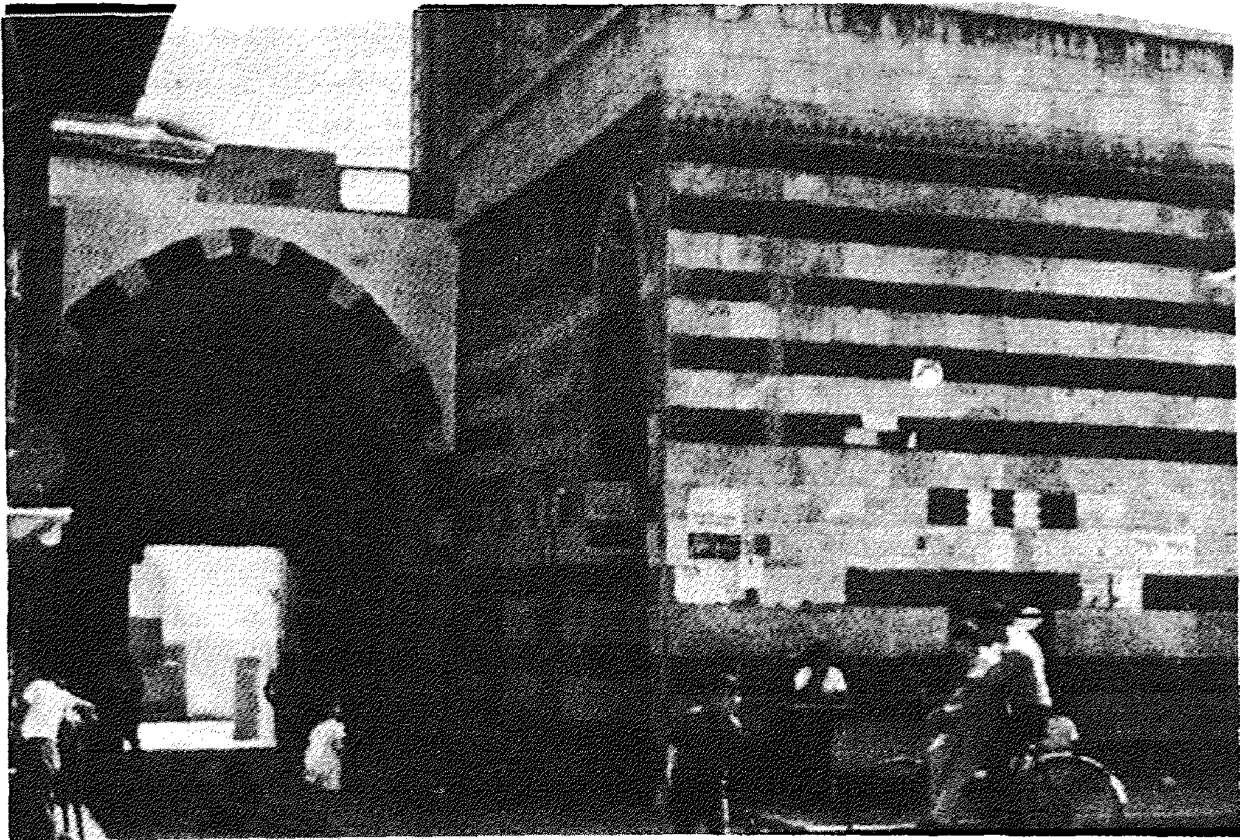
وفيما أفادتنا فيه سجلات المحكمة الشرعية لمدينة طرابلس بأنه كانت لهذه المدرسة أهميتها، بحيث أنها كانت مركزاً تعليمياً توجه فيه حجج التعليم لمشايخ المدينة وعلمائها للقيام بمهمة التدريس كما حدث للشيخ عبدالقادر مغربي[٢١] الذي أنيطت به وظيفتي التدريس والإمامة في المدرسة المرقومة وذلك لنفع المسلمين[٢٢].

أما **نظام التدريس** فلم يكن يخضع لامتحان أو شهادة، بل يعطى الطلاب بعد انتهاء دروسهم إجازة يمنحها الشيخ تلميذه فيصبح أهلاً للتعليم[٢٣]. وكثيرا ما كان الطالب يأخذ علومه على أكثر من شيخ، فالشيخ حسين الجسر كان استاذا للسيد رشيد رضا في العلوم العربية والشرعية العقلية[٢٤] في حين أجازه الشيخ محمود نشابه في علم الحديث وفقه الشافعية[٢٥]، أما الشيخ عبدالغني الرافعي[٢٦] فكان أستاذه في العلم والأدب والتصوف[٢٧] أما الأحاديث المسلسلة فقد تلقاها على يد الشيخ محمد القاوقجي[٢٨].

على أنه يجب أن نشير ومن خلال تراجم أبناء المدينة أن النشاط التعليمي كان محله في المقام الأول المساجد والكتاتيب، وحين الانتهاء من هذه الدروس كان بعض الذين يأخذون العلم في هذه المساجد والمدارس يتوجهون شطر مصر للمتابعة والتحصيل، فيدخلون الجامع الأزهر الذي كان له أكبر الأثر في نشر العلوم العربية من صرف ونحو وبلاغة ومنطق في جميع البلاد الإسلامية وخاصة طرابلس لتخرج عدد من علمائها في الجامع المذكور. ومما يؤكد هذا الكلام ما جاء في كتاب «نعمة البشام في رحلة الشام»[٢٩] حيث جاء قول المؤلف «ثم عزمنا على السفر إلى طرابلس الشام للتفسح وزيارة إخواننا الطرابلسيين الذين كنا نعرفهم في مدة المجاورة في الأزهر[٣٠].

ويورد مؤلف الكتاب أسماء نفر من هؤلاء الطرابلسيين كالشيخ عبدالغني الرافعي والشيخ عبدالقادر الرافعي[٣١] والشيخ حسين الجسر والشيخ محمود نشابه والشيخ علي الميقاتي[٣٢] ولعل أكثر هؤلاء الشيوخ نشاطاً وتدريساً في تلك الفترة هو الشيخ نجيب الزعبي الجيلاني[٣٣] الذي طبقت شهرته الأنحاء فوفد إليه الطلاب من كل صوب ينهلون من معين علمه[٣٤]. لقد انحصر النشاط التدريسي عهد ذاك في تلك المدارس والجوامع على أيدي مشايخ المدينة وعلمائها، كما انه كان لهؤلاء المشايخ المقام الرفيع من احترام الناس وتجلتهم[٣٥] ولكن هل توفر للمدينة في ذلك الوقت مدارس بالمعنى الذي نفهمه اليوم وبأي طريقة تلقى الطرابلسيون مبادىء العلوم؟

يمكن القول من خلال الحجج التعليمية التي حصلت عليها من سجلات المحكمة الشرعية لمدينة طرابلس أن المدينة شهدت في تلك الحقبة



□ المدرسة الأثرية وبوابة الجامع المنصوري الكبير.

إقبالا على العلوم من خلال ملفات التعليم التي كانت تعقد في أكثر مساجد المدينة ومدارسها وكتاتيبها، كما وان هذه المدارس والكتاتيب نشأت وازدهرت بريع الوقف الخاص أو باحسان المحسنين وان الدولة العثمانية من خلال ولاتها تكتفي فقط بتوجيه مناصب التعليم على نفر من العلماء، وحسبنا في الحجج التعليمية برهانا على نشطة العلم فيها(٣٦).

فهذا جامع العطار(٣٧) يشهد حلقات واسعة لطلاب العلم على يد الشيخ محمود منقاره(٣٨) وكذلك جامع طينال الذي وجهت حجة التدريس(٣٩) فيه على الشيخ حسيب الجسر، زد على ذلك ما زودتنا به تلك الحجج بأسماء المدارس التي كانت توجه فيها مهمة التدريس كمدرسة القادرية(٤٠) التي كلف بالتدريس فيها الشيخ عبدالمجيد المغربي(٤١) ومدرسة الدبها(٤٢) التي أنيط التدريس فيها للشيخ محمود الحسيني(٤٣) والمدرسة الرجيبية التي اختصت في تدريس العلوم الدينية من فقه وتفسير ومنطق ولغة عربية(٤٤). واتخذ الشيخ عبدالكريم عويضة(٤٥) المدرسة الخاتونية مقراً للتدريس وإعطاء الطلاب ألوان العلوم العقلية والنقلية وكان عدد طلابه يربو على الستين طالبا(٤٦).

وفي سياق ترجمته لقريبه نقولا نوفل(٤٧) ذكر مؤلف كتاب تراجم علماء طرابلس أن قريبه تعلم في كتاتيب طرابلس، وما الكتاب يومئذ إلا غرفة صغيرة تكتظ بالطلبة وعليهم معلم جاهل مركب، فيقرأون عليه حروف الهجاء ويتدرجون في القراءة الركيكة حتى المزامير والبارع منهم يتعلم قراءة الانجيل وهذا كان منتهى ما يبلغ إليه سواء المتعلمين من العلم أو يظل أكثرهم أميا، على أن الأذكياء ينصرفون لقراءة ما تصل إليه أيديهم من الكتب أو الدخول في حلقات العلم التي يعقدها بعض الأعلام(٤٨). وكان لنصارى المدينة بعض هذه الكتاتيب والمدارس التي تعني بتلقين الصبية مبادىء القراءة والكتابة والحساب وأصول الدين المسيحي، ولعل أهم تلك المدارس بروزاً تلك التي انشئت قبل عام ١٨٥٠م، وكانت تعلم الصرف والنحو والمعاني والبيان

والمنطق[٤٩]. كما انه كان للمسلمين مثل هذا النوع من الكتاتيب أو المدارس الذي كان منتشراً في جميع أنحاء المدينة، فيقرأ المعلم في كتابه والتلاميذ يتبعونه في كتبهم ويستمعون إلى شروحه، حتى إذا حان وقت الصلاة أدوها في هذه المدرسة جماعة، إذ بنيت هذه أصلاً لهذا الغرض، وكما أنه لم يكن هناك من نظام لهذه الدروس، إذ كان يحضرها من التلاميذ ويتغيب عنها من يشاء وساعة يشاء، وكان المعلم عندما ينتهي من تدريس فرع من الفروع الدينية أو العربية ينتقل إلى فرع آخر بعد أن يكتب لكل طالب حضر عنده تدريس هذه المادة شهادة مذيلة بإمضائه[٥٠].

إلا أن حلقات التدريس التي كان يعقدها بعض الشيوخ في مساجد طرابلس المخصصة للصلاة كانت تقوم على نطاق واسع من تلك الكتاتيب، إذ كان الناس يتحلقون كل جماعة حول معلم معين يلقنهم العلم الذي اشتهر به، فهذا معلم للتفسير وذاك للفقه وثالث للحديث ورابع للعلوم العربية كالصرف والنحو والمنطق.

وهكذا تابعت طرابلس مسيرتها العلمية تلقن عددا كبيرا من أبنائها مبادىء العلم الأولى، فتحثهم قبل كل شيء على القيام بالشعائر الدينية التي من أجلها أنشىء مثل هذه المدارس، ثم تهيء للمتفوقين منهم سبل السفر إلى الخارج واستكمال تحصيل العلوم المختلفة[٥١].

ويتوافق هذا النشاط العلمي الذي كان مرجعه الجوامع والكتاتيب مع ظاهرة انتشار المكاتب التعليمية في أحياء عدة من المدينة يشرف عليها أساتذة من ذوي الاختصاص، وهذه المكاتب نصف رسمية إذ للدولة العثمانية حق الرقابة عليها من ناحية المناهج، أما شهاداتها فمقبولة في وظائف الدولة وفي دخول المدارس السلطانية[٥٢].

ويمكن إيراد أسماء بعض هذه المكاتب:

□ **مكتب محلة النوري** ومديره الشيخ عمر أفندي وعدد طلابه خمسون طالباً.

□ **مكتب الحدادين** ومديره الشيخ محمد أفندي وعدد طلابه ستون طالباً.

□ **مكتب محلة الطرطوسي** ومديره الشيخ عبدالقادر أفندي وعدد طلابه ستون طالباً.

□ **مكتب العطار** ومديره الشيخ مصطفى أفندي وعدد طلابه ثمانية وأربعون طالباً.

□ **مكتب باب التبانة** ومديره الشيخ علي أفندي وعدد طلابه ستون طالباً.

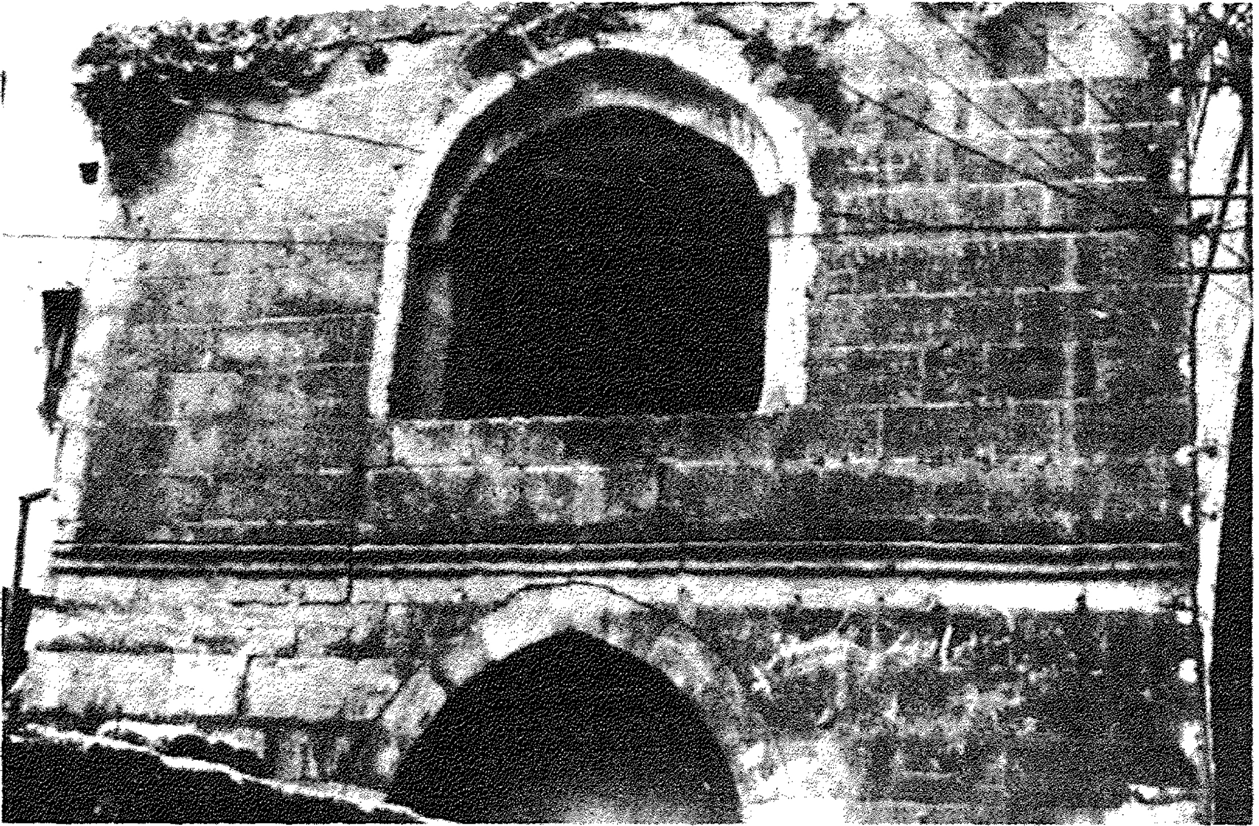
□ **مدرسة الأناث** وعدد طلابها سبعون طالباً[٥٣].

أما المواد التي كانت تدرس في تلك المكاتب فهي اللغة العربية والتركية والحساب وحفظ القرآن والاجتماعيات[٥٤].

وعلى هذا بدت طرابلس بمدارسها التي ارتفعت في العام ١٣١٢هـ إلى ثلاث وعشرين مدرسة بلد العلم والعلماء وان السلطان العثماني عبدالحميد الثاني كان معجباً أشد الاعجاب بهذه المدينة الاسلامية التي رفعت الاسلام عاليا بما تركه علماؤها من كتب ومصنفات قيمة[٥٥].

الارساليات الأجنبية وأثرها في الحياة الثقافية الاسلامية

إلى جانب هذه المدارس والمكاتب والكتاتيب شهدت المدينة توافد الارساليات الأجنبية من كاثوليكية وبروتستانتية وأرثوذكسية. ففي العام ١٨٦٣ حضرت إلى طرابلس الدفعة الأولى لراهبات المحبة[٥٦]. وبعد ثلاث وعشرين سنة في سنة ١٨٨٦ ألقى اخوة المدارس المسيحية عصا الترحال في طرابلس فاستأجروا دير الآباء الكبوشيين[٥٧]. وإلى جانب الرهبنات الكاثوليكية برز على الساحة الطرابلسية المرسلون الأميركيون البروتسنانت. وقد ورد في كتاب «Fifty Three Years in Syria» أن أبا سليم وهو معلم للعربية في ميناء طرابلس لقن القس كلهون العربية ١٨٤١[٥٨]. وبعد ذلك بخمس عشرة سنة استأجر المرسلون بيتا مؤلفا من غرفتين في الطبقة السفلى وأخريين من الطبقة العليا. وفي العام ١٨٧٦م تم بناء مدرسة الأناث في حي النوري. وكانت البعثة الروسية آخر الوافدين إذ أنهم حلوا في سوريا ولبنان وفلسطين في العقد الثامن من القرن التاسع عشر ونالت طرابلس نصيبها منهم بأربع مدارس توزعت بين البلدة والميناء إثنتين للذكور وأخريين للاناث[٥٩]. وقد أشرفت على هذه المدارس الروسية جميعا الجمعية الامبراطورية الأرثوذكية الفلسطينية[٦٠]



□ المدرسة الظاهرية.

وقد ساهمت في نشر اللغة الروسية إلى جانب المواد العلمية الأخرى.

أما عن مجيىء اللعازاريين، فتشير سجلاتهم إلى أنه ما إن ألغيت الرهبنة اليسوعية حتى صدرت الأوامر للآباء اللعازاريين ليحلوا محلهم في الشرق ومن عجب ألا يعمل الآباء اللعازاريون على إنشاء مدرسة إلى جانب الرهبنات اللاتينية الأخرى في هذا المحيط الطرابلسي، وإنما تركزت أعمالهم على خدمة بعض الأوروبيين المجاورين للكنيسة، ونفر قليل من المسيحيين المحليين. والواقع أن هذه الارساليات لم تباشر عملها التعليمي بشكل رسمي إلا في منتصف القرن التاسع عشر وهو التاريخ الذي يمثل المرحلة الثانية من الحياة الثقافية الطرابلسية في ذلك الوقت، إذ اقتصرت أعمال تلك البعثات في بداية القرن على الشأن التبشيري بين نصارى البلدة والاهتمام الروحي بالمقيمين الأجانب من الرعايا اللاتين. وكانت حصيلة أعمال هؤلاء المرسلين عبر مؤسساتهم التعليمية نشر اللغات العربية والفرنسية والانجليزية والايطالية والروسية بين نفر غير قليل من أبناء الفيحاء واطلاعهم على ما في الغرب من حركات علمية وأدبية وفكرية وسياسية تأثر بها المتخرجون أشد التأثر.

أما عن تأثير الارساليات الأجنبية في الحياة الثقافية الاسلامية في طرابلس وما مدى تأثر الخريجين بالروافد العلمية والثقافية والفكرية والسياسية الغربية فنود أن نشير إلى أن تأثير هذه الارساليات على مسلمي طرابلس أبان تلك الفترة غير ذي بال، فالمدارس الأجنبية كانت تؤسس بوجه خاص في القرى المسيحية والمدن التي يكثر فيها المسيحيون، فكانت تجذب وتجمع أطفال غير المسلمين بطبيعة الحال[٦١]. ثم إن العرب المسلمين لم يؤسسوا مدارس خاصة بهم، بل ظلوا يرسلون أولادهم إلى المدارس الحكومية إذا أرادوا تعليمهم ولغة التعليم في المدارس الحكومية كانت اللغة التركية. وان هذه الحالة استمرت بعد انتهاء عهد التنظيمات وبدء عهد الدستور أيضاً[٦٢]. ثم إن الذي يراجع أسماء المتخرجين من مدرسة فرير طرابلس ابتداء من سنة ١٨٨٦ حتى عام ١٩١٤، لا يجد بينهما

الا اسم عارف الرفاعي كطرابلسي مسلم، وأما الباقون فمسيحيون من عائلات زريق، كتسفليس، خولي، مبيض، بندلي، ملكي، نوفل، أضف إلى ذلك موقف السلطات الرسمية العثمانية من هذه المدارس وما كانت تثيره من العدائية في المسلمين الطرابلسيين ضد الأجانب، وهذا ما أشارت إليه سجلات الاخوة المسيحية الفرير من أن متصرف طرابلس عارف بك كان ذا موقف يتسم بمجافاة المدارس الأوروبية مما حمل أهل المدينة المسلمين على النفرة والحذر من كل ما هو أجنبي، ثم ان الامتيازات الأجنبية التي تمتع بها المرسلون الغربيون كانت تمنحهم حق إنشاء المدارس وبناء المستشفيات والمياتم والمعابد، ولكنها لم تكن تمنحهم حق جر الأطفال المسلمين إلى مدارسهم، كما جاءت امتيازات إنشاء المدارس بدعوى الاهتمام بالرعايا الأجانب والمسيحين، لذلك اعتبر أي اختراق في فئات المسلمين تجاوزا في العرف العام وهذا أمر كان يجابه بسلبية ومقاطعة أبقتا مسلمي طرابلس محافظين لهم ريبه بكل غريب وجديد[٦٣].

النساخة في طرابلس

لقد انعدم وجود أي أثر للمطابع في طرابلس طيلة النصف الأول من القرن التاسع عشر، وهذا ما يفسر ندرة وجود الكتب المطبوعة في المدينة آنذاك ورواج نساخة الكتب على أيدي أبناء المدينة الذين برز منهم العديد من النساخ ممن مارسوا هذه المهنة، فكان منهم العلماء والأدباء الذين نسخوا كتبا بخطوطهم.

ومما يدل على نشاط هذه الظاهرة الثقافية والعلمية إقبال الناس على تعلم الخط إذ كان يمثل جزء من ثقافة المدينة وبه الشهرة التامة، وما أكثر ما نقع في تراجم أعلام العصر على مثل هذه العبارة «كان صحيح الانشاء، نسخ كتبا بخطه، المشهور ببراعته في اللغة العربية وبخطه البديع»[٦٤].

فعائلة كرامه الطرابلسية أنجبت العديد من النساخ الذين توارثوا هذه المهنة فها هو مصطفى الشهير بابن كرامه ينسخ مخطوطة «الدرر المستحسنة في شرح منظومة ابن الشحنة»، أما عبدالحميد بن عبدالله كرامه فقد نسخ «حواشي على شرح الأزهرية»، وكذلك فعل محمد بن عبدالحميد كرامه الذي نسخ مخطوطة في «علم المنطق» في حين نسخ عبدالله بن عبداللطيف كرامه مخطوطة «التنوير في إسقاط التدبير»[٦٥].

ولم تكن هذه الظاهرة الثقافية محصورة في أسرة آل كرامه وإنما نرى رواجها عند سائر الأسر الطرابلسية. فالناسخ عبداللطيف ابن إبراهيم الملقب بسلطان نسخ العديد من المخطوطات لعل أبرزها مخطوطة دينية مؤلفة من «مئة مقالة» ومخطوطة «خلاصة القول المرعي في بيان الصاع والمد والمثقال والدرهم الشرعي» ومخطوطة دينية «مجلس في ختم البخاري على مؤلفه رحمة الباري»[٦٦].

كما ان انتشار النساخة في مدينة طرابلس. أصاب العلماء الذين كانوا ينسخون بعض مؤلفاتهم، كما فعل الحاج حسين منقارة الطرابلسي في نسخ مخطوطة «الشعري»[٦٧] والشيخ محمد كامل بن محمد في مخطوطة «مسائل حسان في رسالة موقد الأذهان»[٦٨].

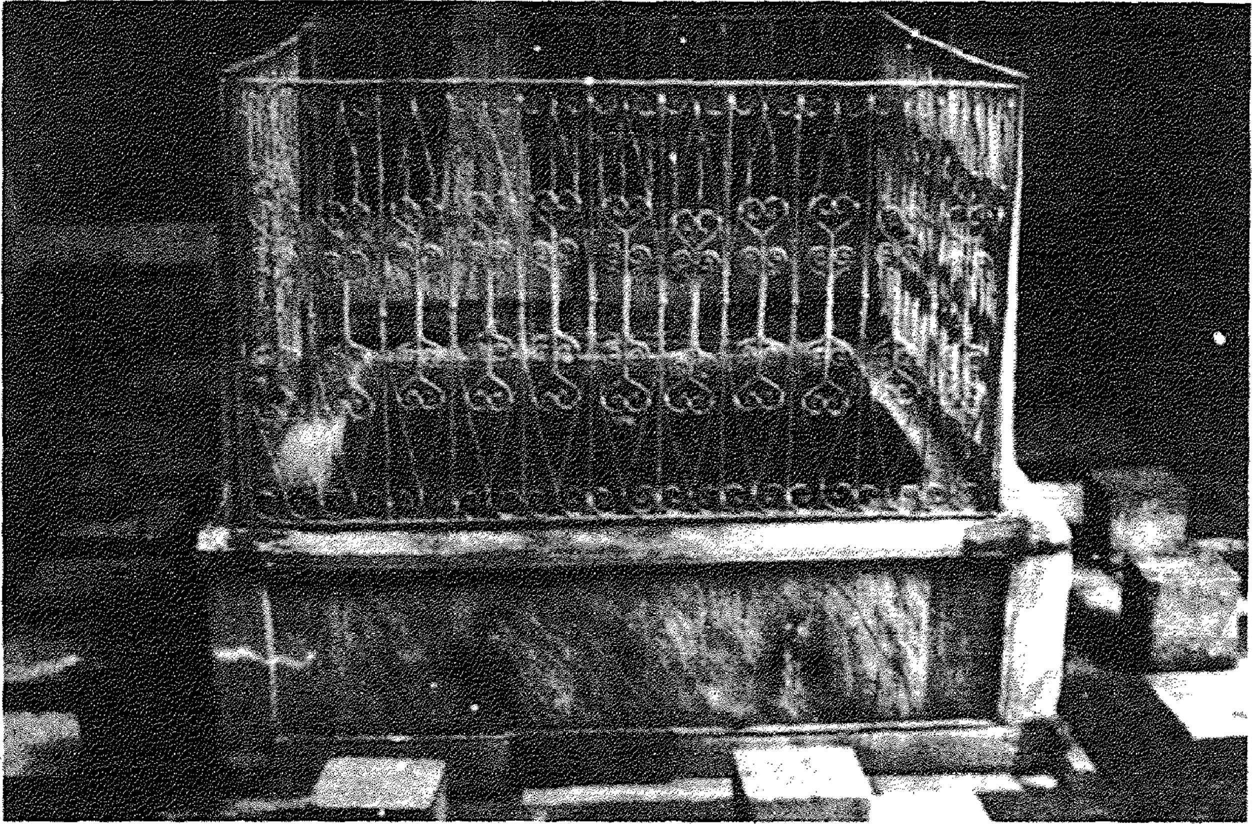
وفيما قام به عبدالقادر توفيق الشلبي المدرس الحنفي الطرابلسي في نساخة بعض الفتاوى[٦٩]. وكذلك فيما نسخه الشيخ عبدالرحمن الصوفي في مخطوطة «رسالة في بيان حقيقة الاسلام والأعيان وفيما لا بد من معرفته لكل إنسان»[٧٠].

وفيما نسخه أيضا الشيخ محمد المؤذن الطرابلسي في مخطوطة «نظم متن النقابه لناظمه ذي الدراية»[٧١] ومخطوطة «البرقة الدهشية في الخرقة الصوفية»[٧٢] للشيخ محمد القاوقجي.

إن وجود وتوافر هذا العدد من النساخ من أبناء الفيحاء يفسر ظاهرة إنتشار الكتب والمخطوطات ويبيّن أهمية النساخة كاحدى الروافد العلمية المهمة في الحياة الثقافية للمدينة خلال القرن التاسع عشر.

الكتب والمكتبات

يمكن القول أن طرابلس عرفت بعض المكتبات الخاصة التي أدت خدمات جلى لأبناء المدينة في وقت قلت فيه روافد الارتواء من المعرفة والثقافة،



□ بركة الوضوء في مدرسة الدُبَّها.

إلا في مسار ضيق لقلة من أبنائها الذين توفرت لهم سبل التزود من هـذه الكتب بحيث أنها أصبحت سبيلهم الوحيد للوقوف على ما أنتجته قرائح الأقدمين في علوم التاريخ والأدب والدين واللغة. صحيح أن طرابلس لم تعرف في القرن التاسع عشر تلك المكتبات العامة التي ترعاها الدولة وتنشطها، إلا أنهـا وفي فترات تاريخية سابقة شهدت رواج مكتباتها العامرة. ففي عصر الفاطميين وبني عمار عم المدينة ازدهار علمي لم تشهد نظيرا له في عصورها السابقة واللاحقة، وأصبحت بحق مركزا علميا جليلا يقصده طلاب المعرفة للدرس والتحصيل، فمكتبة بني عمار التي انشئت سنة ١٠٧٩م وعرفت بدار العلم كانت تضم من الكتب ما يتجاوز المائة ألف مجلد[٧٣].

وبقيت طرابلس تحتفظ بشهرتها العلمية في ظل الاحتلال الصليبـي وغدت مركزا علميا متقدما يفد إليه طلاب العلم من أوروبة لأخذه عـلى علمائها المسلمين والنصارى البلديين[٧٤].

ولقد ظلت المدينة أمينة لهذه الشهرة العلمية بفضل وجود نفر من أبنائها العلماء والأدباء حتى غدت بالفعل مدينة العلم والعلماء، ولولا هذه القلة من أبنائها التي كانت تنير من حين إلى حين زوايا المساجد والمدارس والبيوت والكتاتيب، لكان انقـطع من شريـط تاريخهـا العلمي والفكري ما اتصل طرفه ببني عمار ومكتبتهم الشهيرة وطرفه الآخر بالدور الرائد الذي قام به علماؤها في مطالع القرن التاسع عشر من عائلات الجسر ورضا ونوفل ويني والرافعي والمغربـي وصدقة وصـادق وكرامـه وغيرهم من أعـلام نهضتها الحديثة.

وأهم المكتبات الخاصة:

□ **مكتبـة الجامـع المنصوري الكبـير** التي تحتوي على عـدد كبير من المؤلفات الدينيـة والتفاسير وكتب اللغة والفقه[٧٥].

□ **مكتبـة الشيخ عبـدالفتـاح الزعبـي**[٧٦] وتحتوي على الكثير من التفاسير وكتب الحديث والكتب الدينية.

□ **مكتبة جورجي يني**[٧٧] وتقدر محتوياتها بخمسة آلاف مطبوعة موزعة ما بين المجـلات والآثار الشرقية والكتب ودوائر المعارف والمعاجم والمخطوطات، أما أهم محتوياتها فهي:

□ **المجلات**: المباحث، المقتطف، الهلال، الطبيب، الضياء، الآثار الشرقية، الجامعة، الجنان، الجوائب، حمص، الحوادث، المورد الصافي، لغة العرب.

□ **الكتب**: نفح الطيب، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، كتاب البلدان، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مروج الذهب، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، تاريخ الرسل والملوك، ذيل تاريخ دمشق، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تاريخ القسطنطينية، الفهرست.

□ **المخطوطات**: تاريخ سوريا ثلاثون مجلداً، تاريخ أشور، تاريخ بابل، تاريخ فارس، معجم الأساطير، تاريخ الماسونية[٧٨].

□ **مكتبة حكمت شريف**: التي تضم العديد من الكتب وبعض مؤلفاته المطبوعة وغير المطبوعة فمن الكتب المطبوعة كتاب قصارى الهمم مختصر شرح لأمية العجم، سياحة في التيبت ومجاهل آسيا ــ تاريخ سيام ــ النفح الوردي في شرح لأمية ابن الوردي.

ومن المخطوطات تجاريب الحياة، آمال وآلام، شيء جديد من أحاديث الحياة، نظرات من نافذة الـ ٥٠ من العمر، حكم شريفة، قاموس الأمثال، الخلافة الاسلامية، قاموس القرآن، الدولة العثمانية، تاريخ فرنسا، تاريخ الأصنام عند العرب قبل الاسلام، اشتقاق في الألفاظ، غادة الفيحاء، تاريخ سوريا ولبنان، تاريخ الاعلام الواردة في تاريخ طرابلس، تاريخ الأديان وهو ٣٢ جزء، سجعات، سياحات في عالم الخيال[٧٩].

□ **مكتبة آل كرامه**: وقد تأسست في أوائل القرن التاسع عشر، وهي تحتوي على ألف كتاب مخطوط ومجلد في شتى صروف الأدب والدين واللغة والتاريخ.

فمن المخطوطات: كشف السر الغامض في شرح ديوان ابن الفارض، روضة الأنوار في فصل التعمير والازكار، روضة المشتقا في بهجة العشاق، القواعد الدينية، علم المنطق، شرح الأجرومية في علم العربية، شرح صحيح البخاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، فتح القريب، شرح ملتقى درّ المنتقى، السيوف الحداد في أعناق الزندقة والألحاد، مقامات الحريري، الفتاوى العمادية في مذهب الحنفية، ملتقى الأبحر، حواشي على شرح الأزهرية في علم النحو، تحفة الأخيار على الدر المختار، منظومة النفي، مختصر علم اللغة، الرائق في شرح كنز الدقايق، صرة الفتاوى، الكواكب الدرارى في شرح صحيح البخاري.

ومن الكتب المطبوعة: حياة الحيوان الكبرى، تاريخ ابن خلدون، ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، شرح البحر الرائق كنز الدقائق، رد المختار على الدر المختار، وفيات الأعيان في شرح منظومة أبناء الزمان، السيرة الحلبية، تاريخ عاصم[٨٠].

□ **مكتبة الشيخ خليل صادق**: وهي تحوي على أكثر من ألف وخمس مابة كتاب ومخطوط ومجلد في مختلف العلوم الأدبية والدينية والتاريخية واللغوية.

فمن الكتب المطبوعة: سمير الليالي، الدرر المنيعة في مختصر شرح البراءة الشريفة، التحفة الوطنية في المنحة البلدية، إحياء القلوب، التحفة السنية في تاريخ القسطنطينية، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، حقوق المرأة المسلمة، رسالة في المذاهب الأربعة.

المخطوطات: التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية، البرقة الدهشية في الخرقة الطرابلسية، أسماء الظروف في أسماء الحروف، الخط المقصور في اللفظ المقصور، الكلم الحسان في علم الانسان، معترك الألحاظ في مشترك الألفاظ، رسالة في علم العروض والقوافي، خلاصة القول المرعي في بيان الصاع والمد والمثقال والدرهم الشرعي، بيان حقيقة الاسلام والأعيان وفيما لا بد من معرفته لكل إنسان، نظم متن النقاية لناظمه ذي الدراية[٨١].

□ **مكتبة أبرشية الروم الكاثوليك**: وقد تضمنت مئات الكتب العربية والفرنسية ولكن جلّها يدور على الدين المسيحي والدراسات اللاهوتية وهي تزيد على سبعمئة كتاب. وأهم محتوياتها:

□ **المجلات**:

ــ مجلة المسرة منذ تأسيسها في العام ١٩١٠م.

ــ مجلة المشرق منذ سنتها الأولى ١٨٩٨م.

— مجلة الجنات للسنوات ١٨٧٠ ـــ ١٨٧١ و ١٨٧٢م.

□ **الكتـب**:

— Histoire générale de l'église 20 Vol.

— La vie de jesus christ 5 Vol.

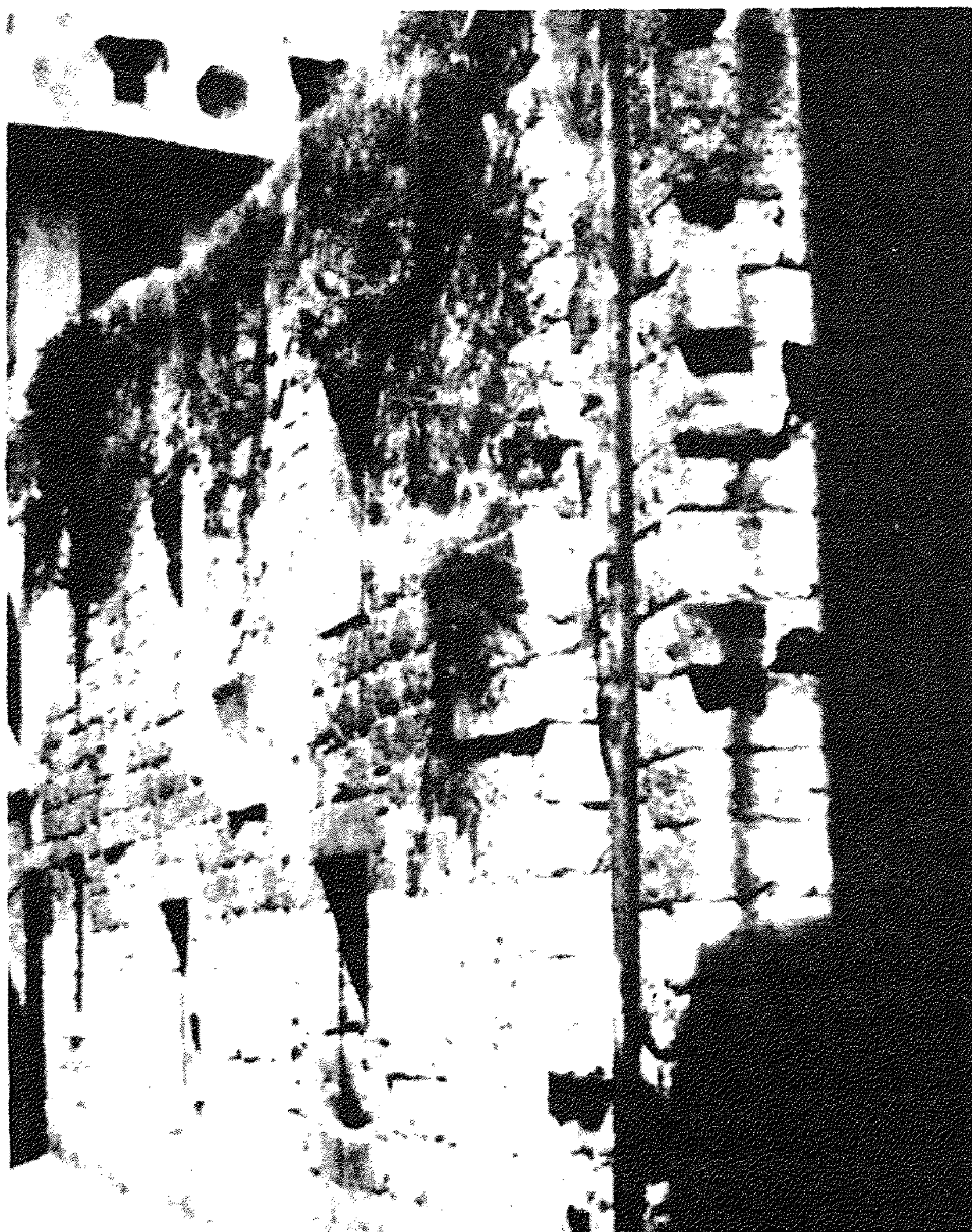
— مختصر تاريخ طائفة الروم الكاثوليك[٨٢].

الطباعة في طرابلس

ساعد تأسيس أول مطبعة عام ١٨٨٩ في مدينة طرابلس بتنشيط مظاهر الحياة الثقافية في المدينة، إذ أقبل علماء الفيحاء على طباعة بعض مؤلفاتهم في مطبعة البلاغة الطرابلسية التي أسسها محمد كامل البحيري[٨٣]... والمستعدة لطبع الكتب من أي نوع كان وبأي لغة من اللغات المتداولة حسب الامكان[٨٤].

فمن الكتب التي طبعت فيها:

□ إشارة الطاعة في صلاة الجماعة، للشيخ حسين الجسر.

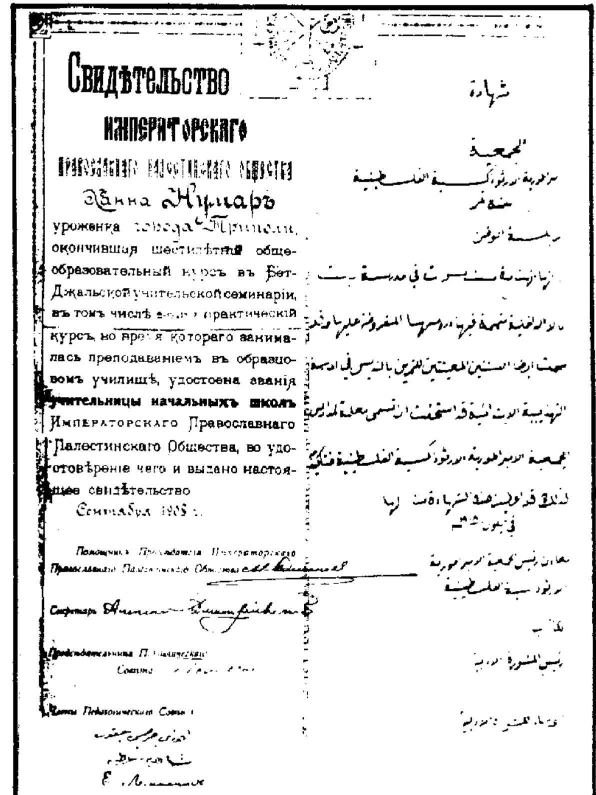


□ **الواجهة الغربية من المدرسة الرجبية.**

□ الصور من كتاب: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري للدكتور عمر تدمري.

□ البدر التمام في مولد خير الأنام، للشيخ حسين الجسر.
□ تحفة المحبين ومنحة المسترشدين، لأبي المحاسن القاوقجي.
□ سمير الليالي، لمحمد أمين صوفي السكري.
□ ورد الأسرار في ورد الأسحار، للشيخ خليل صادق.
□ الجليل في مناجاة الخليل، الشيخ خليل صادق.
□ تاريخ سيام، لحكمت شريف[٨٥].

وجملة القول ان هذه الروافد العلمية سهلت لأعلام الفيحاء فرصة التعبير عن مختلف النشاطات العلمية التي قاموا بها، مما وفر للمدينة مناخاً ثقافياً رحباً أعاد للمدينة بريقها العلمي الذي عرفته أيام بني عمار وجعل منها في آن واحد داراً للعلم ومدينة للعلماء.


Свидѣтельство
Императорскаго
Православнаго Палестинскаго Общества
Ханна Нимаръ
уроженка города Триполи, окончившая шестилѣтний общеобразовательный курсъ въ Бет-Джальской учительской семинаріи, въ томъ числѣ и практическій курсъ, во время котораго занималась преподаваніемъ въ образцовомъ училищѣ, удостоена званія учительницы начальныхъ школъ Императорскаго Православнаго Палестинскаго Общества, во удостовѣреніе чего и выдано настоящее свидѣтельство
Сентября 1905 г.
Помощникъ Предсѣдателя Императорскаго Православнаго Палестинскаго Общества
Секретарь

شهادة

هوامش البحث

(١) (الشيخ حسين الجسر ١٢٦١/١٨٤٥ ــ ١٣٢٧/١٩٠٩) عبدالله نوفل: تراجم علماء طرابلس، ص ١٦٧.
(٢) (محمد رشيد رضا ١٢٨٢/١٨٦٥ ــ ١٣٥٤/١٩٣٥) صاحب المنار، خيرالدين الزركلي: الأعلام، ج ٦ ص ٣٦١.
(٣) (فرح أنطون ١٢٩٠/١٨٧٤ ــ ١٣٤٢/١٩٢٤) نوفل: المصدر السابق، ص ٢٢٧.
(٤) (نوفل نوفل ١٢٢٥/١٨١١ ــ ١٣٠٤/١٨٨٧) نوفل: المصدر نفسه، ص ٧٥.
(٥) (محمود نشابه ... ١٣٠٨/١٨٩٠) نوفل: المصدر نفسه، ص ٩٤.
(٦) شيد هذا الجامع سنة ٦٩٣/١٢٩٤ في عهد السلطان محمد بن قلاوون؛ عمر تدمري: تاريخ وآثار ومساجد طرابلس في عهد المماليك، ص ٥٧.
(٧) انيس الأبيض: الحياة العلمية ومراكز العلم في طرابلس خلال القرن التاسع عشر، رسالة دكتوراه، اختصاص في التاريخ الحديث غير منشورة، جامعة القديس يوسف، بيروت، ص ٤.
(٨) ينسب بناؤها إلى الأمير سيف الدين قرطائي، السيد عبدالعزيز سالم. طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي، ص ٤١٨.
(٩) بنيت في عهد حسن بن محمد بن قلاوون أثناء فترة حكمه الثانية. عمر تدمري: المرجع السابق، ص ٢٧٣ ــ ٢٧٤.
(١٠) يرجع تاريخ بناءها إلى أوائل القرن الثامن الهجري. السيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق، ص ٤٢٤.
(١١) مؤسسها سيف الدين الطويشي. عمر تدمري: المرجع السابق، ص ٤٣٣.
(١٢) بنيت سنة ٨٧٠/١٤٦٥. عمر تدمري: المرجع السابق، ص ٣٢١.
(١٣) بنيت سنة ٦٩٧/١٢٨٨. السيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق، ص ٤٢٩.
(١٤) أنيس الأبيض: المرجع السابق، ص ٤.
(١٥) رشيد رضا: المنار والأزهر، ص ١٤١.
(١٦) انيس الأبيض: المرجع السابق، ص ٤.
(١٧) رشيد رضا: المنار والأزهر، ص ١٣٩.
(١٨) (الشيخ سامي صادق ١٣٠٤/١٨٨٦ ــ ١٣٧٩/١٩٦٠) صاحب جريدة الوجدان التي كانت تصدر في طرابلس. فيليب دي طرزي: تاريخ الصحافة العربية، ص ٢٤.
(١٩) منشئها شمس الدين المولوي ٧٤٩/١٣٤٩. السيد عبدالعزيز سالم: المرجع السابق، ص ٤١٩.
(٢٠) انيس الأبيض: المرجع السابق، ص ٥ ــ ٦.
(٢١) راجع سجل المحكمة الشرعية لمدينة طرابلس ١٢٢٥/١٨١٠، حيث وردت فيه حجة تعليم للشيخ عبدالقادر المغربي.
(٢٢) انيس الأبيض: المرجع السابق، ص ٦.
(٢٣) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ٦.

(٢٤) رشيد رضا: المصدر السابق، ص ١٤١.
(٢٥) رشيد رضا: المصدر نفسه، ص ١٤٢.
(٢٦) (الشيخ عبدالغني الرافعي ١٢٣٦/ ١٨٢٠/...) من كتبه: ترصيع الجواهر المكية. عبدالله نوفل: المصدر السابق، ص ٨٣.
(٢٧) رشيد رضا: المصدر السابق، ص ١٤٢.
(٢٨) (١٢٢٤/١٨٠٩ ـ ١٣٠٥/١٨٨٧) من كتبه: الذهب الأبريز على المعجم الوجيز. عبدالله نوفل: المصدر السابق، ص ٥٨.
(٢٩) (نفحة البشام في رحلة الشام، مطبعة جريدة الاسلام، مصر، ١٣١٩/١٩٠١.
(٣٠) (الشيخ محمد عبدالجواد القاياني المصري: نفحة البشام في رحلة الشام)، ص ٥٨.
(٣١) (الشيخ عبدالقادر الرافعي ١٢٤٨/١٨٣٢ ـ ١٣٢٣/١٩٠٥) عبدالله نوفل: المصدر السابق، ص ٨٨.
(٣٢) (الشيخ علي الميقاتي ١٢٥٠/١٨٣٤/...) عبدالله نوفل: المصدر نفسه، ص ١٥٦.
(٣٣) (الشيخ نجيب الزعبي الجيلاني .../...) عبدالله نوفل: المصدر نفسه، ص ٦٦ ـ ٦٧.
(٣٤) انيس الأبيض: المرجع السابق، ص ٨.
(٣٥) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ٨.
(٣٦) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ٩.
(٣٧) تم بناء الجامع سنة ٧٥١/ ١٢٥٠ سميح وجيه الزين: تاريخ طرابلس قديما وحديثا، ص ٤٢٢، راجع سجل المحكمة الشرعية لطرابلس ١٣٠٦/١٨٨٨.
(٣٨) الشيخ محمود منقارة (.../...) من أعلام طرابلس عبدالله نوفل: المصدر السابق. ص ٩٥ ـ ٩٦.
(٣٩) سجل المحكمة الشرعية لمدينة طرابلس، ١٣٠٦/١٨٨٨.
(٤٠) سجل المحكمة الشرعية لمدينة طرابلس ١٣٠٤/١٨٨٦.
(٤١) (الشيخ عبدالمجيد المغربي ١٢٨٢/١٨٦٦ ـ ١٣٥٢/١٩٣٤) من علماء طرابلس المشهورين، سميح الزين: المرجع السابق، ص ٥٦٦.
(٤٢) سجل المحكمة الشرعية طرابلس ١٣١٧/١٨٩٩.
(٤٣) (١٢٧٦/١٨٦٠ ـ ١٣٦١/١٩٤٣) من اشهر علماء طرابلس، سميح الزين: المرجع السابق، ص ٤٨١ ـ ٤٨٢.
(٤٤) صبحي الصالح: نثر اللآلي في ترجمة أبي المعالي الشيخ عبدالكريم عويضة، ص ١٢.
(٤٥) (الشيخ عبدالكريم عويضة ١٢٨٢/١٨٦٥ ـ ١٣٧٥/١٩٥٥) سميح الزين: المرجع السابق، ص ٥٢٢.
(٤٦) صبحي الصالح: المرجع السابق، ص ٧٥.
(٤٧) (نقولا نوفل ١٢٣١/١٨١٧ ـ ١٣١٢/١٨٩٥) عبدالله نوفل: المصدر السابق، ص ٩١ ـ ٩٢.
(٤٨) عبدالله نوفل: المصدر السابق، ص ٩١ ـ ٩٢.
(٤٩) المقتطف ١٢٩٧/١٨٨١، عدد ٨، ص ٤٧٤.
(٥٠) انيس الأبيض: المرجع السابق، ص ١١.
(٥١) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ١١.
(٥٢) انيس الأبيض: الحياة العلمية ومراكز العلم في طرابلس منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر وحتى بداية الانتداب الفرنسي ـ رسالة ماجستير في التاريخ غير منشورة، الجامعة اللبنانية ـ بيروت ١٩٨٠، ص ١٦٨.
(٥٣) راجع سلنامة ولاية سوريا للأعوام ١٨٤٦ ـ ١٨٧٨ ـ ١٨٨٠م.
(٥٤) راجع سلنامة ولاية سوريا ١٨٨٠م.
(٥٥) راجع سلنامة ولاية بيروت ١٨٩٤م.
(٥٦) انيس الأبيض، المرجع السابق، ص ١٢.
(٥٧) انيس الأبيض، المرجع نفسه، ص ١٢.
(٥٨) Henry Harris jessup: Fifty three years in Syria Vol: 2-p. 113.
(٥٩) انيس الأبيض: المرجع السابق، ص ١٢.
(٦٠) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ١٢.
(٦١) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ١٤.
(٦٢) ساطع الحصري: البلاد العربية والدولة العثمانية، ص ٨٣.
(٦٣) انيس الأبيض: المرجع السابق، ص ١٥.
(٦٤) عبدالله نوفل: تراجم علماء طرابلس، ص ٥٢.
(٦٥) انيس الأبيض: المرجع السابق، ص ١٧.
(٦٦) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ١٧.
(٦٧) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ١٨.
(٦٨) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ١٨.
(٦٩) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ١٨.
(٧٠) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ١٨.
(٧١) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ١٩.
(٧٢) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ١٩.
(٧٣) السيد عبدالعزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي، ص ٣٨٥ ـ ٣٨٦.
(٧٤) جواد بولس: تاريخ لبنان، ص ٢٨٣.
(٧٥) انيس الأبيض: المرجع السابق، ص ٢١.
(٧٦) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ٢١.
(٧٧) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ٢١.
(٧٨) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ٢٢.
(٧٩) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ٢٢.
(٨٠) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ٢٣.
(٨١) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ٢٤.
(٨٢) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ٢٥.
(٨٣) (محمد كامل البحيري.../١٣٣٥/١٩١٧) اصدر جريدة طرابلس الشام ١٣١١/١٨٩٣، وكان عضو مجلس العموم لولاية بيروت، يوسف أسعد داغر، قاموس الصحافة اللبنانية، ص ٣٨٩.
(٨٤) انيس الأبيض: المرجع السابق، ص ٢٧.
(٨٥) انيس الأبيض: المرجع نفسه، ص ٢٧.

مُوجَز تَاريخ

عرقا

د. فاروق حبلص



هناك، عند أقدام التل، وسط سهل عكار الفسيح، تربض قرية عرقا، قابعة منزوية، وكأني بها تتوارى متخفية عن أعين الزمان. نعم انها تتوارى وتتوارى خجلاً وإستحياء، فهي تخشى أن يسألها المستقبل عن ماضيها، يوم كانت تغشى الوغى، وتتحدى الغزاة، لتخطّ صفحات مشرقة بالمنجزات الحضارية. ولكن أين هي اليوم من ذاك الماضي؟ إن هي إلا ذكرى، طواها الدهر بغدره، وكاد النسيان يطمسها لولا أن حفظها التاريخ. فالحفريات الأثرية والنقوشات القديمة تروي لعرقة اليوم ملاحم تاريخها الغابر، علها تنتفض من كبوتها وتنهض من سباتها، فتنفض الغبار عن وجهها، لتعود إلى سابق ازدهارها وتستعيد مكانها في مواكبة التطور الحضاري.

— I —

تحقيق اسم عرقا

اختلف المؤرخون في أصل وتفسير كلمة عرقا، فردوها إلى أصول عربية أو سريانية أو فينيقية.

فقد ذكرها ابن الأثير على شكلين: تارة عِرْقَةَ[١]، وتارة أخرى عَرْقَةَ[٢]. كما ذكرها الواقدي على شكل عرقا[٣]. أما ياقوت الحموي فقد كتبها عِرقة، وقال انها مؤنث عَرْقُوَة، وانَّ معناها أكمة قليلة الارتفاع تشرف على ما حولها[٤]. ويشير هذا التفسير إلى أن تسمية عرقا عربية الأصل؛ وقد يركن له القارىء خاصة وان القرية المذكورة تقع على تلة قليلة الارتفاع.

ويخالف الكونت فيليب دي طرازي هؤلاء في الرأي، فهو يرى أن عرقا مدينة عريقة في القدم، وأن تسميتها سريانية، تعني شجر الساج الذي كان يكثر في غاباتها[٥]. ويشاطره الرأي الرحالة الانكليزي (Bruce Condé)[٦]. ويتقارب رأي الأستاذ أنيس فريحة مع هذا التفسير: فهو يذكر أنَّ اسم عرقا ورد في الكتابات الآشورية (ar-qa)، والمصرية (ar-qa-tu)، وفي رسائل تل العمارنة (Ir-qa-ta) ذقا (arqé)، وان هذه التسميات تعني أخشابا وجسورا تستخدم في البناء. ثم يتابع قائلا أن العَرَقَة تعني في اللهجة العامية اللبنانية جذعا أو خشبة غليظة توضع فوق الباب أو النافذة. ويخلص بعد ذلك إلى الاستنتاج أن هذه المدينة نشأت منذ القدم كمركز لتصريف الأخشاب والجسور[٧]. وقد يبدو هذا التفسير معقولا إذا أخذنا بعين الاعتبار أن بلاد عكار كانت مكسوة بالغابات من أعلى قممها حتى سواحل البحر المتوسط[٨].

وقد خالف إدوارد روبنصون هذين الرأيين وقال ان عرقا مدينة فينيقية عريقة في القدم، وانها كانت موطن العرقيين المذكورين في أقدم تواريخ بني كنعان[٩].

أما الكتابات القديمة، فقد أتت على ذكر اسم عرقا بشكل أدق وأوضح. فقد وردت في كتابات قصر الكرنك على صورة (Irqata-arca)؛ كما ورد في تواريخ مرور شلمانصر الثالث الامبراطور الآشوري أن أهل عرقا كانوا يعرفون بـ الـ (Arkites)[١٠]، مما يرجح احتمال أن تكون هذه التسمية قد أطلقت على المدينة نسبة إلى سكانها الأوائل العرقيين. بيد أن كلمة (Arkites) هي عينها لفظة العرقيين الذين ورد ذكرهم في التوراة على أنهم من أبناء كنعان[١١]. نستخلص مما تقدم أن عرقا مدينة قديمة وان تسميتها ليست عربية بدليل أنها عرفت بهذا الاسم قبل مجيء العرب إلى بلاد الشام، كما انها ليست سريانية، بل نرجح أنها كنعانية لأن المدينة كانت قائمة منذ عصور الكنعانيين، ويوم كانت لغتهم هي اللغة المحكية في بلاد الشام[١٢].

— II —

تاريخ عرقا

ما يزال تاريخ عرقا في العصور الحجرية مجهولاً تماما لندرة التنقيبات الأثرية فيها؛ وما توفر لدينا حتى الآن من مصادر وتنقيبات اثرية لا يمكننا من دراسة تاريخها في المراحل السابقة للألف الرابع قبل الميلاد. فقد ورد في الوثائق الهيروغلوفية أن الغابات كانت ما بين الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد، وتغطي المنطقة بأسرها، من قمم الجبال حتى الساحل، وتشكل مرتعا للأسود والحيوانات المفترسة، في حين كان سكانها يعملون في قطع الأخشاب والصيد[١٣].

بيد أن بزوغ الحضارات في مصر وبلاد ما بين النهرين انعكس على تطور الحياة البشرية في عرقا في الألف الثالث قبل الميلاد. فثرواتها الحرجية جعلتها محط أنظار ملوك بلاد ما بين النهرين وفراعنة مصر، فقدموا إلى سوريا لتأمين حاجاتهم من الأخشاب التي افتقروا إليها في مواطنهم الأصلية[١٤]. كما ان موقعها الاستراتيجي المتوسط بين مراكز أقدم حضارتين (مصر ــ وبلاد الرافدين) جعلها ميدان التفاعل الحضاري بينهما. فمنذ ذلك التاريخ بدأ ملوك هذه البلدان يأتون إلى عرقا تارة لقطع أخشابها وتارة لبسط نفوذهم وتأمين خطوط تجارتهم[١٥].. فظهر اسمها مع جاراتها حلبا وسميرا في رسائل تل العمارنة والوثائق الآشورية وأرشيف مدينة أوغاريت. وتحدث هذه الوثائق عن الدور التاريخي الذي لعبته عرقا على مسرح الأحداث والتطورات في الشرق الأدنى عامة. وقد ساعد الفينيقيون في تنشيط دور عرقا عندما انطلقوا باتجاه الداخل ليشقوا الطرق التجارية الأولى عبر

التلال والغابات[١٦] بين طرابلس ووادي العاصي[١٧] مروراً بعرقا وخربة عروبة ومرجحين[١٨] في الألف الثالث قبل الميلاد. وتشير نتائج الحفريات الأثرية في عرقا إلى النمو والبحبوحة، والرفاهية التي نعمت بها المدينة في العصرين البرونزيين الوسيط والحديث[١٩]. فقد كشفت عن مدافن وآثار هامة تعود إلى ذلك التاريخ، وتدل على مساهمة عرقا في بناء حضارة الشرق الأدنى القديمة[٢٠]. ثم لم يلبث أن خنق هذا الانتعاش في المهد؛ فقد شارك ملك عرقا مع جيرانه الفينيقيين في الجنوب، والميتانيين في الشمال، في تدبير مؤامرة ضد المصريين. فقام تحتموس الثالث (١٥٤٢ ــ ١٤٥٠ق.م) بشن حملة على سوريا بهدف خنق المؤامرة في مهدها. فاستولى على الساحل وعرقا، ثم تابع زحفه إلى قادش ليخضع ملكها[٢١]. ويرجح أن تحتموس الثالث مارس أعمال التخريب والتدمير التي دلت عليها الحفريات في عرقا. وتؤيد تواريخ قصر الكرنك هذا الرأي، فهي تذكر امتلاك وتخريب سميرا وعردانا القريبتين من تل عرقا وتأتي على ذكرها أيضاً. وكان من نتيجة ذلك أن خضعت عرقا للنفوذ المصري وتأثر الفن العرقي بالفنون المصرية أيضا. فالتأثير المصري يبدو واضحا في الفنون العرقية في تلك المرحلة، وبصورة خاصة في تماثيل النساء التي حاكت النمط المصري في نهاية الأسرة الثامنة عشر[٢٢].

وأثناء حكمه على مصر (١٣٦٧ ــ ١٣٥٠ق.م)، انشغل أخناتون بثورته، فتقلص النفوذ المصري عن سوريا، ودخلت عرقا في نفوذ الأموريين[٢٣] ثم لم تلبث أن خضعت للنفوذ الحثي عندما نجح شيبلوليوما في أن يحمل دول سوريا الشمالية على الانضمام تحت لوائه. وفي القرن الثالث عشر قبل الميلاد حاولت مصر، بقيادة رعمسيس الثاني، استعادة نفوذها على سوريا، فاصطدمت مع الحثيين بسلسلة من الحروب[٢٤]، حصل من جرائها تدمير وتخريب أجزاء من مدينة عرقا التي تقوقعت في رأس التل وأصبحت قرية صغيرة تعمل على تجديد بنائها واستعادة دورها الرائد في المنطقة. وبعد أربعة قرون متتالية من العزلة، تمكنت عرقا من استعادة نشاطها وعظمتها، فوقفت إلى جانب جاراتها الآراميين والفينيقيين في حروبهم ضد الآشوريين إبان القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد. فقد ورد في التواريخ الآشورية أن عرقا دفعت بعشرة آلاف مقاتل إلى معركة قرقر سنة ٨٥٣[٢٥]، وتمكنت مع حلفائها من الحاق الهزيمة بالملك الآشوري شلمانصر الثالث. إلا أن هذا الأخير كرر هجماته في الأعوام ٨٤٩ و ٨٤٨ و ٨٤٥ ق.م حتى تمكن من فرض سيادته على عرقا وسائر حلفاء دمشق[٢٦].

يعتبر العصر الآشوري رحلة تطور حضاري في عرقا، خاصة في صناعة الأدوات المعدنية. فقد كشفت الحفريات عن تقدم صناعة الحلقات البرونزية والسيوف والسكاكين والمطوات الحديدية والجرار الخزفية وغيرها من المصنوعات التي وجدت موضوعة إلى جانب الميت في إحدى المدافن التي تعود إلى القرن السابع قبل الميلاد[٢٧].

وقد استمرت عرقا تنعم بالهدوء والرخاء في ظل الحكم الفارسي (٥٥٦ ــ ٣٣٢ق.م) الذين أحسنوا معاملة السكان المحليين وتركوا لهم حرية المعتقدات وتسامحوا في الشؤون الدينية حتى اعتبروا محررين في نظر السكان[٢٨]. وتشير الآثار المنقولة من مصر إلى عرقا في تلك المرحلة إلى استمرار التبادل التجاري بين البلدين[٢٩].

وفي عام ٣٣٣ق.م غزا الاسكندر المقدوني سوريا والحقها بإمبراطوريته التي قسمت بعد وفاته بين أبنائه، وكانت سورية من نصيب السلوقيين (٣١٢ ــ ٦٤ق.م)[٣٠]. وقد اعتنى الاسكندر بمدينة عرقا، فأنشأ فيها هيكل الزهراء[٣١] حيث كان يحتفل سنويا بتكريمه. وقد ولد الامبراطور الكسندر سيفروس يوم عيد الاسكندر المقدوني، في هذا الهيكل وبهذه المناسبة سمي باسمه[٣٢]. وقد شهدت عرقا تطورا ملحوظا في العصر السلوقي وازدهرت فيها صناعات الفخار والمعادن، فكشفت الحفريات عن وجود جرار من الطين المالس تمتاز بتطاول أعناقها التي تحمل أختام تبين تواريخ صنعها ــ ٢٥٠ق.م ــ، ناهيك عن الزجاجيات المزخرفة التي تعود إلى نهاية القرن الثاني وبداية القرن الأول قبل الميلاد. كما تم أيضا اكتشاف موازين

للاقمشة مصنوعة من الحجر المشوي، ورؤوس حراب برونزية ترجع إلى التاريخ عينه[٣٣]، مما يدل على تطور وازدهار اقتصادي في ميادين الصناعة والتجارة وبصورة خاصة تجارة الأقمشة.

وبعد انهيار الامبراطورية السلوقية عام ٦٤ق.م، خلفتها روما في حكم سوريا، ويعتبر العصر الروماني بمثابة العصر الذهبي في المنطقة عامة[٣٤]. وقد اعتنى الرومان بعكار لغناها بالثروة الحرجية، كما نالت عرقا اهتمامهم فأطلقوا عليها اسم قيصارية لبنان. فبرز فيها رجالات عظام لعبوا أدوارا هامة في العاصمة روما حتى باتوا مقربين من القصر. وقد اقترن أحد أعيان عرقا من ابنة شقيق الامبراطور سبتيموس سويروس السيدة يولية ممية فأنجبت له غبسيوس العكاري، وأشرف على تربيته وتعليمه حتى نشأ أديبا يجيد اللغاة اليونانية واللاتينية، وأصبح مواطنا صالحا يحترم روما وتقاليدها. وبعدما اغتال الحرس الامبراطوري الامبراطور با (بسان)، نادى بغيسيوس العكاري امبراطورا على روما. فاعتلى العرش عام ٢٢٢ وعرف باسم الاسكندر[٣٥]. وفي عهده نعمت عرقا بالرخاء والعمران، فبنى فيها قصرا، وجر إليها المياه في قناة من الجبل على بعد خمسة عشر ميلا[٣٦]. كما استفادت أيضا من ازدهار حركة الترانزيت في ذلك العصر، عبر ممر عكار بسبب ازدهار التبادل التجاري بين الهند والصين من جهة وأوروبا من جهة ثانية، أضف إلى ذلك ما كان للقوانين التي حظّرت على الحرفيين هجر اعمالهم وفرضت على أولادهم خلافتهم في صناعاتهم، من أثر فعال في تنشيط اقتصاد مدينة عرقا[٣٧].

وبعد وفاة الامبراطور الروماني تيودوسيوس الأول ٣٩٥م، قسمت الامبراطورية إلى شرقية وغربية، عرفت الأولى بالامبراطورية البيزنطية، وكانت عرقا من نصيبها. وفي هذا العهد، في القرن الخامس الميلادي، تبنت عرقا الثقافة واللغة السريانية. وكان الحكم البيزنطي أقل ليبرالية، وزهداً من سابقه؛ فقد اعترى البيزنطيين الضعف وأحسوا نقمة الأهالي في سوريا عامة بسبب تجريدهم من السلاح وإبعادهم عن الخدمة العسكرية وزيادة الضرائب، فلجأوا إلى تدعيم قواهم في المدن تحسبا لغزوات محتملة قد يقوم بها قبائل الهون والفرس والعرب[٣٨]. وكان من نتيجة ذلك أن أقامت الدولة البيزنطية منشآت دفاعية هامة في مدينة عرقا نظرا لموقعها الاستراتيجي العسكري الهام، كحصن لحماية المنطقة الساحلية من هجمات قد تأتيها من الداخل[٣٩]. ويرجح أن بناء السور البيزنطي الذي اكتشفته الحفريات في مدينة عرقا دون أن تتمكن من تحديد تاريخه، قد تم في هذه المرحلة، إلا أن تردي الأوضاع في المنطقة، أدى إلى تقلص المدينة وتوقف امتدادها الأفقي، لتنحصر داخل السور خوفا من الغزوات الفارسية[٤٠].

أما من حيث المعتقدات فقد اعتنق أبناء عرقا الأديان السامية التي عرفتها سوريا وفينيقيا، كما قدسوا أيضا آلهة الرومان، فبنوا في مدينتهم معبدا للاله فنوس[٤١]. ثم بعد ظهور المسيحية، سارع أبناء عرقا إلى اعتناقها بأعداد غفيرة، وبسبب تزايد عدد المسيحيين فيها، بادرت البطريركية الانطاكية إلى جعلها ثانية الأسقفيات التابعة لمطرانية صور. وقد ظهر فيها أساقفة مشهورين أمثال لوقيان أو (نوهرا) وبغران[٤٢]. وبذلك يعتبر كرسي أسقفية عرقا من أقدم أسقفيات السريان، وكان يشرف على رعاية كثير من القرى المجاورة لها[٤٣].

وبعد انتصار المسلمين في معركة اليرموك، فتحت أبواب سوريا أمامهم، ولم يبق فيها سوى بعض الحاميات البيزنطية في بعض المدن، فسار يزيد على سواحل صيدا وبيروت، وعلى مقدمة جيوشه أخوه معاوية الذي استولى على عرقا وفتحها بنفسه. وبعد ذلك عاود الروم غزواتهم على السواحل في بداية خلافة عثمان، واستعادوا عرقا، فقصدها معاوية مجددا «وأعاد فتحها ثم رممها وشحنها بالمقاتلين وأعطاهم القطائع»[٤٤]. ويبدو أن معاوية، في حملته الثانية على عرقا، قد هدم سورها الذي بناه البيزنطيون لكي يحول دون احتماء الروم فيه، فيما لو فكروا بإعادة غزو السواحل؛ فالحفريات الأثرية، قد دلت على تدميره بعد الفتح الاسلامي بقليل[٤٥]. ويجتمع المؤرخون على أن معاوية بذل جهده لتدعيم الفتح في السواحل الفينيقية، فأقام فيها

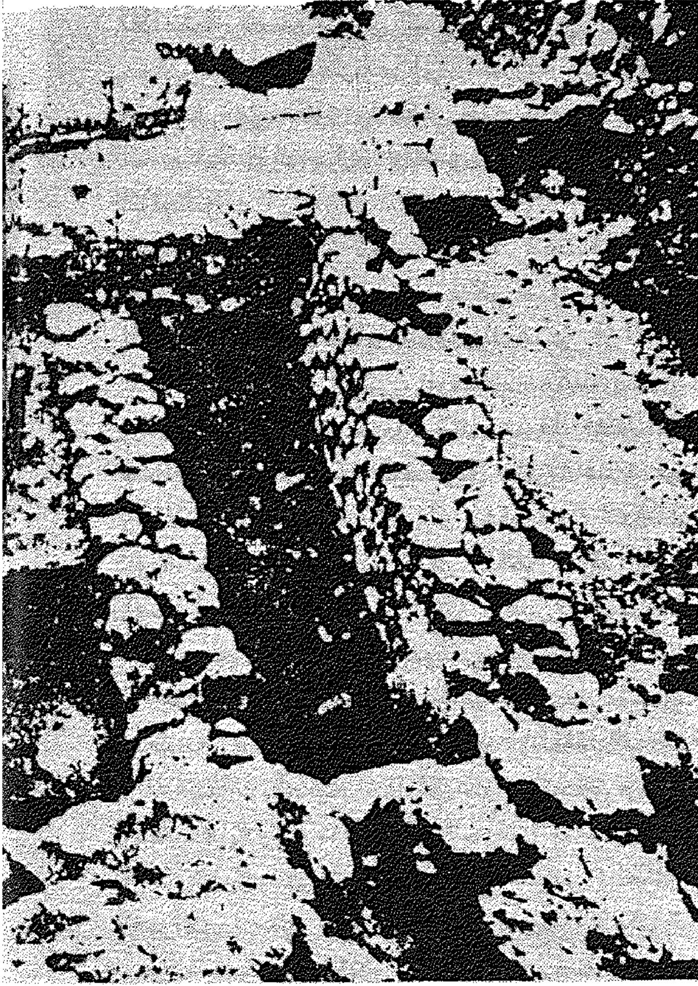
الحاميات العسكرية، كما نقل إليها قبائل عربية من العراق لكي يملأ الفراغ الناتج عن هجرة سكانها الأصليين[٤٦]. يستدل مما تقدم أن تغييرا سكانيا قد رافق الفتح الاسلامي في عرقا نتيجة جلاء أو إجلاء بعض سكانها السريان، وتوطين عناصر عربية مكانهم. ومنذ ذلك التاريخ تعايش سكان عرقا مسلمين ومسيحيين، ونعموا في ظل الخلافة الأموية بالحرية والرخاء، فبقيت الأديرة والكنائس ترفع الصلبان وتعج بالكهنة، كما استمر الازدهار الزراعي في ذلك العصر[٤٧].

ظلت الرغبة في استعادة السواحل السورية تراود أفكار البيزنطيين إبان العصور العباسية، فأعد الامبراطور نقفور حملة على هذه المناطق واستولى على حمص وعرقا وحلب واحتفظ بها لمدة يسيرة[٤٨] إلى أن استردها سيف الدولة الحمداني، فأنشد شاعره أبو العباس قائلا:

وعرقة قد سقيت سكانها الردى
ببيضٍ خفاف لا تكل ولا تنبو[٤٩]

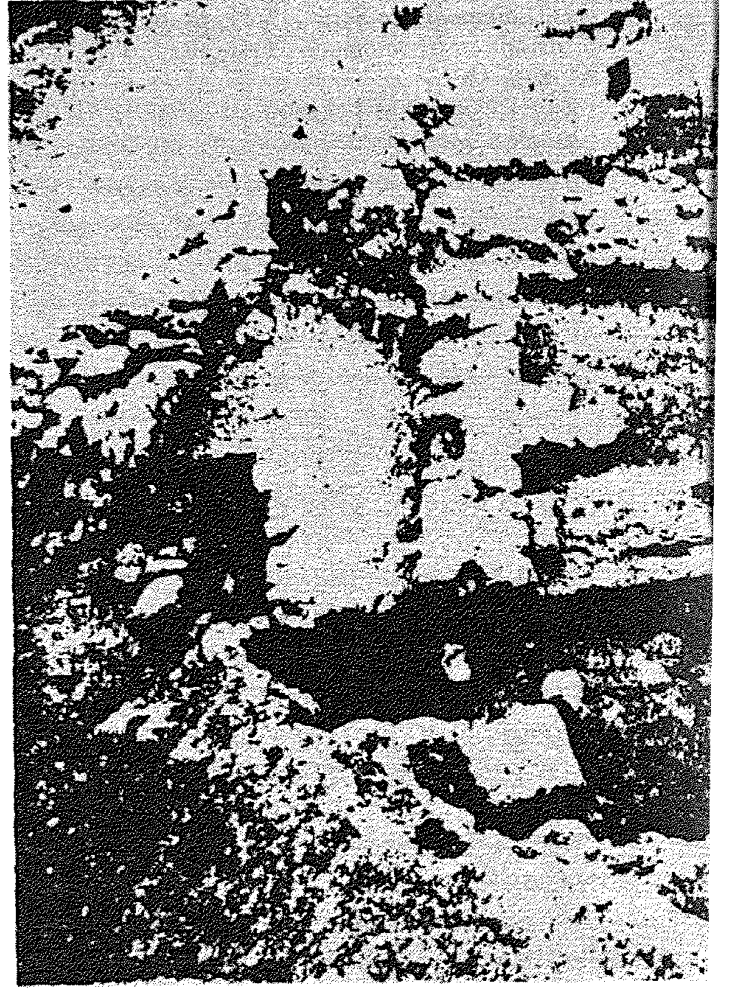
ثم عاود البيزنطيون هجماتهم على السواحل السورية في العهود الفاطمية. ففي عام ٩٩٢م، اجتاح الامبراطور باسيل عرقا ووصل إلى طرابلس ثم أدبر عائدا إلى بلاده دون أن يستقر في هذه البلاد[٥٠]. وتدل الحفريات في عرقا على ازدهار ملحوظ في تلك الرحلة من تاريخها: فقد كشفت النقاب عن كتابات عربية تحمل اسم حسان بن مُعمَّر في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي[٥١]. وعشية الحروب الصليبية، كانت عرقا تابعة لامارة بني عمار في طرابلس، ويقال ان سكانها كانوا بأغلبهم من الشيعة في ذلك التاريخ[٥٢].

يستنتج مما تقدم أن عرقا ومنطقة سوريا عامة، وقعت، في الفترة الممتدة من الألف الثالث حتى بداية الألف الأول قبل الميلاد، تحت غلبة الحضارات المتطورة في مصر وبلاد ما بين النهرين، مما أعاق ولادة حضارتها الشخصية ونموها الذاتي بمعزل عن التأثير المصري أو السوري أو الأكدي. لذلك جاءت أعمالها الفنية متأثرة بمصر في عصر الأسرة الثامنة عشرة كما يظهر من الحفريات في عرقا. وبعد سيل من الأحداث، اكتسبت عرقا خبرات عميقة، فوعت مكانتها الاستراتيجية اقتصاديا وعسكريا،



□ الحفريات الأثرية في عرقا.

وبدأت تسعى إلى تحقيق ذاتها بالعمل مع جيرانها الفينيقيين، والميتانيين على الافلات من السيطرة المصرية بدءا من النصف الثاني للألف الثاني قبل الميلاد. إلا ان هذه الخطوة لم تحظ بالنجاح إلا بعد انحسار النفوذ المصري الحثي عن المنطقة في أوائل القرن الأول قبل الميلاد. فمنذ ذلك التاريخ بدأت تظهر بوادر حضارة جدية في عرقا، لا يبدو فيها تأثير العوامل الخارجية، إلا بمقدار قليل. فقد دلت الحفريات فيها على مدافن تعود إلى القرن السابع قبل الميلاد وتشبه المدافن الفينيقية، بالاضافة إلى أدوات فخارية وخزفية ومعدنية تحاكي منجزات سوريا وفلسطين في القرن الثامن قبل الميلاد[٥٣]. إذن لقد انحرف الخط الفني في عرقا بعيدا عن التيار المصري ليتجه نحو أنماط محلية في سوريا عامة. من هذا المنطلق يمكننا فهم وتفسير ظاهرة وقوف عرقا إلى جانب جاراتها الفينيقيين



والعبرانيين والآراميين في معركة قرقر، في محاولة منهم لطرد السيطرة الآشورية في المنطقة. بالاضافة إلى ذلك فقد تمثل الوعي للذات باعتماد اللغة الكنعانية في عرقا وباقي بلاد الشام، باستثناء الآراميين، بين الأعوام (٩٥٠ ـــ ٧٥٠ق.م)(٥٤). وقد استمر تشكيل الذات في العصور اليونانية والرومانية، يتجلى بمظاهر حضارية وعطاء فني يغلب عليه الطابع الفينيقي والآرامي(٥٥)، ثم الطابع السرياني واللغة والثقافة السريانية في العصر البيزنطي. إلى جانب ذلك احتفظ السكان بآلهتهم السامية واستمروا في تقديسها إلى جانب الآلهة اليونانية والرومانية التي عرفوها مؤخرا.

وبعد الفتح الاسلامي، انصهرت عرقا في بوتقة المجتمع العربي والحضارة العربية الاسلامية، بفضل العناصر العربية التي استوطنتها، وبفضل التسامح الديني الذي نعمت به المنطقة إبان الحكم الأموي في بلاد الشام، فأصبحت تشكل وحدة مع ساحل فينيقيا وداخل سوريا التي سعت دائما إلى السير في ركبها الحضاري كما رأينا.

الهوامش

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار صادر بيروت ١٩٦٥، المجلد الثاني، صفحة ٤٣١.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار صادر بيروت ١٩٦٥، المجلد العاشر، الصفحات ٢٦٧ ـــ ٢٧٨.

(٣) الواقدي: فتوح الشام، دار إحياء التراث، الجزء الأول، صفحة ٥٦.

(٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر بيروت، مادة العين.

(٥) فيليب دي طرازي: أصدق ما كان عن تاريخ لبنان وصفحة في أخبار السريان، مطابع سليم صيقلي بيروت ١٩٤٨، المجلد الثاني، صفحة ٢٥.

(٦) Bruce Condé: See Lebanon, Second Edition, Harb Bijjani Pren, Beyrouth 1960, p. 550.

(٧) أنيس فريحة: أسماء المدن والقرى اللبنانية، منشورات كلية العلوم والآداب في الجامعة الأميركية في بيروت ١٩٥٦، مادة العين.

(٨) H. Lammens: La Syrie Précis Historique, Imprimerie Catholique, Beyrouth 1921, V. 1. p. 2.

(٩) اسعد شيخاني: مباحث أجنبية في تاريخ لبنان، منشورات وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة، بيروت ١٩٥١، المجلد الثالث، صفحة ١٦٠.

(١٠) Mission archéologique française, sous la direction de P. Laville: Article tell Arqa, 1972-1974, Pages 102-103.

(١١) الكتاب المقدس: منشورات المطبعة الكاثوليكية بيروت، سفر التكوين، الفصل العاشر، العدد السابع عشر.

(١٢) أرنولد توينبي: تاريخ البشرية، ترجمة نقولا زيادة، الدار الأهلية للنشر، الجزء الأول، صفحة ١٣٣.

(١٣) H. Lammens: La Syrie... V. 1. p. 2.

(١٤) ارنولد توينبي: المرجع السابق، الجزء الأول، صفحة ٨٥ وصفحة ٦٩.

(١٥) ارنولد توينبي: المرجع السابق، الجزء الأول، صفحة ٧٠؛ وسليم هشي: محاضرة في التاريخ الفينيقي، منشورات دائرة المطبوعات في كلية الآداب والعلوم الانسانية في الجامعة اللبنانية، سنة ١٩٧٢، صفحة ٧٩.

(١٦) H. Lammens: La Syrie... V. 1. p. 3.

(١٧) سليم هشي: المرجع السابق، صفحة ٤٦.

(١٨) رفيق التميمي ومحمد بهجت: ولاية بيروت، دار لحد خاطر ١٩٧٩، الجزء الثاني، صفحة ٢٣٩.

(١٩) Mission archéologique Française: Tell Arqa... p. 98.
(٢٠) Mission archéologique Française tell Arqa, p. 103.
(٢١) سليم هشي: المرجع السابق، صفحة ٨١؛ وارنولد تونبي: المرجع السابق، الجزء الأول، صفحة ١٠٤.
(٢٢) Mission archéologique Française: Tell Arqa... ps. 101-102.
(٢٣) Bruce Condé: Seé Lebanon, p. 550.
(٢٤) ارنولد تونبي: المرجع السابق، الجزء الأول، صفحة ١٠٦ وصفحة ١٠٧.
(٢٥) Mission archéologique Française: Tell Arqa, p. 103.
(٢٦) ارنولد تونبي: المرجع السابق، الجزء الأول، صفحة ١٢٨.
(٢٧) Mission archéologique Française: Tell Arqa, p. 87.
(٢٨) ارنولد تونبي: المرجع السابق، الجزء الأول، صفحة ١٨٧.
(٢٩) Mission archéologique Française: Tell Arqa, p. 80.
(٣٠) H. Lammens: La Syrie... V. 1. ps. 24-27.
(٣١) رفيق التميمي وبهجت: المرجع السابق، الجزء الثاني، صفحة ٢٣٩.
(٣٢) أسعد شيخاني: المرجع السابق، المجلد الثالث، صفحة ١٦٢.
(٣٣) Mission archéologique Française: Tell Arqa, p. 66-68.
(٣٤) H. Lammens: La Syrie... V. 1, ps. 11-28.
(٣٥) أسد رستم: آراء وابحاث، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ١٩٦٧، صفحة ٢٥٤ ــ ٢٥٦.
(٣٦) Bruce Condé: Seé Lebanon... ps. 550.
(٣٧) فؤاد قازان: لبنان في محيطه العربي في التكوين الجيولوجي حتى ايامنا، دار الفارابي، بيروت ١٩٧٢، المجلد الأول، صفحة ٧٦.
(٣٨) H. Lammens: La Syrie... V. 1, ps. 6-26.
(٣٩) Mission archéologique Française, Tell Arqa, p. 49.
(٤٠) Bruce Condé Sée Lebanon... p. 104.
(٤١) Bruce Condé: Sée Lebanon... ps. 550-553.
(٤٢) فيليب دي طرازي: المرجع السابق، المجلد الأول، صفحة ٢٥ ــ ٢٦.
(٤٣) فيليب دي طرازي: المرجع السابق، المجلد الأول، صفحة ٤٤؛ وأسعد شيخاني: المرجع السابق، المجلد الثالث، الصفحة ١٦٢.
(٤٤) ابن الأثير: المرجع السابق، المجلد الثاني، صفحة ٤٣١.
(٤٥) Mission archéologique Française: Tell Arqa... p. 104.
(٤٦) فؤاد قازان: المرجع السابق، الجزء الأول، صفحة ١٤١ ــ ١٤٢؛ و:
— H. Lammense, La Syrie... V. 1, p. 64.
(٤٧) H. Lammens: La Syrie... V. 1, p. 114-121.
(٤٨) H. Lammens: La Syrie.. V. 1, p. 142.
(٤٩) ياقوت الحموي: معجم البلدان، مادة العين.
(٥٠) اسماعيل أبو الفدا: تاريخ أبي الفدا، دار الطباعة الشاهانية بالقسطنطينية، سنة ١٢٨٦هـ، الجزء الثاني، صفحة ١٣٥.
(٥١) Mission archéologique Française: Tell Arqa, p. 29.
(٥٢) كمال الصليبي: تاريخ لبنان الحديث، دار النهار، بيروت، الطبعة الرابعة، صفحة ٥١؛ وأبو الفدا: المرجع السابق، الجزء العاشر، صفحة ٤٦٧ ــ ٤٦٨.
(٥٣) Mission archéologique Française: Tell Arqa, p. 61-83.
(٥٤) أرنولد تونبي: المرجع السابق، الجزء الأول، صفحة ١٣٥ ــ ١٣٧.
(٥٥) Mission archéologique Française: Tell Arqa, p. 61-68.



ليس امر من الفقر

□ نصحني النصحاء ووعظني الوعاظ شفقة ونصيحة وتأديبا، فلم يعظني مثل شيبي ولا نصحني مثل فكري. وعاداني الأعداء، فلم أر أعدى إليّ من نفسي إذا جهلت. وأكلت الطيب وشربت المسكر، فلم أجد شيئا ألذ من العافية والأمن. وأكلت الصبر وشربت المر، فلم أر أمر من الفقر. وعالجت الحديد ونقلت الصخر، فلم أر حملا أثقل من الدين. وطلبت أحسن الأشياء عند الناس، فلم أر شيئا أفضل من الخلق الكريم.

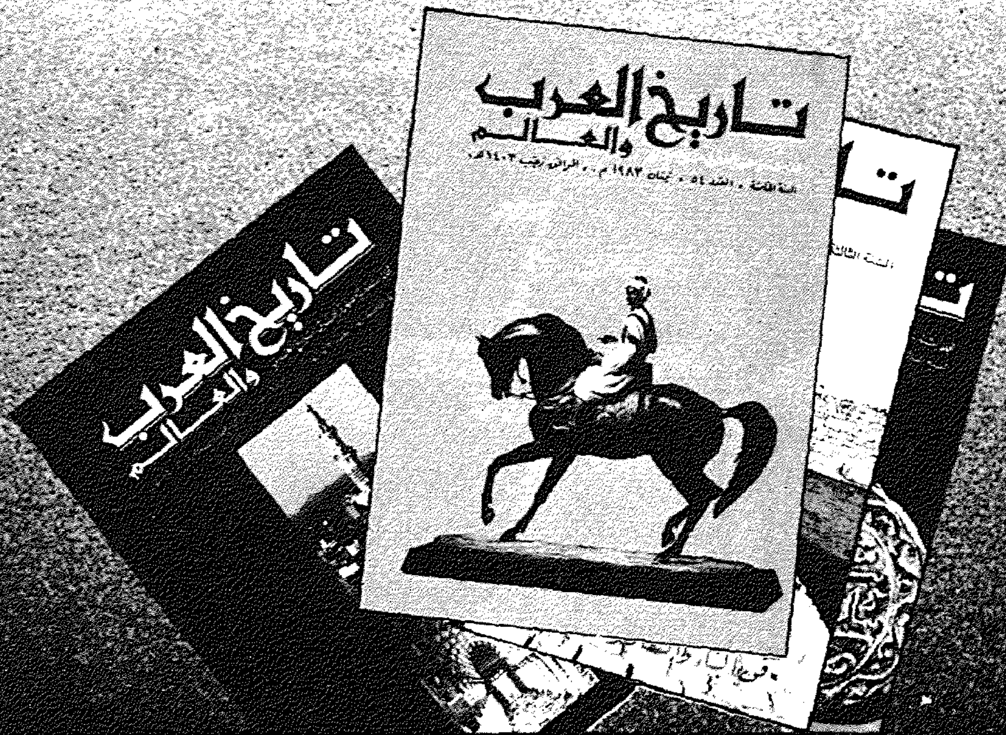
الحكيم الفارسي «بزرجمهر»

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي



صدر العدد الأول في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨
تصدر في منتصف كل شهر عن « دار النشر العربية »
صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير



الاشتراكات

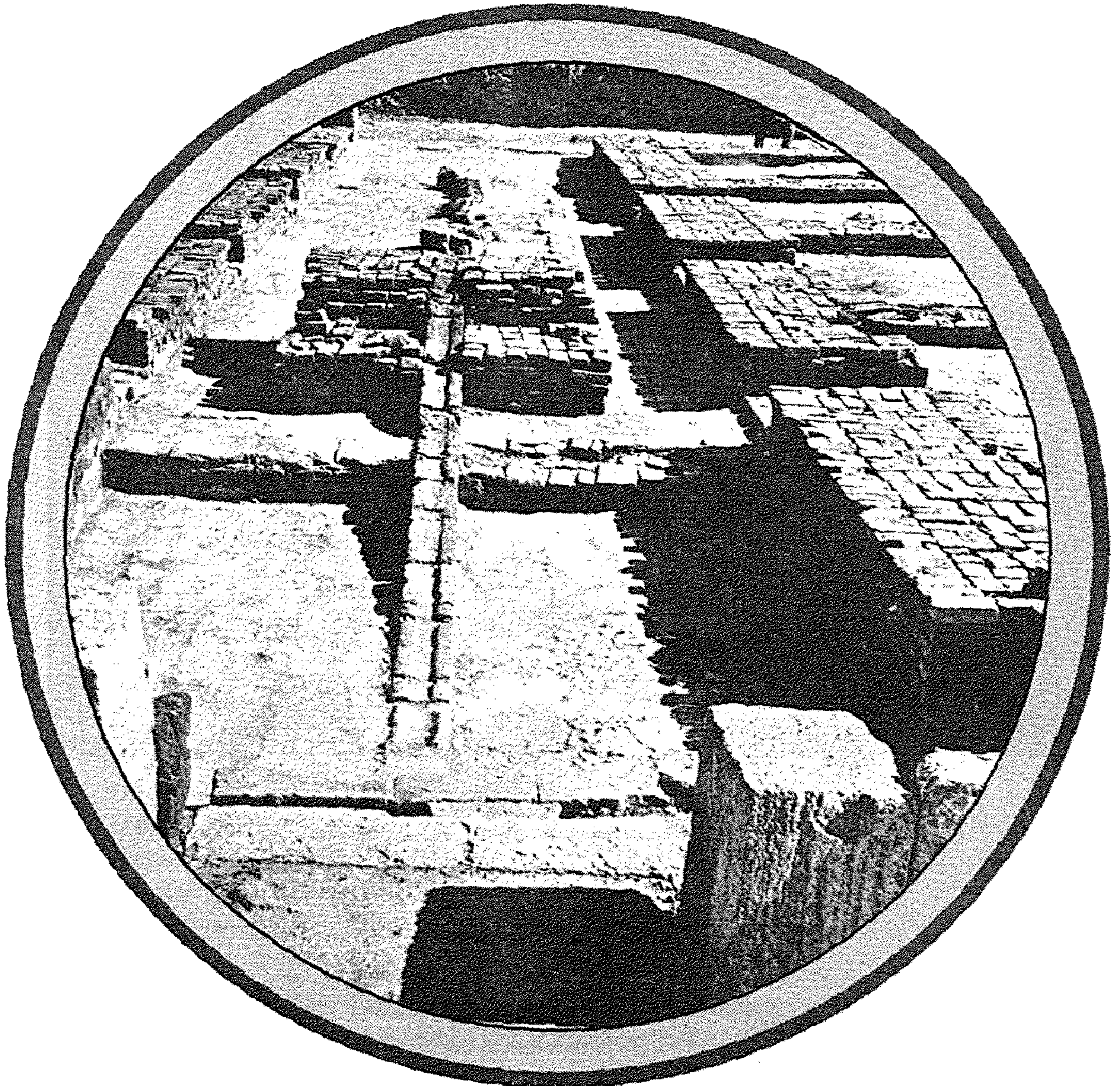
- للافراد في لبنان .... ١٠٠ ل.ل.
- للافراد في الوطن العربي .... ١٢٥ ل.ل.
- للافراد في دول العالم الأخرى .... ١٥٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية في لبنان .... ٢٥٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية في الوطن العربي .... ٧٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية خارج الوطن العربي .... ١٠٠ دولار

جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير

بناية ابو هليل – شارع السادات – بيروت – لبنان – ص . ب . / ٥٩٠٥ / هاتف : ٨٠٠٧٨٣

مرصد «مراكي» في إيران
أكبر مرصد في العالم القديم

بقلم: د. ب. فاردجافند
إعداد: د. سامي زكي



□ القاعة الرئيسية في البرج. وترى السلم والمرتبة المحززة التي كانت تحمل الاطار.

د. سامي زكي: باحث في العلوم الاجتماعية.

يعتبر مرصد «مراكي»، الذي يعرفه الفلكيون جيداً، اكبر واهم مرصد في العالم القديم، منذ اكتشاف مرصد سمرقند في القرن التاسع عشر، وقد بني بعد مجمع مراكي العلمي بنحو ١٦٧ سنة. وجه العلماء والآثاريون عنايتهم إلى الكشف عن موقع وبنية مرصد مراكي.

اتيح لي، خلال ابحاثي في منطقة اذربيجان، عام ١٩٦٥، ان ازور «رازادداكي» (جبل المرصد)، القائم شمال مراكي.

عام ١٩٧٢ قامت اول حملة تنقيب. ولما كانت النتائج التي حصلنا عليها رائعة، فقد استانفنا التنقيب، بعد سنتي توقف، خلال صيفي ١٩٧٥ و١٩٧٦. واستطعنا ان نعد تصميماً كاملاً للسور الرئيسي والمجمع العلمي التابع لمرصد مراكي.

اكبر مرصد في الشرق



لم تكن معلوماتنا عن المراصد قبل الاسلام واضحة حتى ذاك الوقت. أما اليوم فلدينا معلومات التي بنيت بعد الفتح الاسلامي. نعلم أن مراصد بنيت، لأول مرة بعد الاسلام، في عهد المأمون، في مدن «سيماسي» وجبل قاسيون. وفي إيران، في القرن التاسع الميلادي، بنى أبو حنيفة الدينوري، مرصداً في أصفهان. ولكن المراصد الهامة بنيت في عهد ملكشاه، في القرن الحادي عشر. ويقال إن الحكيم عمر الخيام، مع باحثين آخرين، قام بأبحاث فلكية في تلك المراصد.

كان مرصد مراكي، الذي شيد في القرن الثالث عشر، اكبر مرصد عرفه الشرق. فقد أمر السلطان المغولي هوليغو، ببنائه عام ١٢٥٨م، بناء لطلب العلامة نصر الدين الطوسي. وبناء لنصائح العلامة ذاته، خصص عشر الأوقاف، على كل ارض المملكة، لنشاطات المرصد والباحثين العاملين فيه. وقد كلف بناؤه عشرين ألف دينار، وكلفت الأدوات والآلات ثلاثين الف دينار. ورغم إلحاح هوليغو بالإسراع، فإن الأعمال والأبحاث العلمية استغرقت خمسة عشر عاماً. وقد طبعت الأبحاث في عهد ابقاخان (١٢٦٥ ــ ١٢٨١) عام ١٢٦٥ أو ١٢٧١ ــ ٧٢، في كتاب ترجم إلى اللاتينية، وطبع في أوروبا عام ١٦٥٢.

استمرت شهرة مرصد مراكي حتى نهاية القرن الثالث عشر. وكان في عهد حكم أولجيتو (١٣٠٤ ــ ١٣١٦) ما يزال ناشطاً. وقد عين أصيل الدين، ابن نصر الدين الطوسي، مديراً للمرصد مكان أبيه.

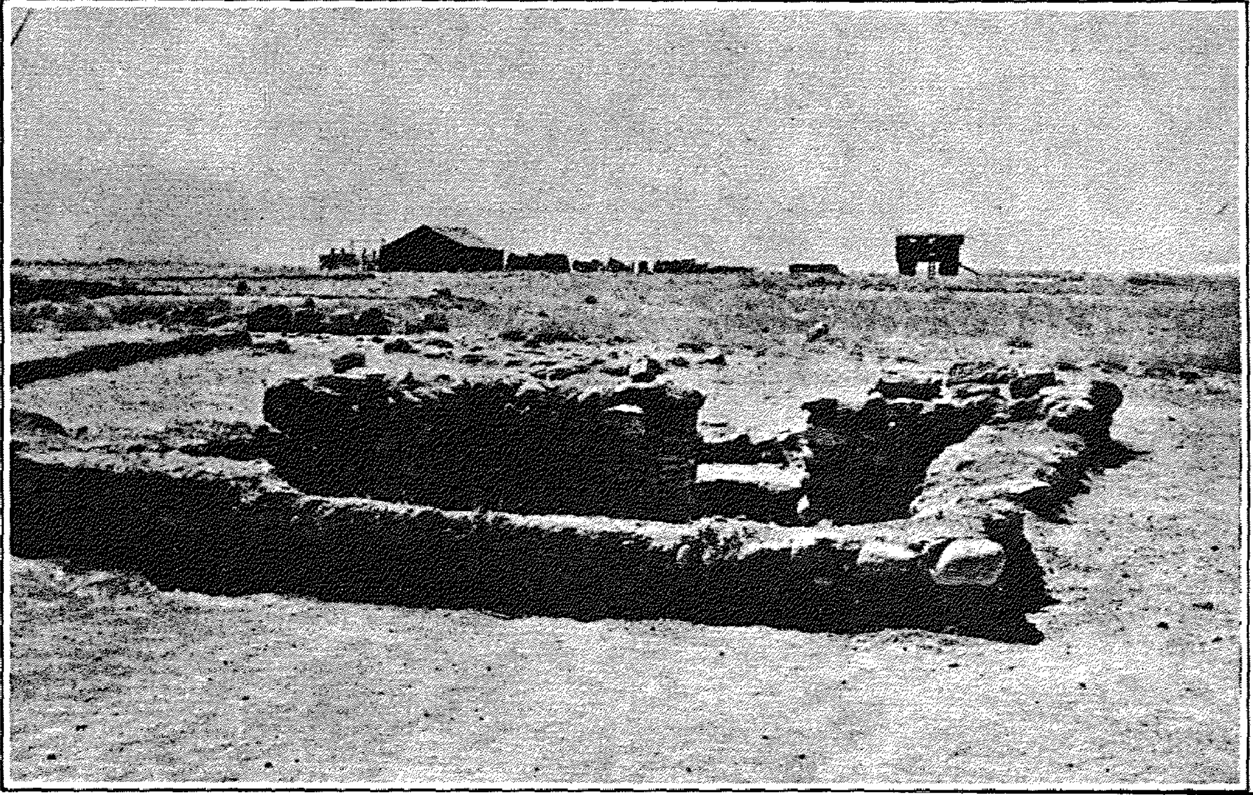
وقضت الفوضى التي شملت إيران بعد موت الخان أبو سعيد (١٣١٦ ــ ١٣٣٥) على المرصد. يذكر حامد الله مستوفي، في كتابه نزهة القلوب أن مرصد مراكي كان مدمرا عام ١٣٤٠.

وإذا كانت عدة مؤلفات تعرفنا إلى أبحاث مركز الدراسات هذا، فليس ثمة مؤلف واحد بيننا ينبئنا عن بنية مختلف أقسام المرصد. لذلك علينا الاعتماد بشكل رئيسي على نتائج ثلاث حملات تنقيب، وعلى آراء وشروح عدد من العلماء والفلكيين الحديثين.

مجمع هندسي واسع

إلى الشمال من مدينة مراكي، وعلى بعد خمسمائة متر من آخر بناء فيها، يقول تل طوله ٥١٢م وعرضه ٢٢٠م وارتفاعه ١١٠م، تتخلله آكام مختلفة الأهمية، لأنها بقايا ابنية كانت تشكل مجمع مرصد مراكي العلمي. وقد نجحنا خلال حملات التنقيب الثلاث، في إبراز ثلاث مجموعات مختلفة: الجدران الممتدة من الشرق إلى الغرب ومن الجنوب إلى الشمال، والبرج المركزي، وخمسة ابنية دائرية، وقاعة مربعة، فيها مقعد دائري، والمكتبة، وقاعة الاجتماعات، وفرن، هو في الواقع معمل صناعة الآلات الفلكية، وبناء يضم إيواناً مركزياً، ومربعات مطلية بالمينا، ومسكن ريفي بني بعد دمار المرصد.

يقسم تل المرصد إلى قسمين، جدار طوله ١٣٩م، وعرضه ١,١٠م. أما القسم لجنوبي الذي يمده هذا الجدار، فيضم آثار الأبنية،



□ منظر للفرن ــ المصنع، حيث كانت تصنع ادوات المرصد.

وطوله ٢٨٠م وعرضه ٢٢٠م. أما القسم الشمالي فطوله ٢٢٠م، ويقل عرضه تدريجياً باتجاه الشمال فيتراوح بين ٢٢٠م و ٥٠م. ولكن الأبحاث دلت على عدم وجود أثر لأي بناء.

أما الجدار الثاني الذي كشف عنه فوق التل، ففي محاذات القسم الجنوبي من الشرق. طوله ٢٢٠م، وعرضه ١,٢٠م، وارتفاعه ٠,٤٠م. وهو متعامد مع طرف الجدار الممتد من الشرق إلى الغرب. ويبدو أن الجدارين، في البدء، لم يرتفعا أكثر من متر واحد. ويمكن الافتراض انهما كانا يستخدمان كمعلمين مستقيمين لاجراء مختلف القياسات بمساعدة أدوات المراقبة.

البرج المركزي أو نواة المرصد

خلال حملتنا التنقيبية الأولى، عملنا في أكثر الآثار أهمية، وهو مساحة قطرها ٤٥م تقريبا، وارتفاعها ٢,١٥م، قائمة في المركز بالقياس إلى آكام الخراب. في هذا الموقع كشفنا عن بناء البرج المركزي، شعاعه ١٤م.

كان الباب الرئيسي متجها إلى الجنوب. فإذا اجتزته، انحدرت درجتين، بين دكتين من الحجر، علوهما ٠,٨٠م، فوجدت نفسك في القاعة الرئيسية (٢٢م × ٣,١٠م) الممتدة على شكل ممر متجه حسب قطر المرصد (شمالاً جنوباً).

في هذه القاعة ــ الممر، المواجهة للواجهة، حامل آلة المراقبة، والاطار الجداري. وهو عبارة عن سلم قاعدتهما (٧,٥٠م ــ ١,٤٠م)، وقد بقي منها اليوم ٢,٢٠م. أي ثلاث درجات. كانت السلم تحمل الاطار الأهليلجي، الذي كان رأسه الأسفل قرب الباب، ورأسه الأعلى في مركز البناء. هذا الراس هو الذي سماه واصف «العتبة»، والذي كان، في رأيه، يستقبل كل صباح أشعة الشمس منذ الشروق، من خلال ثقب، في قبة البناء. من هذا المنطلق كان العلماء يقيسون درجات ودقائق حركة الشمس المركزية، وارتفاعها خلال كل الفصول. وكذلك الساعة، ومواقع البلدان (الطول والعرض).

بنيت هذه المرتبة بكتل حجرية مقطوعة، عرض الواحدة ٠,٢٠م، وطولها من ٠,٤٤م إلى ٠,٧٢م مرصوفة بعضها إلى جنب بعض. ولقد وجدنا خلال التنقيب بعض القطع، ونأمل أن نجد غيرها. وسط هذه المرتبة ثلم عرضه ٠,٧م، تقوم

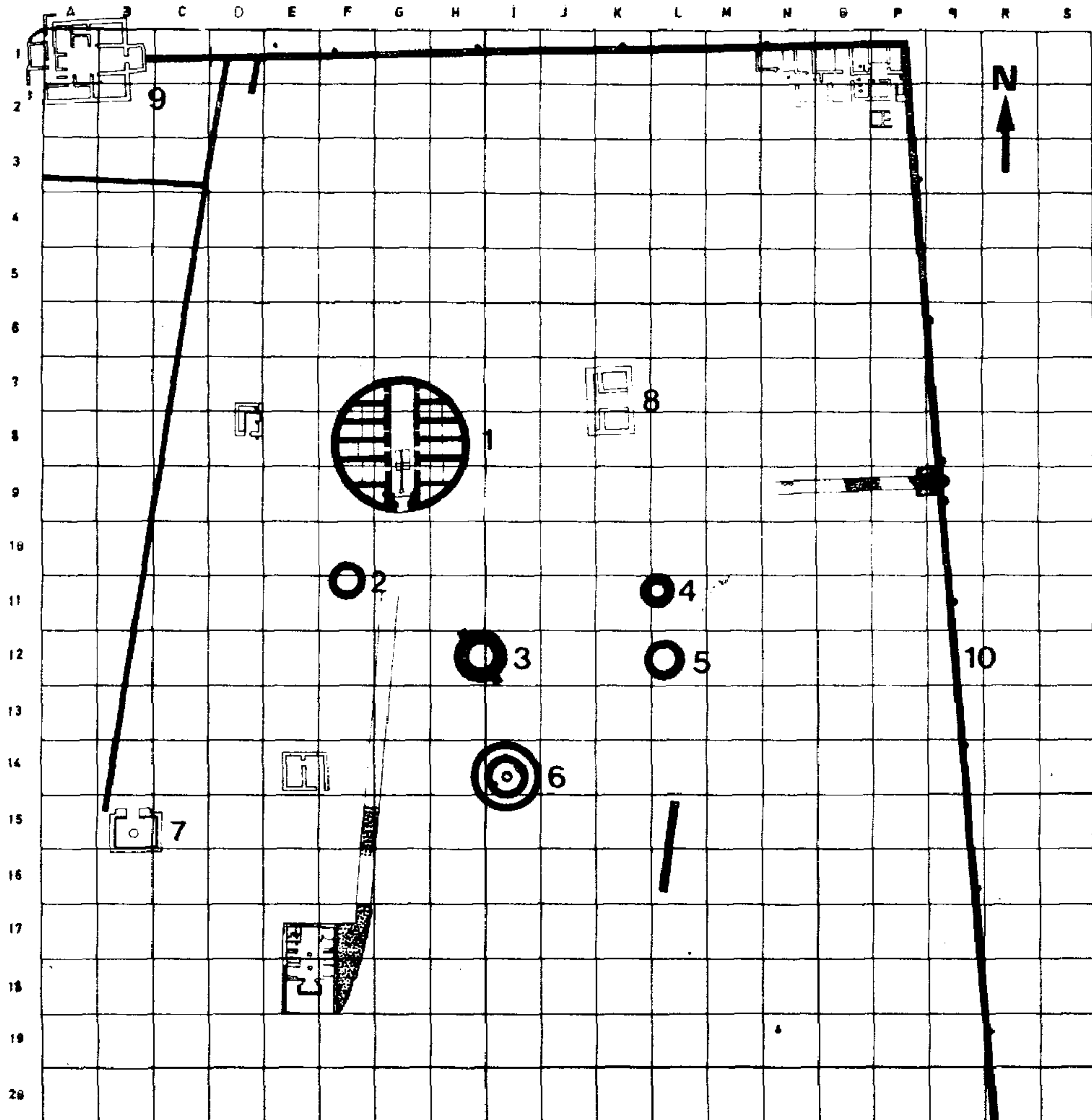
عليه، وعلى أبعاد متساوية (٠,٥٨م) أخاديد لتثبيت الاطار الجداري المعدني المرقم.

يرتفع، عند النهاية الشمالية للقاعة الرئيسية، عمودان من القرميد، مبنيان على قاعدة مربعة ضلعها ٠,٩٠م. وعلى جوانب القاعة ـ الممر تقوم ست غرف للعمل، يفصل بين كل اثنتين منها جدار سمكه ٠,٩٠م . من هذه الغرف أربع قاعات كبيرة مستطيلة تقريباً لكل منها ارضيتان (الفرق ٠,٢٥م)، واثنتان صغيرتان، مستطيلتان تقريبا، ارضيتهما مستوية.

وقد بنى المرصد بحجارة صغيرة (١٥ سم ضلع الواحدة)، ضمت إلى بعضها بعضا بالجص. أما الركيزة الأولى الخارجية للبناء، والركيزة الداخلية للقاعة الرئيسية فمن الحجارة المقطوعة. وقد غطي الداخل بالجص، بينما باقي الجدران بنيت بالآخر المشوي، المضموم إلى بعضه بعضاً، بالفخار، أو بمزيج من الفخار والجص. وكانت الجدران المطلية بالجص، مزينة بمربعات، وفسيفساء. أما الأرضية فكانت مرصوفة بالقرميد.

الآثار قليلة بالقياس إلى مجموع البناء الأساسي. ثم إن أرضية القاعات التي كانت مطمورة، أو مجردة من طلائها، تشير إلى أن المرصد لم يدمر طبيعياً. ولعله، بعد إهماله، قد

□ مخطط مجموع البناء: ١ ـ البرج ٢ ـ ٦ ابنية دائرية، ٧ ـ حجرة مربعة وسطها مرتبة مدورة، ٨ ـ بناء مع إيوان مركزي، ٩ ـ المكتبة، ١٠ ـ جدار يحيط بالمرصد.





□ الجدار الممتد من الشرق إلى الغرب ويقسم تل المرصد إلى قسمين. ولم يكن يعلو أكثر من متر. ويبدو انه كان مرقبا لتصحيح القياسات التي تؤخذ بواسطة أدوات المراقبة.

دمر بوحشية، ربما على دفعات، ومن أجل استخدام أوائله ثانية.

أبنية دائرية غريبة

يشير المخطط الطوبوغرافي لمجموع بناء المرصد، إلى وجود خمس أبنية دائرية، تتبدى على ثلاثة نماذج: دائري بسيط، دائري تحف به مصطبة أدنى منه بـ ٠,٢٥م وثالث مكون من دائرتين، فيها مرتبة دائرية، وسط ثلاث مراتب مربعة، لصيقة بداخل الدائرة الداخلية.

كانت هذه الأبنية الخمسة مبنية من الحجر العادي (الدبش)، يشده إلى بعضه بعضاً بالفخار. وقد وجدت بعض القرميدات المشوية، على الحجارة، مما ساعد على إعادة بنائها.

اما وظيفة هذه الأبنية فغير معروفة لدينا حتى الآن، ذلك أن معرفتنا بالفلك الاسلامي، والعالم الايراني، قبل التقدم الغربي في هذا المجال غير كاملة. ولكن، حين نقارن بين شكل هذه البنية، وبين وحدات فلكية أخرى، فما تزال عاملة في مراصد هندية في دلهي وجيبور، بنيت في القرن الثامن عشر، على النمط القديم للمراصد الايرانية، كتلك التي في سمرقند ومراكي، يخيل إلينا أنها كانت تستخدم لإقامة مختلف المقاييس الفلكية والعلمية.

فإذا رجعنا إلى مؤلف العلامة «الأرزي» الذي اشتهر في مرصد مراكي، إذ كلف بصنع الأدوات المخصصة لمختلف الدراسات، وجدنا أن عدة وحدات فلكية علمية كانت مقامة في الهواء الطلق.



□ مقطع من بلاط الكاشي كتب عليه بالثلث، وفيه اشكال نباتية.

مكتبة محفوظة

كشفنا، إلى الجنوب الغربي من البرج قاعة مربعة طول ضلعها ٤,٩٠م، وسطها مقعد مدور قطره ٢,١٠م. وليس لها إلا مدخل واحد. أما جدرانها فبنيت بحجارة عادية موصولة بالفخار. عند أسفل الجدار، تلاحظ، حتى الآن، بعض الحجارة المستطيلة، اما المقعد الدائري المركزي فيشير إلى استخدام القاعة، كبناء للعمل والبحث.

يقع البناء الذي سميناه «المكتبة» عند الزاوية الشمالية الغربية من مجمع المرصد. مساحته ٣٣٠م[٢]، ومكون من تسع غرف، بقياسات مختلفة، مخطط البناء هام جداً: فحول الغرفة المركزية، المتينة على شكل صليب، خمس قاعات. وسط الضلع والبناء، من الخارج، غرفة أخرى (٣,٣٠م × ٢,٢٠م)، تتصل بالغرفة المركزية. ومدخل البناء على شكل ممر، وبزاوية متجهة شمالاً ــ غرباً. ورغم أن الزاوية الجنوبية الغربية مهدمة، يمكن أن نفترض مدخلاً آخر: كان من يستخدمونه يعبرون من باب ويخرجون من آخر. أما مواد بناء هذا المبنى فالحجارة غير المقصوصة أساسها قرميد غير مشوي، وأعلاها قرميد مشوي.

لعل البناء كان مكتبة، فنوافذه، ومخارجه المحفوظة جيداً، والسور المربع الذي يفصله عن باقي المجمع، يشير إلى ذلك.

تؤكد بعض المصادر أن المكتبة كانت تضم أربعمائة ألف مجلد، قد يكون الرقم مبالغاً فيه بالقياس إلى قدرة البناء على الاستيعاب، ولكنه، وحده من بين كل المباني، كان يمكن أن يكون مكتبة.

حين فسرنا طبيعة بنية كل بناء، اشرنا إلى المواد المستعملة، وقد بينا أن المهندسين استعانوا بحجارة عادية (دبش) وحجارة مقصوصة، وقرميد عادي، وقرميد مشوي وبلاط فخار أو جص.

وإذا لم نجد نماذج مزخرفة داخلية أو خارجية، فقد وجدنا قطعا مربعة مطلية بالميناء، (كاشي)، تشير إلى أربعة نماذج: مربعات كبيرة (ضلعها ٤٥ سم) عليها كتابات ورسوم ثلث، وزخارف نباتية، لعلها كانت على واجهة البرج المركزي. ثم بلاط مستطيل (٢١ سم × ٩سم) مزخرف بخطوط ملتوية، تعود إلى النمط الخاني (نسبة إلى الخان). وثمة بلاطات من حجوم مختلفة (مربعة، مدورة، نجمية، مستطيلة، معينية، الخ..) وبعدة الوان، أزرق، أزرق فاتح، رمادي، بني، أسود، الخ... تشكل مع قطع من القرميد المشوي نوعاً من الفسيفساء. أخيرا، بلاطات على شكل نجوم ثمانية كوكبية. بالاضافة إلى هذه النماذج الأربعة، من الكاشي، استخدمت مواد أخرى، كالقرميد المشوي المضلع، والحجارة المضلعة برسوم هندسية ونباتية.

ليست هذه النماذج المكتشفة كثيرة، مما يدل على تدمير تام للأبنية، ربما لاستخدامها في مكان آخر. ولكن جهودنا لم تفلح في معرفة المكان الذي استخدمت فيه.

علماء مشهورون يعملون في مراكي

يبدو أن مرصد مراكي كان مركزا علميا لأبحاث في مجالات عدة: الفلك، الفيزياء، البصريات، الحساب. تدلنا مراجع ومؤلفات تاريخية على أن عددا كبيرا من العلماء عملوا فيه، ومنهم: قطب الدين شيرازي، مؤيد الدين الأرزي الدمشقي، محيي الدين المغربي، نجم الدين دابيران، كاتب قزويني، فخر الدين مراكل، فخر الدي أخلاطي. وقد عملوا باشراف نصر الدين الطوسي. ولقد كان مرصد مراكي مركز تعليم يخرج المختصين والعلماء. وتشير المراجع إلى أن طلابا من الصين، طلبوا العلم فيه. ●

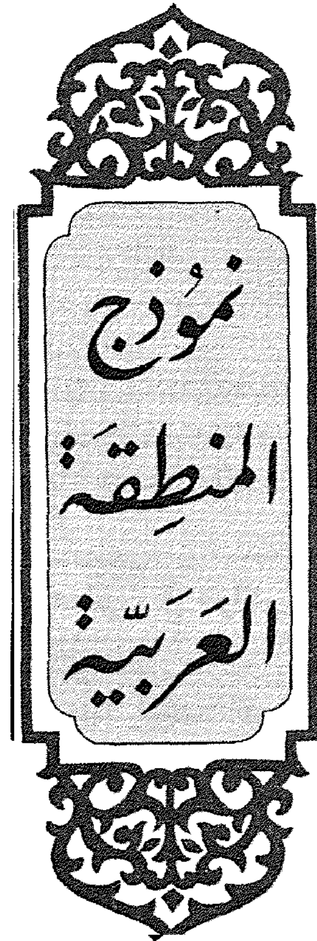
تاريخ ظهور التكنولوجيا

الأساس المادي لمنشأ التكنولوجيا



لا يزال العلم البرجوازي يعلم على ان التكنولوجيا قد نشأت وتطورت في الغرب فقط، كما لا يزال العديد من الاقتصاديين والعلماء في «العالم الثالث» يعتقدون ذلك، وهم يرون أن التكنولوجيا بعد ان نشات وتطورت ووصلت لما هي عليه من الارتقاء في سلم التطور في الغرب، حينئذ بدات بهجرتها ونزوحها إلى «العالم الثالث»، وهي حسب رأيهم قد هاجرت في بادىء الأمر إلى الدول ذات العلاقة الوطيدة مع الدول الأوروبية، والدول القريبة منها، ثم انتقلت إلى بلدان «العالم الثالث» الأخرى. وقد





□ قارب آلي يحمل دمى صغيرة متحركة، صممه الجزري.

في «العالم الثالث»

عبد الباقي شنان

انتقلت التكنولوجيا حسب رأيهم إلى بلدان «العالم الثالث» بعد أن تلمست هذه البلدان التنمية والبناء، ورغم اقتناع العديد من العلماء والاقتصاديين والباحثين في «العالم الثالث» بهذا الزعم، إلا أن زعمهم يبقى زعماً خاطئاً تماماً. على الرغم من أن لمزاعم هؤلاء تأثيراً مباشراً في اقتصاديات بلدانهم ومسار التنمية الاجتماعية فيها. وأن الأمر لا ينتهي ضرره بحدود زعمهم الخاطىء على الاقتصاد والتنمية الاجتماعية، بل يتعداه إلى ضرر جسيم يصيب أو يشمل البنية الاجتماعية.

وفي حال كهذا ليس غريباً أن نجد المثقف في «العالم الثالث» يندهش حينما يدور الحديث عن تاريخ أو منشأ التكنولوجيا العربية، او الآسيوية، أو الافرقية، الأميركية اللاتينية. ذلك لأنه يقف على ارث أو أرضية تعليمية رسخت عنده القناعة على أن التكنولوجيا ذات أصل أوروبي غربي، انتقلت حديثاً من أوروبا إلى بلدان «العالم الثالث».



لقد استطاع الاستعمار الأوروبي والدوائر التعليمية والاقتصادية البرجوازية في «العالم الثالث» ترسيخ الاعتقاد القائل: بأن بلداننا لا علاقة لها بالتطور العلمي ـ التكنولوجي. ذلك لأن للاستعمار أطماعه الاستغلالية في سلب خيراتنا، وطبيعي فأن ذلك لا يتحقق له دون تضليل هذه الشعوب بإشاعة الجهل والفقر والتخلف والمرض. والاستعمار استغل تصدير التكنولوجيا الحديثة من الغرب إلى بلدان «العالم الثالث» ليتبجح على أنه المنقذ لهذه الشعوب من تخلفها وجهلها.

أما الدوائر التعليمية كالمدرسة والجامعة فقد خدمت غايات الاستعمار بشكل مقصود أو غير مقصود، وذلك بربطها لتراث بلداننا بالسلالات القبلية (العشائرية) والطائفية، وبسلالات الأسر المتعاقبة على دفة الحكم والسلطان. ناهيك عما كان يفرزه التعليم الشعبي (الملالي) والاجتماعات والمناسبات اللاهوتية، والمشعوذين، والجدات، وانتشار المجالس الاقطاعية. حتى أن الناس كانوا يعتبرون أن المجالس الاقطاعية بمثابة مدارس أو أنها تعوض عن المدرسة، ولعل المثل الشعبي القائل «المجالس مدارس» قد جاء تعبيراً عن ذلك.

لقد علمت المجالس الاقطاعية أسوة بالمدارس الملائية (الملالي) والمناسبات اللاهوتية: بأن العلم والتكنولوجيا أعمال شيطانية وزندقة، لا بل كانت المجالس الاقطاعية والاهوتية تحارب حتى المدرسة البرجوازية نفسها، فعلى سبيل المثال، كان الاقطاع يحارب فكرة إيجاد مدارس في الأرياف، كما كانت العادات والتقاليد البائدة تحرم على البنات الذهاب إلى المدارس، وقد شمل ذلك المدن الكبرى، وإذا حدث وسعف الحظ بعضهن في الدخول إلى المدرسة، فإن عدد كبير منهن يحرمن من التعليم الجامعي وأحياناً كثيرة يحرمن من التعليم الثانوي. ولذلك فإن مجتمعاتنا لا تزال تعاني من انتشار الأمية خاصة في صفوف النساء. هذا ناهيك عن التخلف المريع في مناهج المدرسة البرجوازية، تلك المناهج التي اهملت الأدب وأصناف التراث المختلفة، ولم تهتم سوى بأنواع محددة من الأدب والفن وبأصناف قليلة وسطحية من التراث.

ولفترة قريبة من الزمن، أي قبل ثلاثة او أربعة عقود زمنية كان الناس المحترمون في العديد من بلدان «العالم الثالث» هم: المشايخ ورجال الاقطاع وحاشيتهم، في حين كان المجتمع يحتقر أولئك الناس الذين يمتهنون الحرفة كالحياكة (الحائك) والنجارة (النجار) والحدادة (الحداد).. إلخ. وهؤلاء كانوا في العديد من البلدان يعاملون معاملة أناس من الدرجة الثانية، الأمر الذي حد كثيراً من تطور الحرف لا بل أدى إلى ضمور واختفاء العديد منها.

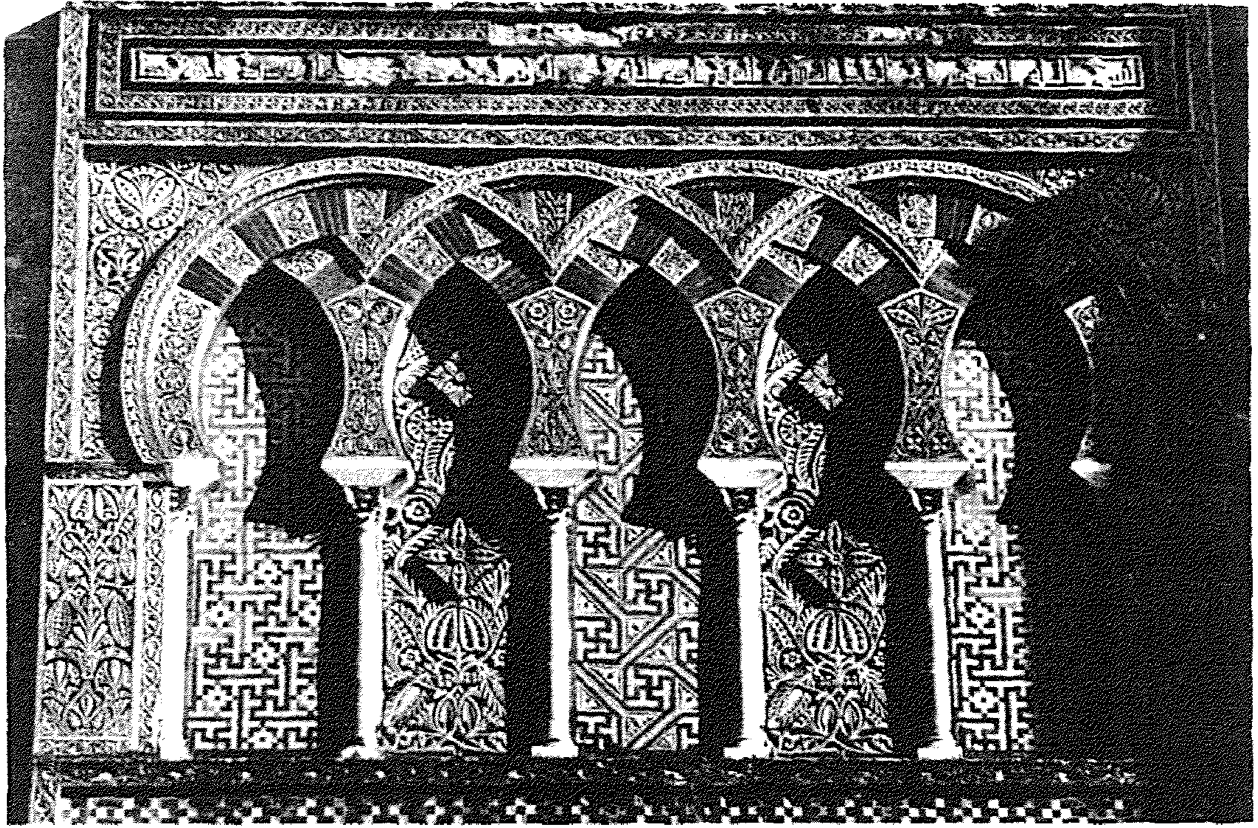
إذن في وضع كهذا كان لا بد أن تسود فيه الأنماط الانتاجية المتخلفة، كالأنماط الانتاجية البضاعية البسيطة، والأنماط الانتاجية الاقطاعية، أو شبه الاقطاعية، والأنماط الانتاجية البطريركية (الأبوية). وطبيعي فأن شيوع مثل هذه الأنماط الانتاجية في البنى الفكرية والاقتصادية والاجتماعية ظلت فاعلة لأزمنة حديثة، جعل من مجتمعات «العالم الثالث» وحتى الساعة مجتمعات استهلاكية بدل أن تكون مجتمعات إنتاجية.

ولكن مع أفول عصر الاستعمار، وغروب عصر السيطرة الامبريالية والاستعمار الجديد، ومع بروز عصر التحرر الوطني، برزت في «العالم الثالث» مجموعة فاعلة من العلماء والمفكرين والاقتصاديين والسياسيين والايديولوجيين، وتعتمد في تفكيرها وبحوثها ودراساتها الفكر العلمي التقدمي. وقد تناسق التطور الفكري والعلمي لهذه المجاميع الطلائعية مع تطور حركة التحرر الوطني في «العالم الثالث»، وتطورت أكثر فأكثر حينما برزت دول وطنية تهتدي بأفكار نقيضة للامبريالية والاستبداد، لا سيما وأن العديد من هذه الدول قد تبنت عن حق وبإخلاص أعمال ونشاطات علمائها واقتصادييها، وشجعت نتاجاتهم العلمية والتكنولوجية، كما شجعت كل عودة بحثية أو تنقيبية إلى التاريخ، وكان رائدها في ذلك هو دفع شعوبها نحو الرقي والتقدم.

وإلى رعيل الرواد في عصر الاستعمار، ورعيل الرواد في عصر النهوض، الوطني، إلى هؤلاء العلماء والباحثين والاقتصاديين والتكنولوجيين، يعود الفضل الأول في تنظيف أذهان جماهير واسعة من ظلمات البرامج التعليمية للمدرسة البرجوازية، ومن الشعوذة والخرافات، وإلى هؤلاء الرواد يعود الفضل الأول أيضاً بإعادتنا إلى حضارات قارات آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية، ودراستها دراسة نقدية ما أمكن إلى ذلك سبيلا.

وقد ساهمت هذه المجاميع الطليعية، المفكرة والباحثة، بمعرفة تاريخ التكنولوجيا في «العالم الثالث»، واستدلالنا إلى هذا التاريخ، كما ساهمت أيضاً وإلى درجة معلوم بدحض الآراء القائلة بأن منشأ التكنولوجيا في أوروبا فقط.

وبمساعدة هذه المجاميع الطليعية استطعنا ان نرى العلماء والاقتصاديون والباحثون البرجوازيون الغربيون على حقيقتهم، واستطعنا ان نميز دراساتهم ذات الاتجاهات المعادية لحضارات بلدان «العالم الثالث»، خاصة تلك الدراسات التي تتناول علوم واقتصاد وتاريخ «العالم الثالث»، وبذلك يشير الدكتور أحمد يوسف الحسن، إلى تناول هؤلاء للحضارة العربية واصفاً دراساتهم لحضاراتنا بأنها «تميزت بتصاعد الاتجاه المعادي للحضارة العربية، وتعمد تشويه الحقائق التاريخية»[1]، وبذلك فلا غرابة في الأمر حينما يرمز الأوروبي



□ جانب من الجدار الخارجي فوق إحدى بوابات جامع قرطبة الكبير، وفيه استخدم «التوريق» (الارابسك) كوسيلة معمارية وزخرفية استخدمها العرب في البناء.

الغربي إلى العربي، على أنه: إنسان بدوي متخلف لا يعرف في حياته سوى الجمال (جمع جمل)، في حين يتناسى مفكروا الغرب البرجوازي، إنه في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تغرق في ظلام دامس، كان العرب يحملون ظهور جمالهم بمختلف البضائع لتصديرها إلى بقاع مختلفة من الأرض، كما تناسوا أيضاً: أن جيوش أجدادنا العرب كانت قد دكت حصون جنوب فرنسا، كما غضوا الطرف وعن عمد عن أصل حضارتهم الحديثة، أصلها العربي (السومري والبابلي والفرعوني واليمني والكنعاني والأموي والعباسي والأندلسي) وأصلها والهندي والصيني، نقلها لهم العرب عبر الأندلس، ونقلوها هم عبر حروبهم الصليبية (سيئة الصيت). لقد نسوا بأن صناعة الطباعة والورق والبارود هي ليست لهم، بل للأمة الصينية العظيمة، وإن علم الحيل الميكانيكي هو علم أبدعه المهندسون العرب قبل عدة قرون.

وكان وما يزال العديد من العلماء والاقتصاديين والباحثين في الغرب ينكرون على حضارات «العالم الثالث» أسسها المادية ومستوياتها التكنولوجية، وبطبيعة الحال فإن هذا الأمر أمراً باطلًا وظالماً، لأن الحضارة العربية امتازت بأسسها المادية ومستوياتها التكنولوجية، خاصة في العصر العباسي. والعرب الذين لقنوا المعتدين الصليبيين درساً بالغاً، وألحقوا الهزيمة بجيوشهم الجرارة، تلك الجيوش التي أعدتها أكبر الدول الأوروبية وزودتها ما لديها من أسلحة ومعدات حربية، لم يتمكنوا من كل ذلك دون أن يكون لهم قوة عسكرية تكنولوجية هامة، لا سيما وأن جيوشهم كانت أقل عدداً من الجيوش الأوروبية الجرارة، وبذلك فقد تمكن العرب من سحق العدوان الهمجي للجيوش الأوروبية بشجاعة الجندي العربي واستبساله وإيمانه بدفاعه عن أرضه، وبإعداده للقتال إعداداً جيداً، وبامتلاكه أداة قتالية متطورة في أساسها المادي ومستواها التكنولوجي.

تاريخ التكنولوجيا في المنطقة العربية

للتكنولوجيا في المنطقة العربية ماض سحيق في

القدم، يعود إلى أولى أدوات إنتاج الانسان البدائي. وكان وجود التكنولوجيا محدد بوجود الانسان وأدواته الانتاجية البدائية، فقد استطاع الانسان البدائي بأدواته الانتاجية البسيطة إنتاج النار بعد أن اكتشفها عن طريق الصدفة، كذلك الحال بالنسبة للزراعة، وبعد أن تقدم وتطور في إنتاجه الزراعي استقر حول الأنهار ومناطق الرعي والصيد البري والبحري، ثم أوجد وبنى الحضارات التي تعمقت وتعقدت بتعمق معرفته وتعقد أدواته الانتاجية، حيث بنى الطرق والجسور والقصور الفخمة والحدائق الزاهرة الغناء، وأوجد له صناعات معينة وطورها، كما طور زراعته وفنونه وعلومه، وبنى المدن الكبيرة والعامرة والمعابد المهيبة. ثم تطورت كأدوات عمله كثيراً، ومارس الزراعة والتجارة والصناعة، وطور صناعاته وتاجر بمنتوجاته، مثلاً: اهتم المصريون بالصناعة في الألف الثالث قبل الميلاد(*). يقول في ذلك مؤلفوا كتاب «تاريخ العرب» لقد كان مبعث اهتمام المصريين في شبه جزيرة سيناء، لما فيها من مناجم النحاس والفيروز المتوافرة في وادي مغارة بجنوب سيناء قريباً من البلدة المعروفة اليوم بالطور، وفي العهد السابق لفجر التاريخ المصري كان بدو سيناء يبيعون هذه المنتوجات الثمينة في أسواق وادي النيل. ولقد تولى فراعنة السلالة الأولى شؤون التعدين في سيناء ولكنها لم تبلغ دور استثمارها الزاهر إلا أيام سنغرو نحو (٢٧٢٠ ق.م) من فراعنة السلالة الثالثة، وكانت الطريق العظمى التي تربط مصر بسورية وفلسطين وتصل منها إلى أنحاء الهلال الخصيب وآسيا الصغرى ــ وهي أول طريق أممية سلكها الانسان في التاريخ ــ يتجه منها فرع جنوبي غربي إلى مناجم النحاس والفيروز في سيناء»(٣).

وتوصل المصريون إلى اكتشاف النحاس نحو عام (٥٠٠٠ق.م)، واستخدموه في وجوه كثيرة، وبعد ذلك التاريخ وقعوا على عدد كبير من المعادن، واستطاعوا مزج النحاس بالقصدير للحصول على (النحاس الأصفر)، وكان ذلك نحو (٣٠٠٠ ق.م). ويشير بعض الباحثين بأن المصريين كانوا يأتون بالقصدير من جنوب العراق. ولما حلل العلماء المعاصرون عدداً من أدوات المصريين القدماء المصنوعة من النحاس الأصفر تحليلاً كيماوياً وجدوا فيها من القصدير مقادير تبلغ من ثلاثة بالمائة إلى أربعة عشر بالمائة، كما وجدوا في بعضها مقادير قليلة من الكوبالت والزرنيخ والحديد والنيكل.

كما عرف المصريون طلاء الفخار بالألوان نحو (٣٤٠٠ ق.م)، وحصلوا على الصبغ الأزرق من النبات نحو (٢٠٠٠ ق.م)، وصنعوا الزجاج على نطاق واسع، وقد صنعوا الزجاج من الرمل بنسبة (٦٦ ــ ٧٣ ٪) مضافاً إليه أوكسيد الصوديوم والكلس الحي وأوكسيد الحديد المائي وأوكسيد الألمنيوم وأوكسيد المنغنيز. وكانت تستخدم هذه المواد في صناعة الزجاج لتصفية لونه أو لتلوينه بألوان مختلفة، ألوان عدة كانت مرغوبة في ذلك العصر. كما عالجوا الحديد فجعلوا منه فولاذاً(٣).

وبرع المصريون القدماء في الميكانيكا القديمة المتسمة بالمهارة والبراعة والحذق، وقد سمى المصريون علم الميكانيكا بالآلات الرافعة، وكانوا يستعملونها في البناء خاصة بناء الاهرامات. وقد استعملوا وسائل وأساليب هندسية شديدة الأحكام والتعقيد، ومن أهم الوسائل على الاطلاق التي استعملوها كان «السطح المائل»، فقد استخدموا السطح المائل في بناء الاهرامات، كما هو الحال في هرم خوفو الذي يرجع تاريخ تشييده إلى ثلاثة آلاف سنة خلت، وهرم خوفو يتكون من ٢٣,٣ مليون قطعة حجرية، يصل وزن

(*) قد يتساءل القارىء أو المثقف العربي، عن جدوى عودتنا إلى الماضي، وما الضرورة التي تكمن في البحث عن أمجاد عابرة؟ لكن سؤال كهذا قد يكون قد تولد عن مشاعر سلبية رافضة البحث في الواقع المادي للحضارة ومستوياتها التكنولوجية، ولمثل هذه المشاعر السلبية ضرر كبير، حيث انها تفل من عزيمة المثقف وتؤثر على مسيرته التقدمية والعلمية، لذلك يقتضي الفهم على ان «البحث في التراث ليس عودة إلى الماضي فحسب، (بل) إنه دراسة للعوامل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية التي بعثت الحضارة... وهو أيضاً بحث في العوامل السلبية التي أوقفت مسيرة تلك الحضارة. وهو بالتالي بحث في العوامل التي تساعد على نهضة الأمة من جديد» د. أحمد يوسف الحسن، المصدر السابق.



□ فن ترصيع البرونز بالفضة والنحاس والذهب في العالم العربي (القرن السادس للهجرة).

الحجر الواحد منها بالمتوسط ٢,٥ طن. يقول في ذلك الدكتور محمد عبدالرحمن مرحبا: «لقد كان استعمال السطوح المائلة من أهم الوسائل التي تساعد على بناء هذا الهرم، لأن الطريق إليه كان مائلاً يبلغ ارتفاعه ٤٥,٨ متراً وبذلك تكون زاوية الارتفاع ٥,٣ درجة، وقد أعطى هذا الارتفاع بناة الهرم مكسباً كبيراً في رفع الأجسام الثقيلة على هذا الطريق. وقد استعانوا لتحقيق ذلك طبعاً بوسائل أخرى كالذراع والحلقة والحبل... إلخ»[٤]، ومن هنا نستدل أن هذا الاستخدام العظيم للأساليب التكنولوجية يدلل على تطور المعرفة التكنولوجية عند المصريين.

وإذا ألقينا نظرة عامة على تطور الأساليب التكنولوجية في حضرة وادي الرافدين، فأننا سنجد أن العراقيين كان لهم مبادىء عامة في علم الميكانيكا وظهر ذلك فيما توصلوا إليه من نتائج باهرة في علم الفلك ودراسة النجوم.. وكما هو معروف كان البابليون قد عرفوا «الشبه» (النحاس الأصفر) نحو عام (٣٠٠٠ ق.م)، ثم صنعوه نحو عام (٢٦٠٠ ق.م)، وذلك بمزج مقدار واحد من الرصاص بثلاثة مقادير من النحاس[٥].

ويستدل من الاستكشافات والأبحاث: إن طلاء الأواني النحاسية بالقصدير لمنع الصدأ والائتكمال (التأكسد) صناعة قديمة جداً، وهي لا تزال معروفة إلى اليوم بطريقة بدائية جداً حيث يحمون النحاس بالنار ثم يمررون عليه بقطعة من القصدير فيكتسي النحاس طبقة رقيقة من القصدير[٦].

وقد حدث في المنطقة العربية أول صهر للحديد في العالم وذلك نحو عام (١٤٠٠ ق.م)، وكانت خاماته تصهر في أفران مبنية من الحجارة نحو عشرة أقدام في الارتفاع، وأما قطرها فطوله ثلاثة أقدام. وكان الوقود الذي يستخدم لتلك الأفران هو الفحم، وتنفخ النار بمنفاخ ويظهر أن الفلسطينيين[*] كانوا قد استخدموا الحديد،

(*) الفلسطينيون: هم أقوام نزحوا من جزيرة «كريت» في القرن الخامس عشر، واستقروا في منطقة «الكسلوحيم» التي هي الشطوط المصرية على البحر المتوسط، وقد أطلق عليهم المصريون «الكسلوحيم» أو سكان البحر، أما اسمهم الحقيقي فهو «بلست» ولكن التوراة ذكرهم باسم «الفساطينيين».. وحينما تكاثروا ضايقوا القوافل المصرية وأغاروا على بعض البقاع، وبذلك جهز الفرعون رعمسيس الثالث جيشاً جراراً فضربهم، وقتل معظمهم وأسر الباقين وأسكنهم الساحل الجنوبي من فلسطين وذلك في القرن الثاني عشر قبل الميلاد... راجع: مقالة لي في مجلة «تاريخ العرب والعالم»، نيسان (ابريل) ١٩٨٢، ص ٧٢ ـــ ٨٥.

وحافظوا بتدقيق على أساليب صنعه، وانتشر استخدام هذا المعدن بين العبرانيين بعدما هزم شاول وداود الفلسطينيين[٧].

وعرف الفلسطينيون (الكريتيون) أصباغ الأرجوان (اللون الأحمر) الجميل المعروف باسم «لون الملوك» وقد استخرجوه من نوع خاص من التراب، والفينيقيون أيضاً كانوا قد استخرجوا الأرجوان، إلا أنهم استخرجوه من حيوان بحري صدفي يكثر في مياه الشواطىء اللبنانية والسورية.

هذه صورة موجزة عن الأسس المادية للتكنولوجية العربية في أصل الحضارات العربية القديمة. وقد تطورت هذه الأساليب في مرحلة ما قبل الاسلام.

التقدم العلمي ــ التكنولوجي العربي قبل الاسلام

بمرور الزمن تحسنت معارف العرب العلمية وأساليبهم التكنولوجية في تطوير صناعاتهم، كما تقدموا في الاستكشافات الجديدة وإيجاد طرق فاعلة في التعامل مع أنواع المعادن والمواد الأخرى التي أدخلوها في صناعاتهم. وقد ورد في شعر الحطيئة إشارات إلى ذلك حيث قال:

وحصى الكثيب بصفحتيه كأنه
خبث الحديد(*) اطارهن الكير(**)[٨]

ومن هذا القول يمكن الاستنتاج أن العرب الذين سبقوا الاسلام بقرنين أو ثلاثة قرون كانوا على قدر من المعرفة تخولهم التمييز بين أنواع الحديد المختلفة.

ويبدو أن صناعة الحديد كانت منتشرة في الجزيرة العربية وخاصة في اليمن السعيد، ويمكن الاستدلال على ذلك من قول أمية بن خلف الهذلي وهو يذكر الكير والنفخ في شعره.

يمانيا يظل يشد كيرا
وينفخ دائبا لهب الشواظ[٩]

وقد اشتهرت بلاد اليمن في صناعات مختلفة، وهذه البلاد كانت قد سبقت غيرها من بلدان الجزيرة العربية في صناعة المعادن وخاصة الصناعات الحديدية، ولعل كثرة الحديد في بلاد اليمن، واشتهارها به هو الذي جعل بلاد اليمن ذات شهرة واسعة بين العرب قبل الاسلام.

ويكثر الحديد «بعدن وفي الأراضي الممتدة بين صعدة والحجاز وفي نجران أيضاً جبل يستخرج منه معدن الحديد، وفي نقم وغمدان يوجد أيضاً معدن الحديد»[١٠].

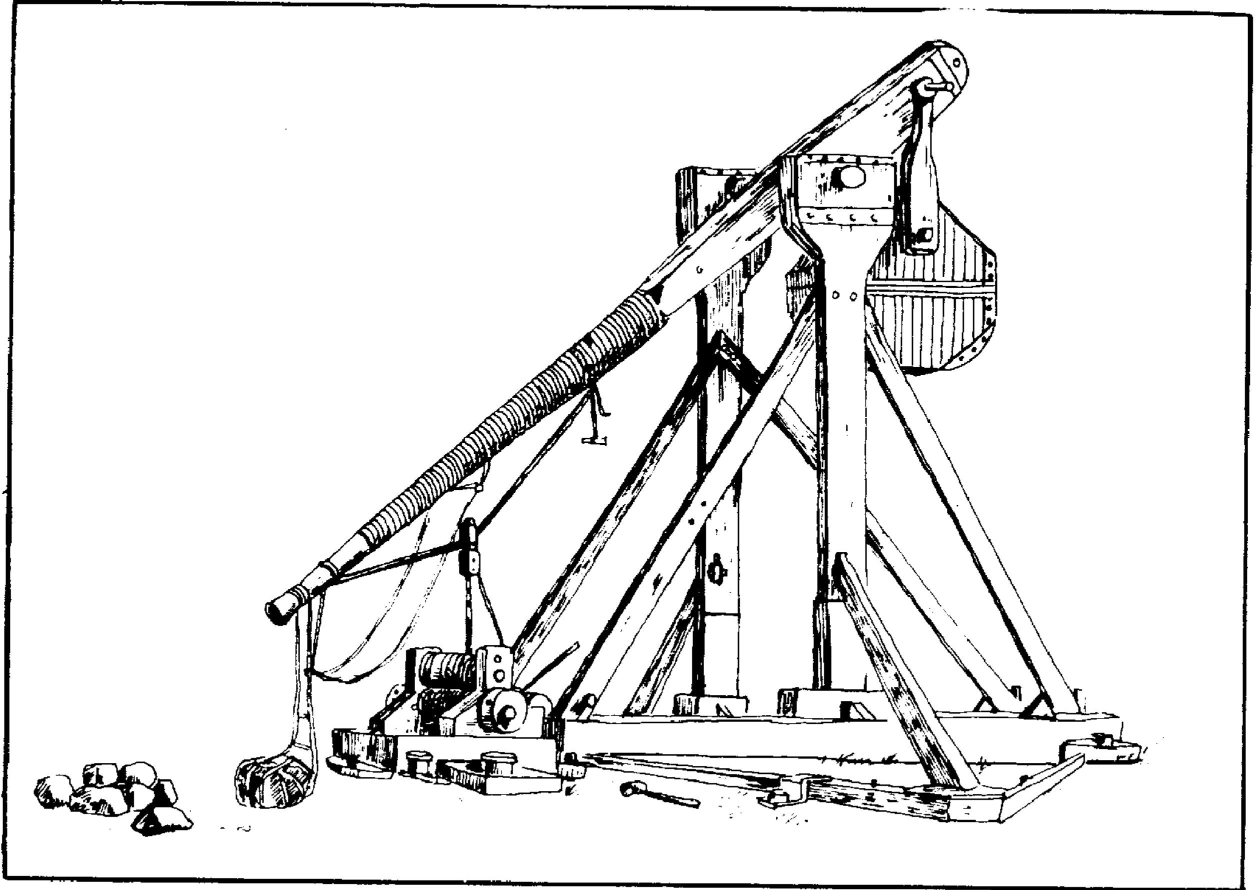
ولوجود الحديد بكثرة في بلاد اليمن والجزيرة العربية تفنن العرب بصنعه في هذه البقاع كما طوروا علومهم ومعارفهم في استخراجه وتصنيعه. يقول الدكتور حسين مروة: «كان معدن الحديد متوفراً في مضارب قبيلة بني سليم التي اشتهرت بصناعة الحديد، كما اشتهروا بصهره وتنقيته»[١١]. كما يذكر أن أول من صنع السنان هو «ذويزن» (ديرون الحميري)[١٢].

وقد عثر المنقبون العرب وغيرهم على عدد كبير من أدوات الصهر والأفران المستخدمة في صهر الحديد واستخلاصه من المواد الغريبة العالقة به وتصنيعه، وقد ذكر «فؤاد حمزة» في معرض تطرقه لهذا الموضوع انه عثر في جبل (تهلل) بجوار السودة في عسير على عشرات النقر لاذابة المعادن. وقد كان العرب في هذه البقاع يصنعون خام الحديد بعد عملية استخراجه في هذه النقر، ولاذابته يوقدون الأغصان والأخشاب لايجاد النار الكافية لاذابة المعدن، فإذا ذاب المعدن بالشكل المطلوب قاموا باستخلاصه من المواد العالقة به، ثم تجري له معالجة خاصة لتنقيته واستخراج فحمه، والمواد الأخرى التي تجعله هشاً قابلاً للكسر والثلم بسهولة، وتجري معالجته عدة مرات إذا كانوا يريدون حديداً تام النقاوة لاستخدامه في صناعة أدوات (مواد تتطلب تلك النقاوة، كصناعة السيوف الجيدة)[١٣].

ولم يقتصر وجود صناعة الحديد في المدن العربية الكبرى، بل انتشر في المدن الصغيرة وحتى في البادية، وقيل أن أول من عمل الحديد في البادية هو «الهالك بن مراد بن أسد بن

(*) المقصود هنا بخبث الحديد هو، الحديد غير الجيد، حيث كان العرب يطلقون على الحديد، الحديد الجيد والحديد الخبيث.

(**) الكير أو المنفاخ، هو من أهم أدوات الحدادين، والحداد يوقد في الكير النار ليحمي الحديد ويجعله ليناً يسهل طرقه واعطاؤه الشكل المطلوب. وعادة يستعمل الحداد المطرقة لطرق الحديد.



□ المنجنيق، إحدى الآلات التي استعملها العرب في فتوحاتهم الأولى.

خزيمة»(١٤). وقيل: أن «بني أسد يقال لهم القيون، لأن أول من عمل الحديد بالبادية الهالك بن أسد»(١٥).

والصناعات الحديدية عند العرب في الجزيرة العربية عديدة ومتنوعة فمن الفولاذ (الحديد الجيد) صنعوا أجود أنواع السيوف، ومن الحديد صنعوا أيضاً باقي الأسلحة.

وصناع السيوف لم يكتفوا بصناعة السيوف فقط، بل كانوا يملكون المعارف والطرق لتجميل صناعاتهم. ويذكر العرب «أن سعد بن جد قصي لامه، كان أول من حلى السيوف بالذهب والفضة وهو الذي أهدى إلى (كلاب) ـــ والد قصى ـــ مع ابنته (فاطمة) ـــ والدة قصي ـــ سيفين محليين، فجعلا في خزانة الكعبة»(١٦).

وقد استخدمت الأدوات والآلات الحديدية ذات الصنع العربي في الزراعة «بما في ذلك سكة المحراث»(١٧).

وما ينطبق على التفنن في الطرق والأساليب في الصناعات الحديدة ينطبق على الصناعات النحاسية، فتكنولوجيا الآلات والأدوات كانت هي الأخرى قد شهدت عزاً وتطوراً ملحوظين، فلنتأمل الأبيات الشعرية الثلاثة للهمداني(١٨) في وصف قصر غمدان.

يسموا إلى قصر السماء مصعدا
عشرين سقفاً سمكها لا يقصر
ومن السحاب معصب بعمامة
ومن الرخام منطق ومؤزر
وبكل ركن رأس نسر طائر
او رأس ليث من نحاس يزأر

كان في قصر غمدان رؤوس أسود صنعت من النحاس وهي التي قصدها الهمداني في شعره، ومن براعة الصناعة والتفنن في هذه الرؤوس النحاسية، ندرك مدى التقدم التكنولوجي عند العرب الحميريين وإلى أية درجة من المستويات الفنية كانوا قد وصلوا في صناعاتهم، فمثلاً أسودهم النحاسية مارة الذكر كانوا قد صمموها بحيث إذا حدث ريح ودخلت أجواف الأسود

النحاسية، فأن هذه الريح تزأر في أجواف الأسود كما تزأر الأسود الحية.

وإن استخدام الحميريون للأساليب التكنولوجية في صناعاتهم أوصلهم إلى صناعة سك النقود، حيث ضرب ملك حمير نقوداً «من الذهب والفضة والنحاس، تحمل صورته على أحد وجهيها، وصورة بومة على الوجه الآخر»(١٩).

أما صناعاتهم البرونزية فما وصلنا منها يدل أيضاً على تقدم تكنولوجي ومعرفي هام، فمن الأشياء الثمينة التي عثر عليها في (تمنع) القتبانية تمثالا أسدين صنعا من البرونز على ظهر أحدهما راكب، يحمل بإحدى يديه سهماً وباليد الأخرى سلسلة قد انفصمت، وفي رقبة الأسد طوق يطوق عنقه. كما ورد في كتابات الدكتور جواد علي، حيث كتب قائلاً: «وكتب التوفيق لسائح أوروبي آخر، هو الضابط الانكليزي (Coghlan) فحصل سنة ١٨٦٠م على عشرين لوحاً برونزياً سليماً، عثر عليها في أنقاض مدينة عمران. وقد أرشدت هذه الألواح المعدنية المستشرقين»(٣٠) إلى ناحية مهمة من البراعة التكنولوجية والتقدم العلمي والفني عند أجدادنا العرب.

وقد اشتهرت الجزيرة العربية أيضاً باستخراج الذهب، وقد ورد في الأغاني «أنهم حفروا حفيراً في زمن مروان، فوقفوا على أزج له باب، فإذا هم برجل كأعظم ما يكون من الرجال، عليه خاتم من ذهب وعصابة من ذهب وعند رأسه لوح من ذهب مكتوب فيه»(٢١)، وقد استطاع العرب من صنع تيجان ملوكهم من الذهب والعاج والحجارة الثمينة، كما صنعوا أثاثاً فاخراً وآنية منقوشة(٢٢).

كما كتب الدكتور جواد علي بأن علماء الآثار كانوا قد عثروا «في تمنع عاصمة القتبانيين على رأس لفتاة منحوت من رخام أبيض معرق، كما عثر على بقايا ملابس وأخشاب متآكلة وعلى حلى بعضه من ذهب، ومن جملتها عقد ذهب يتألف من هلال فتحته إلى الأعلى، أما حاشيته فإنها مخرمة، وقد زين الهلال باسم صاحبته»(٢٣).

وجاء ذكر الذهب في أكثر من مكان مما يدلل على أن الذهب كان رائجاً في شبه الجزيرة العربية، وذكر القرآن الذهب في الآيات التالية: «زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث»(٢٤)، و «الذين يكنزون الذهب والفضة»(٢٥)، و «أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب»(٢٦)، و «جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً»(٢٧).

ولأهل الجزيرة العربية طرقهم الخاصة في استخراج الذهب وتصنيعه، فقد عثرت «شركة التعدين السعودية العربية» على أدوات استعملها العرب قبل الاسلام في استخراج الذهب واستخلاصه من شوائبه، ومن الأدوات التي عثر عليها هي: رحى وأدوات تنظيف ومدقات ومصابيح وشاهدت آثار القوم في حفر العروق التي تكون الذهب(٢٨).

ويذكر أن في «يثرب»(٢٩) كان يوجد سوق للصناعة، وتعتبر مدينة «تدمر» مركزاً من مراكز الصناعة، فقد أشارت كتابة ترجع إلى منتصف القرن الثالث الميلادي إلى وجود نقابة «لصانعي الذهب والفضة»(٣٠).

وقد دخلت صناعة الذهب في عدة مواد مصنعة كالسيوف التي زينت فيها الأواني المنزلية الثمينة و «الجلود المذهبة (الأدم) التي كانت تصنع في الطائف واليمن»(٣١).

وشهدت الجزيرة العربية تطوراً في الأساليب التكنولوجية الخاصة باستخراج وصناعة كل من الحديد والنحاس والبرونز والذهب، كما تطورت أيضاً الأساليب التكنولوجية لصناعة الرصاص والكبريت والملح والفضة والمرجان واللؤلؤ والنقود والصناعات الدباغية والجلدية، وتطورت الأساليب التكنولوجية لصناعات أخرى مثل التطبيب والتجميل والخياطة وطحن الحبوب والخبز ــ إلخ.

تطور العلوم والتكنولوجية العربية بعد ظهور الاسلام

لم تتوقف حركة تطور العلوم والابداع التكنولوجي في المنطقة العربية بعد ظهور الاسلام سوى لفترة زمنية قصيرة، مردها انشغال العرب في نشر دينهم الجديد (الاسلام) واهتمامهم

بالفتوحات، ولكن حتى في هذه الفترة وجدت عندهم الأساليب التكنولوجية في صناعة السيوف، وبرز رائد الاسلام الأول النبي محمد ومعه ابن عمه الشاب الامام علي بن أبي طالب كرجلي سياسة وعلم. فمن أقوال النبي محمد الشائعة قوله: «أنا مدينة العلم وعلي بابها» و «طلب العلم واجب على كل مسلم ومسلمة» و «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد» و «اطلبوا العلم ولو كان في الصين».

والنبي محمد أول من حارب الأمية في الجزيرة العربية في السنوات الأولى لثورته، حيث أمر الأسرى القريشيون الذين يقرأون ويكتبون، أن يعلمون أتباعه (الصحابة) القراءة والكتابة وهذا بحد ذاته عمل جليل للانطلاق بالجزيرة العربية من الظلمات إلى النور.

إن أول من مارس الأمور العلمية والمعرفية في الاسلام بشكل ملموس واتخذها له عملاً، هو خالد بن يزيد بن معاوية، الذي درس الكيمياء والطب، وأمر بنقل الكيمياء والطب إلى العربية[٣٢]، ولكن للأسف الشديد لم يصل إلينا اي كتاب مؤلف أو مترجم من العصر الأموي لحد الآن.

أما العصر العباسي فيعتبر عن حق، عصر العلم العربي والابداع التكنولوجي، حيث بلغت الحضارة العربية في هذا العصر أوج تطورها.

ففي هذا العصر اتسعت الثقافة العربية اتساعاً كبيراً لما دخل عليها من ثقافات الأمم الأخرى، نتيجة حركة الترجمة الواسعة، وتبني الدولة بشكل رسمي للثقافة والعلوم. فمنذ أيام أبي جعفر المنصور (ت ٧٧٥م) أصبحت الترجمة إلى اللغة العربية من اللغات في رعاية الدولة، وفي زمن الخليفة المأمون، نشأت أكبر مكتبة عرفها العالم في ذلك الزمان وهي، «مكتبة الحكمة» وقد زودها المأمون بأنفس الكتب من شتى أصقاع الأرض وأبقاعها، حتى أنه حينما انتصر على ملك الروم، سنة (٨٣٠م)، علم بأن اليونان كانوا ـــ لما انتشرت الديانة المسيحية في بلادهم ـــ قد جمعوا كتب الفلسفة من المكتبات والقوا بها في السراديب، فطلب المأمون من ملك الروم أن يعطيه هذه الكتب مكان الغرامة التي كان قد فرضها عليه فقبل الملك «توفيل (يثوفيلوس)» بذلك وعده كسباً كبيراً له. أما المأمون فعد ذلك نعمة عظيمة عليه[٣٣].

كما اتسعت المعرفة في ميدان التكنولوجيا، خاصة التكنولوجيا الميكانيكية، التي انتقلت في بعض الأحيان عن طريق الكتابة، والتي اشتملت على زمرتين واضحتين: الأولى هي تلك الآلات المصممة للاستعمال اليومي كالطواحين وآلات ضخ المياه وأدوات الحرب، والثانية تلك الأجهزة التي صممت كي تثير الدهشة والمتعة الجمالية بالنسبة لدوائر البلاط التي كانت تأمر بصنعها. وقد برع في صناعة الزمرة التكنولوجية الميكانيكية الأولى أهل العراق، حيث عالج أهل البصرة مشكلة من أحدث مشكلات حركة الماء، وذلك أنه كان عندهم الجزر والمد، وكان الماء يزورهم كل يوم وليلة مرتين (كما هو اليوم)، ففي أثناء المد يدخل الماء الأنهار، وفي أثناء الجزر ينحسر راجعاً، فعمدوا إلى أرحية أقاموها على أفواه الأنهار ليديرها الماء في أثناء حركته خارجاً وداخلاً[٣٤]. ولم يكن الناس يستعملون الدواب في إدارة الطواحين إلا في الجهات التي ليس بها أنهار.

وكانت أكبر الأرحاء العائمة تقوم على نهر دجلة وتحديداً في مدن الموصل وتكريت وبلد والحديثة وبغداد. ولهذه الطواحين فصل تدور فيه، وهو المدة التي تحمل فيها الحنطة في السفن إلى العراق من أرجاء الامبراطورية العباسية إلى العراق. ويكتب آدم منز أستاذ اللغات الشرقية بجامعة «بازل. بسويسرا في كتابه «الحضارة الاسلامية في عصر النهضة في الاسلام» قائلاً: «وقد انتهى إلينا وصف مطاحن الموصل، فكانت تسمى الواحدة منها عربة، وهي مصنوعة من الخشب والحديد الذي لا يمازجه شيء من الحجر والجص، وهي تقوم في وسط الماء بسلاسل حديد، كل عربة فيها حجران، يطحن كل حجر منها خمسين وقراً في كل يوم. وكان أكبر رحى ببغداد رحى يقال لها البطريق، فقد كانت مائة حجر تغل في كل سنة مائة ألف درهم»[٣٥]

ويحكى عن أبي لؤلؤة فيروز، قاتل خليفة المسلمين الثاني عمر بن الخطاب، أنه قال: لو شئت أن أصنع رحى تطحن بالريح لفعلت[٣٦].

وكانت الرحى عادة تتكون من ثمانية اجنحة، وتكون وراء عمودين ينفذ بينهما الهواء كالسهم، والأجنحة تقوم عمودية على قائم عمودي أيضاً، طرفه الأسفل يحرك حجراً، فيدور هذا الحجر على حجر آخر(٣٧).

إن هذه الأساليب التكنولوجية التي تعتبر في وقتها أساليب متطورة جداً، كانت قد خدمت الزراعة والتجارة معاً، إضافة إلى كونها إنجاز صناعي هام.

أما بالنسبة للزمرة الثانية من التكنولوجية الميكانيكية فهي لم تكن بعيدة كل البعد عن الزمرة الأولى حيث أن بعض مبتكري الأجهزة البارعة أو «الحيل» مثل ابن الرازي، الجزري قد صمموا أيضا آلات مفيدة، فقد كانوا على معرفة كبيرة بأعمال النجارين ومركبي الطواحين واقتبسوا من هؤلاء الكثير من مفرداتهم، والكثير من تقنياتهم وأدواتهم وآلاتهم، كما تعلموا قدراً كبيراً جداً من تقنية الصناع المهرة الذين كانوا يصنعون أشياء وأشياء لأغراض كمالية وبيتية كالحدادين والصائغين والرسامين وصناع السيراميك(٣٨).

وإن الحديث عن الزمرة الثانية للتكنولوجيا الميكانيكية يعني الحديث عن أهم فروعها ألا وهو علم «الحيل»، والحديث عن علم الحيل هو من جهة حديث ممتع وشيق ومن جهة أخرى حديث يضعنا أمام أعظم الانجازات التكنولوجية للعرب.

□ **علم الحيل (الآلات)**: في السنوات السبع الماضية نشرت ثلاث مؤلفات هامة جداً في الهندسة الميكانيكية العربية، في اللغتين العربية والانكليزية في كل من حلب ولندن، والكتب هي «الجامع بين العلم النافع في صناعة الحيل» لأبي العز الرزاز الجزري، و «الحيل» لبني موسى، و «الطرق السنية في الآلات الروحانية» «لتقي الدين محمد بن معروف الراصد» وقد نشرت هذه الكتب الثلاثة والتي صدرت بالعربية نشرت في حلب.

وتمثل هذه الكتب تراث تكنولوجي عالي الرقي وغني في المعرفة، إضافة إلى كونها تعكس المستوى الميكانيكي والأساليب التكنولوجية عند أجدادنا العرب في العصر العباسي.

لقد كان للعرب في علم الحيل أهدافاً كثيرة، وكانوا يهدفون من وراء علم الحيل إلى البحث في الطرق الأسهل لجر ورفع الأثقال وتسيير الأجسام والآلات بالقوة اليسيرة، «فكان لهم في هذا المجال بحوث نفسية في الروافع وآلات الرفع وكلها مبنية على قواعد ميكانيكية. كما كانوا يهدفون إلى صناعة الآلات النافعة والمسلية في آن واحد. لذلك فقد انتشرت عند العرب صناعة الدمى والتماثيل المتحركة والأواني العجيبة»(٣٩).

ويأتي في طليعة العلماء الذين برزوا في علم الحيل والهندسة الميكانيكية كل من أبناء موسى بن شاكر والجزري والراصد وأبو عامر الأندلسي وكتابه «الباهر في عجائب الحيل» وابن العظيم كما نقل العرب عدة كتب تتناول التكنولوجية الميكانيكية، حيث نقلوا كتاب «الثقل والخفة» لاقليدس، وكتاب آلة ساعات الماء التي ترمي بالبنادق لارشميدس، وكتاب «المخروطات» لابلونيوس، وكتاب الآلات المصوتة المسماة بالارغن (ارغانون)(٤٠).

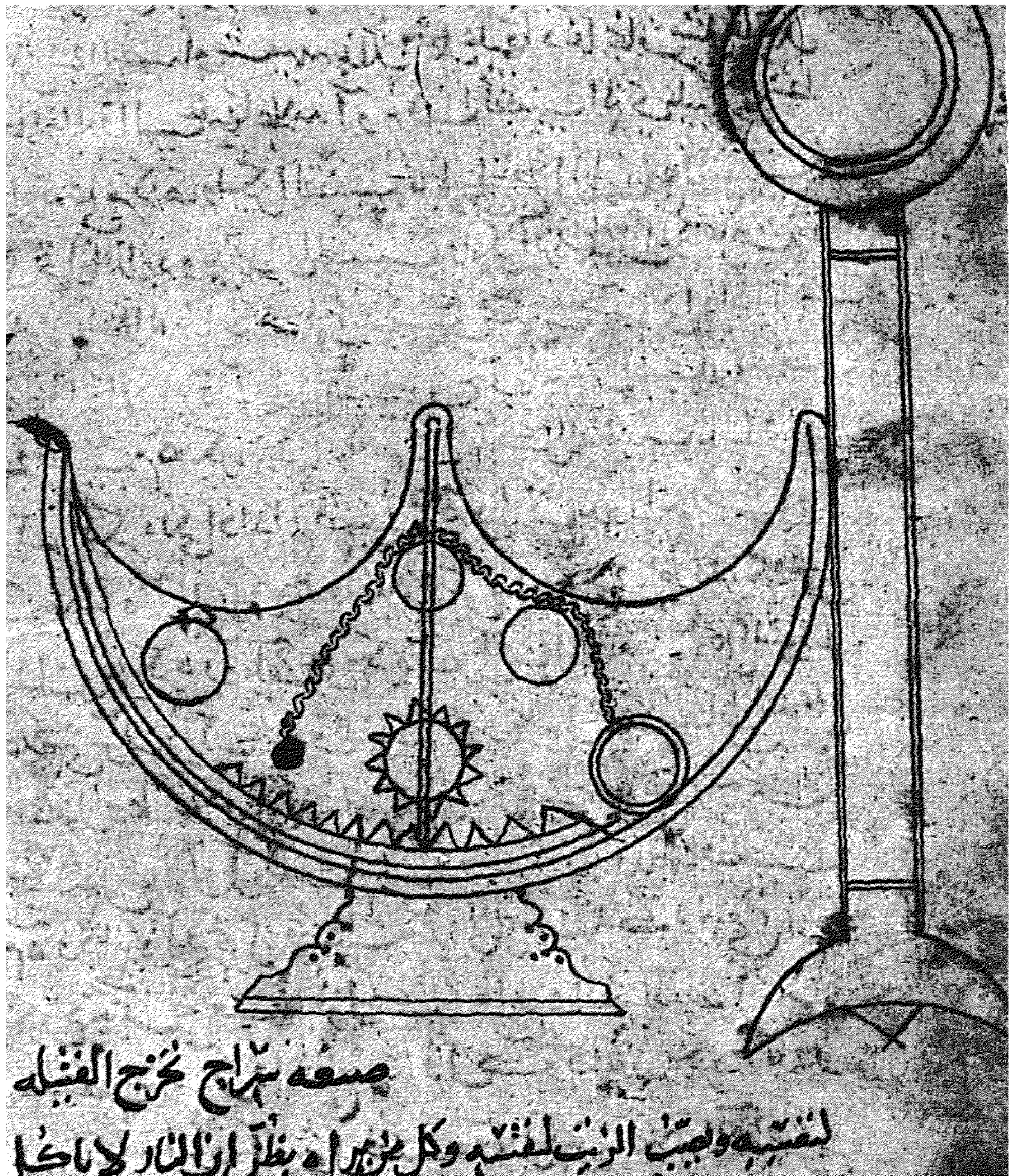
□ **أبناء موسى وعلم الحيل(*)**: ذكرنا أن لبني موسى كتاب مشهور هو «الحيل»، وقد وجد الباحثون ثلاث نسخ لهذه المخطوطة، النسخة الأولى في الفاتيكان تحت رقم ٣١٧، والثانية في توب كابي تحمل الرقم ٣٤٧٤، والثالثة في برلين وغوته، حيث وجد قسم في برلين تحت رقم ٥٥٦٣، وآخر في غوته تحت رقم ١٣٤٩(٤١).

وقد اطلع على هذه المخطوطة علماء غربيون فدرسوها وحللوها (منهم) «دونالد هيل» الذي ظهر كتابه تحت عنوان:

The Book of ingenious devies (Kitab al-Hiyal) by the Bana musa bin Shakir.

ويصف كتاب الحيل مائة جهاز: ثمانون منها من النوع الذي سماه العرب «الأواني العجيبة»

(*) موسى بن شاكر احد اشهر المنجمين في عهد الخليفة العباسي المأمون، له ثلاثة ابناء اكبرهم ابو جعفر محمد (ت ٨٧٣م)، يليه اخويه احمد والحسن، وقد اشتهر بنو موسى هؤلاء بالبراعة في الرياضيات والهندسة والحيل وعلم النجوم وفي الموسيقى، وقد اهتموا كثيراً بالترجمة، وبنوا في دارهم ببغداد مرصد للنجوم. ويعتبر فيهم أخوهم أبو جعفر محمد أوفرهم حظاً في الالمام بالهندسة وعلم الفلك، واحمد برع في علم الحيل، والحسن انفرد بعلم الهندسة.



□ رسم بياني لسراج من السرج المتبرقشة تلقائياً، من «كتاب الحيل» لأحمد بن موسى.

وهي أجهزة تعمل تلقائياً. وتتألف الأجهزة الباقية من الفوارات التي تتغير أشكالها تلقائياً في فترات زمنية معينة، ومن المصابيح التي تغذي نفسها تلقائياً، ومن أجهزة أخرى. ومنها جرافة ميكانيكية لالتقاط الأشياء من قاع البحار والأنهار(٤٢).

ووصف بنوا موسى أجهزتهم بكل وضوح ودقة في كتاباتهم، وقد كانت آلاتهم وأوانيهم بمثابة «النواة التي تطور منها علم التحكم الآلي. ولا تزال بعض مبادىء التحكم الآلي الحالية مشابهة لبعض المبادىء الواردة في كتاب الحيل. وتعتمد معظم أجهزة بني موسى على مبدأ توازن

السوائل.. وعلى مبادىء الميكانيك»[٤٣].

وقد كان بنوا موسى إضافة إلى تمكنهم من المبادىء النظرية على جانب كبير من الخبرة العملية، حتى أنهم كانوا يتعاونون مع حرفيين ماهرين من أجل تنفيذ تصاميمهم، وهذه الصلة الرابطة بين المصممين والحرفيين تدل على تبادل الرأي للتأكد من سلامة التصميم، وتدل أيضاً على أن العلم كان لا يقف عند حدود النظرية، بل يتحول إلى تطبيق عملي.

ونشير هنا إلى بعض التصاميم أو التركيبات الميكانيكية عند بني موسى في كتابهم الحيل، فالمضخة المائية التي كانت تسمى كأس العدل، يصفون لنا بنو موسى فيها كيفية عملها على الشكل التالي: «نريد أن نبين كيف نعمل كأساً يصب فيه مقدار من الشراب أو الماء فإذا زيد عليه بقدر مثقال من الشراب أو الماء خرج كل شيء فيه.

مثال ذلك كأس (آبَ) ونعمل فيه أنبوب (دَحَ) وطرفه الذي عليه أنبوباً آخر عليه (ةَ و) ويكون خلافاً لأنبوب (ح د) ويكون طرف (ةَ) مسدوداً وطرف (وَ) مفتوحاً قريباً من أسفل الكأس فقد يبين أنه إذا صب الشراب في كأس (آبَ) لا يزال يرتفع فيه ولا ينصب منه شيء حتى يبلغ إلى علامة (حَ) التي هي في طرف أنبوب (دَحَ) فإذا زيد عليه من الرطوبات بقدر مثقال يسيل الشراب من أنبوب (حَ دَ) وخلف بعضه بعضا يتفرغ كل شيء في الكأس لأن طرف أنبوب (حَدَ) الذي عند (دَ) أسفل من طرف أنبوب (ةَ) الذي عليه (وَ) ولأن المواد السائلة طبعها أن تنحدر فلذلك نبين أنه إذا صب في كأس (آبَ) المقدار الذي هو إلى نقطة (حَ) ثم يزداد منه مثقال فإنه يصب كل شيء فيه إلى الخارج من أنبوب (آدَ) وذلك ما أردنا أن نبين»[٤٤].

إن هذا النص الذي أشرنا إليه مقتطع من مخطوطة الفاتيكان التي تحتوي على (١٧٨) صفحة كتبت بلغة عربية صحيحة.

إنه كتاب الحيل لبني موسى الذي قال عنه ابن خلكان (ت ١٢٨٢م): «كتاب عجيب نادر يشتمل على كل غريبة. ولقد وقفت عليه فوجدته من أحسن الكتب وأمتعها. وهو مجلد واحد»[٤٥].

ولبني موسى كتب أخرى فلم يقتصر تأليفهم على كتاب الحيل المشهور، فلهم بعلم الحيل كتاب القرسطون (الميزان الذي يوزن به الذهب)، وكتاب وصف الآلة[٤٦].

□ **عباس بن فرناس (ت ٢٤٧هـ ــ ٨٦١م)**: وهو واحد من مشاهير الأندلس وأحد حكمائها، وهو صاحب اختراعات وتوليدات: صنع (المنقانة» وهي آلة لحساب الزمن، ويحكى أنه احتال في تطير نفسه فكسا جسمه بالريش وركب له جناحين (ثم قفز من منارة ــ مئذنة ــ قرطبة) في الجو مسافة بعيدة. ولكنه لم يجعل لنفسه ذنباً لموازنة جسمه عند الهبوط ولحمايته من السقوط أثناء الهبوط، فما كان منه إلا أن وقع على مؤخرته وقوعاً شديداً فمات[٤٧].

أما أبو سعيد عبدالرحمن بن أحمد بن يونس المصري (ت ٣٩٩هـ ــ ٩٣١م) فهو الذي اخترع الرقاص.

ويليه أبو الصلت أمية بن عبدالعزيز بن أبي الصلت (ت ٥٢٩هـ ــ ١١٣٤م)، الذي برع في فنون الأدب والعلم، ومن مآثره العلمية، أنه حدث في إحدى المرات أن وصل إلى الاسكندرية سفينة محملة بالنحاس، وحدث أن غرقت في القرب من شاطئها، وكان الزمن زمن الحروب الصليبية، فتقدم أبو الصلت للأفضل حاكم الاسكندرية وعرض عليه خطته لرفع السفينة من قاع البحر.

وكانت خطته أن بنى مركباً وجعله على سطح الماء بموازات المركب الغارق، ثم ربط المركب بحبال البريسم (الحرير) بعد أن برمها برماً جيداً، وجعل أطراف تلك الحبال على عتلات، ثم أمر الرجال بإدارة تلك الدواليب، وبالفعل فقد تمكن من رفع السفينة فوق سطح الماء، إلا أن السفينة بعد أن ارتفعت فوق سطح الماء زاد وزنها فانقطعت الحبال.

إن خطة أبي الصلت لاخراج السفينة واستعماله العتلات يدلان على أية درجة من التطور كان قد وصل إليها علم الحيل، كما يدلان على براعة أبي الصلت في علم الحيل من الناحيتين النظرية والعملية[٤٨].

ثم تلا أبي الصلت عالم آخر هو كمال الدين موسى بن يونس بن محمد العقيلي الموصلي الذي

عرف أشياء كثيرة عن تذبذب الرقاص.

أما الخازن فيعد أحد علماء الصف الأول الذين تناولو علم الحيل وكتابه «ميزان الحكمة» الذي يعد من أكثر الكتب استيفاء لبحوث الميكانيكا.

ففيه بحوث في الطبيعة ــ ولا سيما في الميكانيكا ــ بلغ فيه صاحبه الذروة... ويستفاد من هذا الكتاب أنه كان لدى الخازن آلات خاصة لأوزان النوعية ولقياس حرارة السوائل، كما بحث فيه أيضاً الجاذبية وخواص الجذب والضغط الجوي، ونبه إلى أن الهواء قوة رافعة كالسوائل سواء بسواء. وله شرح واف لبعض الآلات البسيطة وكيفية الانتفاع بها، وإلمام واسع بالقوانين التي يقوم عليها اتزان الميزان والقياس(٤٩).

□ **بديع الزمان أبو العز اسماعيل بن الرزاز الجزري**: لقد أكمل المهندس العربي الكبير الجزري كتابه «الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل» ومن المعروف أن ما يوجد من هذا الكتاب خمسة عشر مخطوطة منسوخة أربعة عشر منها باللغة العربية، ويحمل أقدمها تاريخ عام ١٢٠٦م وتحمل اسم «كتاب معرفة الحيل الهندسية».

وقد أجمع المؤرخون على أن الكتاب يعد عملاً فريداً من نوعه ومن أعظم الكتب في الهندسة الميكانيكية حتى في العصور الحديثة. يقول (د. ر. هيل): «لم تكن بين أيدينا حتى العصور الحديثة أي وثيقة من أي حضارة في العالم فيها ما يضاهي كتاب الجزري من غنى في التصاميم وفي الشروحات الهندسية المتعلقة بطرق الصنع وتجميع الآلات» ويقول سارتون: «هذا الكتاب أكثر الأعمال تفصيلاً من نوعه ويمكن اعتباره الذروة في هذا المجال بين الانجازات الاسلامية».

ويحتوي الكتاب على وصف خمسين آلة أو جهاز كالساعة المائية والأباريق التي تعمل بصورة تلقائية وأواني مجلس الشراب والأقفال التي تعمل بالحروف وآلات رفع الماء (٥٠).

ونعود إلى دونالدر. هيل الذي يعد له الفضل الكبير في التعريف بالجزري وأعماله الهندسية العظيمة، نعود له ليحدثنا عن أعمال هذا المهندس العربي الكبير بقوله: «كرس الجزري



□ آلة موسيقية على شكل قصر، أورد الجزري تصميمها في «كتاب في معرفة الحيل الهندسية» وفيها دمية على شكل خادمة تقدم الشراب للضيوف.

عدة فصول إلى الأجهزة الحاذقة. فمثلاً ثمة أباريق يمكن إفراغ أنواع مختلفة من السوائل منها وذلك من خلال وضع الصنابير في وضعيات مختلفة، وأباريق أخرى يمكن صب الماء الساخن او البارد أو الفاتر من ميزاب واحد فيها، وأخرى تفرغ أوتوماتيكياً كمية محددة من الماء ولقد تم الحصول على هذه النتائج من خلال البراعة في استعمال السيفونات وعوامات خزانات المياه والصمامات ومن خلال تطبيق تجريبي لمبادىء علمي توازن السوائل وتوازن الهواء... وساعات الجزري الخالدة على وجه التحديد هي ما تبدي أكثر سلسلة مؤثرة من آليات الحيل. فثمة دوائر تمثل منطقة البروج والشمس والقمر وتدور في سرعة ثابتة، وطيور تطلق من مناقيرها كرات صغيرة على الصنج لكي تدق الساعة معلنة الوقت، وأبواب مفتوحة تكشف عن تماثيل

متناهية الصغر في داخلها. كما يظهر في فترات زمنية منتظمة الموسيقيون ـ الطبالون ونافخو الأبواق وناقروا الدفوف وغيرهم ـ يعزفون على آلاتهم. وكان يشغل هذه الحيل عادة تيار مائي هابط من خزان بمعدل ثابت. وكان المحرك الرئيسي للساعة سلك يلتف حول بكرة في أعلى التيار، ويدير دائرة البرج بمساعدة بكرات أخرى، ويسحب عربة صغيرة ذات عجلات ـ يثبت عليها قضيب عمودي مهمته تحريك التقنيات المتحركة. وأما الموسيقيون فقد كانوا يباشرون عزفهم من خلال إفراغ الماء من الخزان بشكل ثابت إذ كان الماء يسقط في وعاء ما نقطة فنقطة ليتحرر في اللحظة المطلوبة، وكان يسيل في مغارف (دلاء) دولاب الماء الذي كان محوره مجهزاً بحدبات (بندقات) يصطدم بقطع إضافية بأذرع العازفين الناقرين ومن قنات تحت دولاب الدلاء كان ينطلق الماء في حجرة هوائية ترتبط في صفارة آلية تمثل أصوات نافخي الأبواق. وحين كان الماء يرتفع إلى قمة الحجرة الهوائية كان يتم إفراغه في الخزن بواسطة سيفون (زراق)...[٥١].

والجزري الذي عرف مهندساً ميكانيكياً ومخترعاً مرموقاً كان يصف ما اخترعه بنفسه «ولم يسبقه إليه أحد»، وهو يمتاز بمهارة عالية في التأليف الهندسي وفي الرسم الصناعي وفي التعبير الجيد بوصفه لأدق الآلات وأكثرها تعقيداً بكل سهولة ويسر، ويؤمن إيماناً كبيراً بالتجارب والمشاهد العلمية ولا يؤمن بعكس ذلك. وكان يحمل لقب «الشيخ ريس الأعمال» وهو يرادف لقب رئيس المهندسين في عصرنا.

تقي الدين دفع التكنولوجيا العربية خطوات إلى الأمام

حينما يدور الكلام عن أبناء موسى بن شاكر وعن الجزري فان الكلام سيكون ناقصاً إذ لم يشمل تقي الدين صاحب كتاب «الطرق السنية في الآلات الروحانية».

فقد جاء كتاب تقي الدين كاستمرار لتقاليد الهندسة الميكانيكية العربية، فهو إضافة إلى اهتمامه بالعديد من الآلات التي وصفها الجزري فقد أضاف الكثير من الآلات التي استجدت والتي لم تذكر في كتب سابقة.

ومن الجدير بالذكر أن كتاب الآلات الروحانية قد انتهى تقي الدين من تأليفه عام ١٥٥٢م أي قبل أربع سنوات من ظهور كتاب (اغريكولا)، كما سبق (راملي) بـ ٣٦ عاماً، وهكذا فقد وصف تقي الدين نفس الآلات قبل غيره من العلماء الأوروبيين بعدة سنوات.

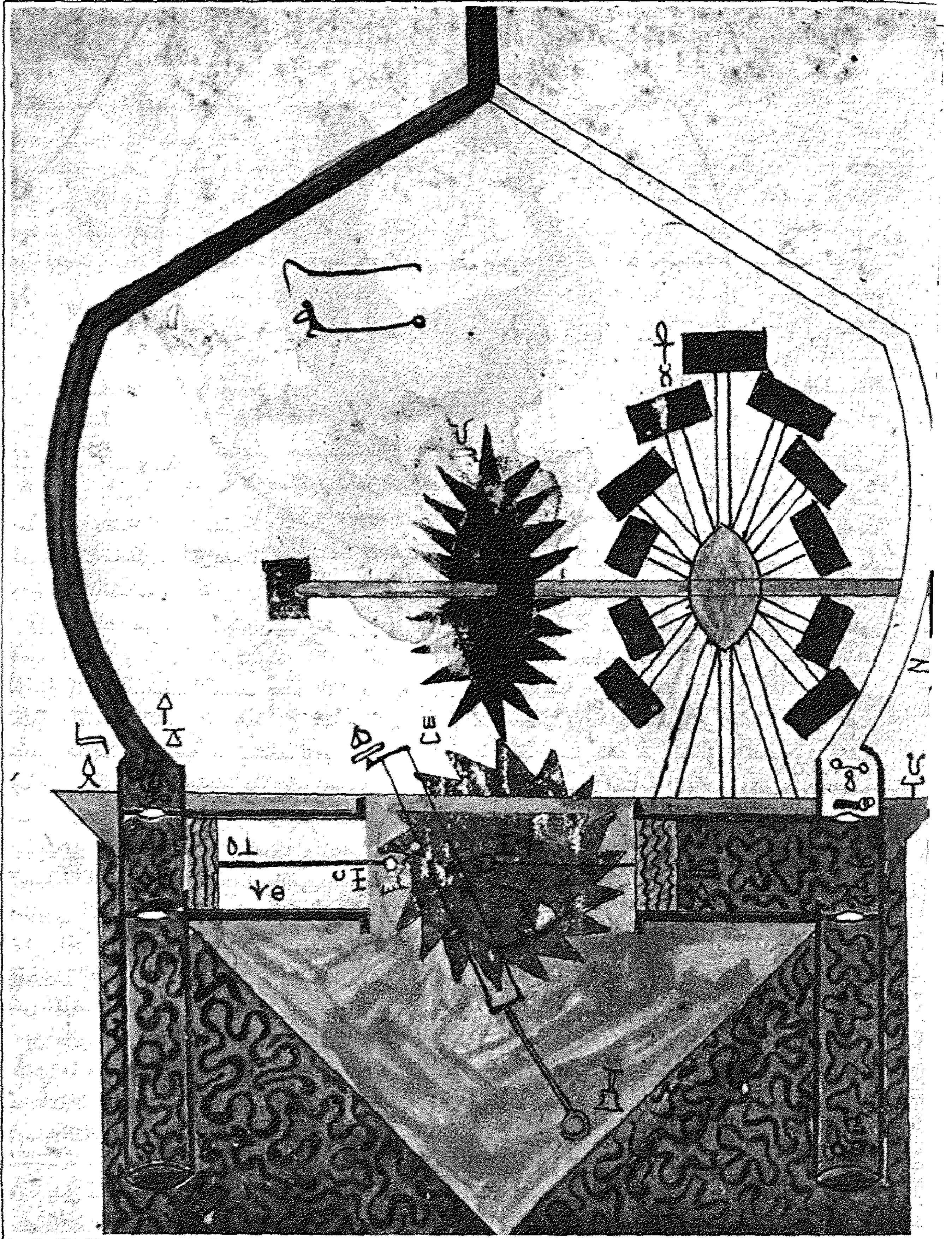
وقد حوى كتابه وصفاً وافياً «للساعات الفلكية والمائية وآلات جر الأثقال وآلات رفع الماء وآلات عمل الزمر الدائم والفوارات وأنواع من اللطائف»..[٥٢].

وفي نهاية كتابه يصف لنا أحد التصاميم الذي صممه بمساعدة أخيه والتصميم هو «العنفة البخارية»، ومن الجدير بالذكر أن هذه الآلة مرتبطة باسم ويلكنز على اعتبار انه أول من وصفها وذلك في عام ١٦٤٨م علماً أن تقي الدين صمم آلته المذكورة عام ١٥٥١م.

كما ورد في كتابه «المضخة ذات الاسطوانتين المتقابلتين» التي وردت في كتاب الجزري ولهذه المضخة أهمية كبيرة في دراسة تاريخ الهندسة المعاصرة، لأنها احتوت لأول مرة في عصرهما عصر الجزري وتقي الدين بالشكل التطبيقي على ثلاثة مبادىء هامة: «هو مبدأ المحرك المزدوج المفعول (doubel acting)، والثاني هو استخدام الآلية المعروفة باسم (scotch yoke) لتحويل الحركة الدورانية إلى حركة ترددية، والثالث هو استخدام أنابيب الامتصاص الحقيقية لأول مرة في المضخات، ولهذه الأسباب كلها اعتبر مؤرخوا التكنولوجيا هذه الآلة بأنها الرائدة في تطوير المحرك التجاري والمضخات المكبسة فيما بعد[٥٣].

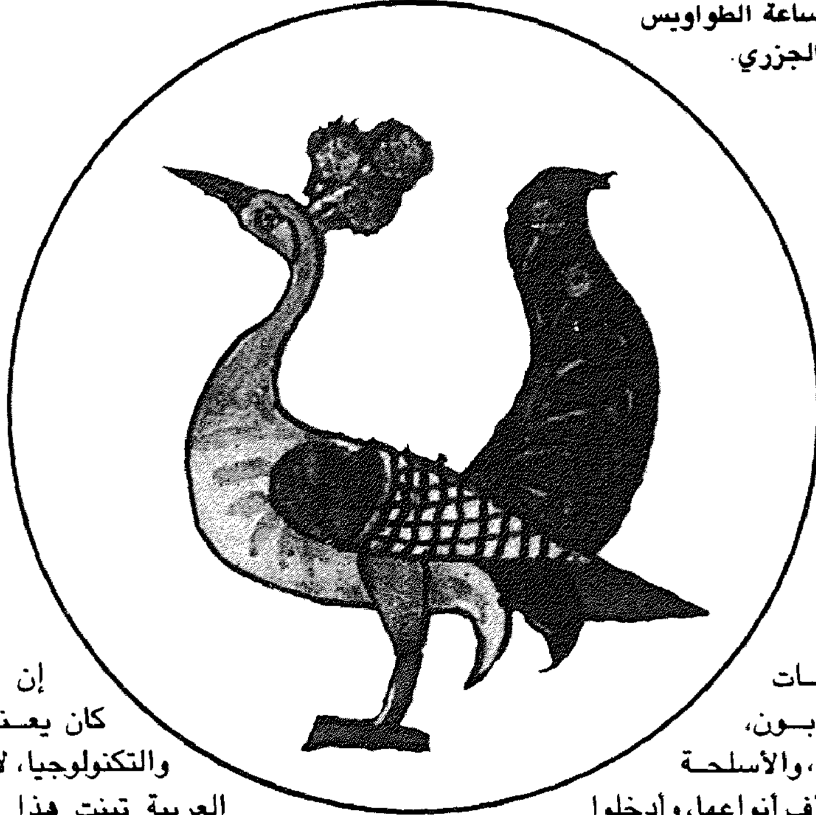
علم الحيل شكل قمة الابداع التكنولوجي العربي بعد الاسلام

لقد اعتمد العرب على أنفسهم في تطوير علم الحيل، وبالتالي في تطوير صناعاتهم التي تعتمد اعتماداً مباشراً على أساليب علم الحيل، الأمر الذي دفع الابداع التكنولوجي شوطاً إلى الأمام ونتيجة الاعتماد على الذات العربية والصنع المحلي العربي، فقد قام العرب بأنفسهم بتصميم آلات رفع الماء والساعات والمنجنيقات وبنوا السدود وانظمة الري، وأنتجوا المنسوجات



□ مضخة ترددية ذات اسطوانتين، صممت لرفع الماء. وهي من الرسوم التي وضعها الجزري لآلاته الميكانيكية. (عن مخطوطة في متحف «فرغ» للفنون في كمبريدج، ماساشوستس).

□ رسم زخرفي على ساعة الطواويس المائية التي صنعها الجزري.



والورق والمشروبات الروحية، والصابون، والسكر، والأصباغ، والأسلحة العسكرية باختلاف أنواعها، وأدخلوا النفط في الصناعات الحربية.

ويشير أحد مؤرخي التكنولوجيا الغربيين إلى أهمية الآلات والأجهزة الميكانيكية والهدروليكية الذاتية الحركة بقوله: «ليست هذه التكنولوجية الغنية بالألعاب الفلسفية نوعاً من اللهو التافه لمجتمع مترف يكثر فيه استخدام العبيد بحيث يصرفهم ذلك عن الاهتمام بالآلات المفيدة، بل أنها تمثل الاتجاه أو التيار الرئيسي للمهارات الميكانيكية الدقيقة التي استمرت وازدهرت في الأجيال اللاحقة في ورشات صانعي الساعات، وصانعي الأجهزة العلمية، تلك التكنولوجيا التي كانت القوة الدافعة الأساسية وراء كل من الثورتين العلمية والصناعية»(٥٤). كما أشار إلى نفس الموضوع «تشارلز سنجر»(*).

إن ما وصلنا من الابداع التكنولوجي والتطور العلمي ما هو إلا النزر اليسير، أو نتف قليلة من إبداعات تراكمت عبر القرون، بحيث لم يتوقف الابداع التكنولوجي إلا بعد انحطاط الدولة العربية.

إن ازدهار علم الحيل كان يعني ازدهار العلم والتكنولوجيا، لا سيما وأن الدولة العربية تبنت هذا العلم، وعملت على تطويره واهتمت بالقائمين عليه، فحينما كانت توجد الدولة كان نصيب علم الحيل التطور والازدهار، ويمكن القول أن العصر الذهبي للعلم والتكنولوجية العربية كان في زمن المأمون، ولكن لم يقتصر الازدهار التكنولوجي بعد ذلك في عصر المماليك، وتجلى ذلك على النطاق «المدني وفي إنشاء أقنية الري وفي إقامة النواعير وطواحين الماء وفي صناعة النسيج والورق والسكر وغير ذلك»(٥٥).

عوامل تطور التكنولوجيا في المنطقة العربية

لقد جاء التطور العلمي والتكنولوجي في المنطقة العربية نتيجة عوامل عديدة نذكر أهمها:

١ ـ تشجيع الدولة للعلماء والمهندسين والمترجمين والحرفيين:

أولت الدولة العربية وخاصة في العصر العباسي اهتماماً كبيراً بالعلماء العرب والمسلمين وشجعتهم على ممارسة الكتابة والتأليف والنقل

(*) يقول «تشارلز سنجر»: «نجد أن الشرق الأوسط قد طور واستخدم بعض العمليات والمنتجات الهامة في الفترة ما بين القرن الثامن حتى القرن الثالث عشر، ونجد ذلك واضح في المجالات التالية: الري، الدراسات المائية ... زراعة محاصيل هامة كالقطن والكتان، وتكرير السكر... إنتاج الصابون وحامض الكبريت ـ إلخ» راجع تشارلز سنجر، تاريخ التكنولوجيا، ص ٢٢ ـ ٣٨.

من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية، كما اهتمت بنشاطات المهندسين والصناع والحرفيين.

وبذلك فقد كان هذا العامل أحد العوامل الهامة التي دفعت التكنولوجيا العربية نحو التقدم والازدهار.

٢ ــ تطور الجيوش العربية والحاجة الماسة إلى سلاح متطور وجديد:

نتيجة إلى الفتوحات التي سادت العصرين الأموي والعباسي، فقد أولت الدولة والمجتمع اهتماماً كبيراً بالجيش وبتطويره وتسليحه بأحدث الأسلحة، الأمر الذي انعكس على تطور الصناعة الحربية والتكنولوجية العسكرية، حيث كانت الجيوش في حاجة ماسة إلى سفن كبيرة وجيدة وقوية، وإلى الفولاذ والسيوف والمنجنيقات، وإلى الاهتمام بالأسلحة التي كانت تعتمد على النفط وتكريره وتطوير البارود.. كما كانت الجيوش في حاجة إلى اللباس العسكري والأفرشة والأغطية والخيام والصابون.. إلخ.

٣ ــ حاجة المجتمع إلى البحث العلمي والتجربة والاختراع:

لقد كان المجتمع العباسي في حاجة ماسة إلى النتاجات العلمية المتميزة، كالمراصد العلمية الفلكية مثل مرصد بني موسى بن شاكر ومرصد بيت الحكمة، كما كان المجتمع في حاجة إلى دراسة الظواهر وتدوين تلك الدراسات والمشاهد، إضافة إلى حاجته إلى المدارس العلمية كالمدرسة المستنصرية، وإقامة دور العلم والمكتبات الكبيرة كمكتبة الحكمة، كما وضعت الأجهزة والتصاميم، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل خلقت صلة وثيقة بين المهندسين من جهة والصناع والحرفيين من جهة أخرى، وقد تولت تلك الصلات عند تطبيق المعارف والعلم على أرض الواقع، وبذلك دعى الجزري في كتابه «الجامع بين العلم والعمل» المهندسين الذين يضعون الكتابات والتصاميم، أن يخضعوا تصاميمهم وكتاباتهم الهندسية إلى التجربة، وهذا ما سار عليه المهندس تقي الدين أيضاً.

٤ ــ اعتماد العرب على إمكاناتهم الذاتية في العلوم والتكنولوجية مع الاستفادة من الترجمة:

لم يعتمد العرب والمسلمين في السابق على مهندسين أجانب في بناء آلاتهم أو رسم تصاميم ولم يستوردوا آلات أو تصاميم جاهزة من الخارج، كما أنهم لم يستوردوا عقولاً أجنبية من الخارج كي تؤلف لهم أو تبني لهم صناعاتهم كما هو الحال اليوم، بل كان كل اعتماد المهندسين والصناع العرب على إمكاناتهم ومقدراتهم الذاتية وعلى ما حصلوا عليه من تطور تكنولوجي من أجدادهم، إلا أنهم درسوا تجارب الاغريق واليونان والصينيين والهنود وترجموا إلى العربية بعض كتاباتهم.

٥ ــ إيمان الدولة والمجتمع بالعلم ونبذ روح التزمت:

في الفترات الزمنية التي ازدهرت فيها التكنولوجيا والعلم وانتشرت الصناعات، تحرر المجتمع خاصة المجتمع العباسي من الكثير من الخرافات والشعوذة في المجالات الطبية والفلكية والكيمياء والهندسة والصناعة وتدوين التاريخ وحتى في الكتابات الأدبية، الأمر الذي جعل العرب ينظرون إلى حضارات المنطقة العربية والاسلامية والحضارات العالمية السابقة نظرة متفتحة وموضوعية إلى حد ما، وتعاملوا مع العلوم على اعتبارها حاجة اجتماعية ضرورية لا بد منها، وجعلوا العلم وسيلة لخدمة الدولة والجيش، ولمحاربة الأمراض والشعوذة والتزمت. وقد ساهم في انتشار العلوم ومحاربة الشعوذة والتزمت ظهور حرية نسبية للفكر.

هذه هي أهم العوامل التي أدت إلى ازدهار العلوم والتكنولوجيا وقد دفعت هذه العوامل التكنولوجيا إلى عصرها الذهبي في زمن الخليفة العباسي المأمون، إلا أن التكنولوجيا العربية لم تستمر طويلاً في رقيها وازدهارها، بل تراجعت بسبب جملة من العوامل نذكر أهمها.

العوامل التي أدت إلى تدهور العلوم والتكنولوجيا في المنطقة العربية

١ ــ ضعف الدولة العربية وتراجع قوة الجيش:

أدى ضعف الدولة العربية إلى انشغالها عن العلم والعلماء وعن تطوير الصناعات وإهمال

البحث والترجمة، كما أهملت المراصد، ولم تهتم بالمدارس كالسابق.

أما الصناعات الحربية فقد أصيبت هي الأخرى بتراجع كبير نتيجة تراجع قوة الجيش.

٢ ــ ظهور التزمت الديني:

أدى ظهور التزمت الديني إلى انتشار «الوهن والتزمت في الحياة الثقافية والعلمية للمجتمع الاسلامي، وأصبح أقل تسامحاً وأكثر تزمتاً»(٥٦). وقد ظهر التزمت بسبب ضعف الدولة العربية وتراجع قوة الجيش.

وقد تجمد المجتمع العربي وبدأ بالتقهقر بعد القرن السادس عشر، حيث شن المجتمع الاسلامي حملة واسعة ضد العلم والعلماء، وقد «تجلى إثر الميول المتزمتة ضد العلم في مأساة تقي الدين»، بحيث حمل شيخ الاسلام قاضي زادة وجماعته، تقي الدين ومرصده الذي بناه وجهزه في عام ١٥٧٧م، كل ما حدث من خسائر في حرب العثمانيين مع الفرس في ذلك العام، وغذوا السلطان العثماني بالميول الدينية المتزمتة ضد تقي الدين ومرصده على أنه سبب البلوة للمسلمين، وقد «استطاعوا أن يقنعوا السلطان بهدم» مرصد تقي الدين. «وقد تم هدم المرصد فعلاً عام ١٥٨٠م»(٥٧).

٣ ــ خضوع العرب للعثمانيين وتدمير بغداد من قبل المغول والتتار وظهور الحروب الصليبية:

إن الغزوات المتلاحقة والحروب المدمرة التي تعرضت لها الدولة العربية عملت على تمزيق قوة الدولة العربية وجعلتها عرضة إلى الأطماع الأجنبية الأمر سهل على الجيوش الطامعة دخول بغداد العاصمة وتحطيم معالمها التاريخية وإتلاف الحضارة العربية وإنجازاتها العلمية، وهذا ما فعله المغول والتتار، ثم خضع العرب إلى الدولة العثمانية، وبذلك فقد تمزق الكيان العربي القوي الموحد، ونتج عن ذلك أن تحولت البلاد العربية إلى مجتمعات شبه إقطاعية لا تسمح مؤسساتها بتحقيق التقدم الاقتصادي والاجتماعي ولو بدرجة مقبولة. كما أدت الحروب بين تركيا والفرس التي استمرت ثلاثة قرون إلى عرقلة انتعاش العراق اقتصادياً. وفضلاً عن ذلك فقد اتسع نطاق السلب والنهب(٥٨)، وتعرضت المدن العربية إلى هجمات اللصوص والبدو كهجوم الوهابيين بدو الجزيرة العربية على مدينة النجف ونهب خيراتها، ونهب العتبات المقدسة فيها خاصة مرقد الامام علي، وعملوا السيف في أهلها.

وكانت تلك الظروف قد انعكست على أحوال المنطقة العربية الزراعية والصناعية وعلى السكان، حيث تقلصت المساحات المزروعة في العراق في القرن الثامن عشر بشكل كبير جداً خاصة إذا ما قورنت عما كانت عليه في القرن العاشر الميلادي، كما تناقص بشكل كبير عدد السكان، وفي سورية حدث ما حدث في العراق، حيث تناقص عدد السكان إلى مليوني نسمة بدلاً من خمسة ملايين، أما الجزيرة العربية فقد اختفى فيها الرخاء تماماً في القرن الثامن عشر، كما تدهورت أحوال مصر للغاية.

أما إذا قارنا مستوى الانتاج الصناعي في القرن الثامن مع مستوى الإنتاج الصناعي للقرن الثامن عشر فسنجد أن الفارق كبيراً، حيث كان الانحطاط الصناعي هو ما يميز القرن الثامن عشر، ولم يشمل الانحطاط الصناعة وحسب، بل تعداه إلى الحرف اليدوية، فقد تدهورت الحرف اليدوية كما تناقص عدد الحرفيين بدرجة كبيرة في المدن مثل بغداد والبصرة والموصل، وبدرجة أقل في القاهرة.. أما الموانىء كالاسكندرية والبصرة وانطاكية وبيروت وطرابلس فقد اضمحلت وتعرضت تجارتها إلى الركود، كما اختفت تقريباً العمليات المالية المعقدة والمتقدمة التي صاحبت تلك التجارة(٥٩).

الهوامش

(١) راجع: د. أحمد يوسف الحسن، مجلة «المستقبل العربي» العربي، العدد: ٣٧، ص ٧٦.

(٢) راجع: د. فليب حتي، د. ادوارد جرجي، د. جبرائيل جبور، «تاريخ العرب» ص ٦٢، الطبعة الخامسة، بيروت ١٩٧٤.

(٣) راجع: د. عمر فروخ، تاريخ العلوم عند العرب، ص ٦٤.

(٤) راجع: د. محمد عبدالرحمن مرحبا، المرجع في تاريخ العلوم عند العرب، ص ١٢٣.

(٥) راجع: د. عمر فروخ، تاريخ العلوم عند العرب، ص ٦٦.

(٦) راجع: المصدر نفسه.

(٧) راجع: قاموس الكتاب المقدس، ص ٢٩٥.

(٨) راجع: ديوان الحطيئة، ص ٢٩ ــ المؤسسة العربية للطباعات والنشر ــ بيروت.
(٩) راجع: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ص ٤٤٧، دار صادر.
(١٠) راجع: د. حسين مروه، النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية، الجزء الأول، ص ١٩٠.
(١١) راجع: المصدر نفسه.
(١٢) راجع: د. عبدالعزيز سالم، تاريخ العرب في العصر الجاهلي، ص ١١٨، دار النهضة بيروت.
(١٣) راجع: د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، الجزء السابع، ص ٥٦٨.
(١٤) راجع: واضح الصمد، الصناعات والحرف عند العرب في العصر الجاهلي، ص ١١٢.
(١٥) راجع: المصدر نفسه.
(١٦) راجع: د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، الجزء الرابع، ص ٣٨.
(١٧) راجع: د. حسين مروه، النزعات المادية في الفلسفة الاسلامية، الجزء الأول، ص ١٩٠.
(١٨) راجع: واضح الصمد، الصناعات والحرف عند العرب في العصر الجاهلي، ص ١٧٨.
(١٩) راجع: المصدر نفسه.
(٢٠) راجع: د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، الجزء الأول، ص ١٢٦.
(٢١) راجع: الأغاني للأصفهاني، ٤، ص ٢١٨.
(٢٢) راجع: غوستاف لوبون، حضارة الغرب، ترجمة عادل زعيتر، ص ١١٨.
(٢٣) راجع: د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، الجزء الثاني، ص ٢٣٠.
(٢٤) راجع: سورة آل عمران، الآية ١٤.
(٢٥) راجع: سورة التوبة، الآية ٣٤.
(٢٦) راجع: سورة الكهف، الآية ٣١.
(٢٧) راجع: سورة فاطر، الآية ٣٣.
(٢٨) راجع: د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، الجزء الأول، ص ١٩٣.
(٢٩) راجع: د. حسين مروه، النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية، ١، ص ١٩٧.
(٣٠) راجع: د. ليلى صباغ، المرأة في تاريخ العرب قبل الاسلام، ص ١٧٠، ودليل المتحف الوطني بدمشق، ص ١٦٢ ــ ١٦٨.
(٣١) راجع: د. ابراهيم بيضون، مجلة «تاريخ العرب والعالم»، العدد ٤٢، ١٩٨٢، ص ٣٣.
(٣٢) راجع: د. عمر فروخ، تاريخ العلوم عند العرب، ص ١١٣.
(٣٣) راجع: المصدر نفسه، ص ١١٦.
(٣٤) راجع: المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٢٥.
(٣٥) راجع: آدم متز، الحضارة الاسلامية في عصر النهضة في الاسلام، ص ٣٦٤. ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريده، دار الكتاب العربي.
(٣٦) راجع: مروج الذهب للمسعودي، الجزء الرابع، ص ٢٢٧.
(٣٧) راجع: المقدسي، ص ٢٢٣.
(٣٨) راجع: عدد من المؤلفين، عبقرية الحضارة العربية منبع النهضة الأوروبية، ص ٣٥٧.
(٣٩) راجع: د. منى سنجقدار، مجلة «تاريخ العرب والعالم»، العدد ٤٢، ١٩٨٢، ص ١٠.
(٤٠) راجع: الفهرس لابن النديم، ص ٢٦٥. طبعة فلوغل، ليْد طبع الكتاب بالتصوير في بيروت مكتبة خياط ١٩٦٤.
(٤١) راجع: مجلة «تاريخ العرب والعالم» العدد (٤٢)، ١٩٨٢، ص ١٥.
(٤٢) راجع: مجلة «المستقبل العربي»، العدد (٣٧)، ١٩٨٢، ص ٧٥.
(٤٣) راجع: المصدر نفسه.
(٤٤) راجع: وفيات الأعيان، الجزء الثاني، ص ٥٠٥، مطبعة الوطن، القاهرة ١٢٩٩هـ.
(٤٥) راجع: وفيات الأعيان، الجزء الثاني، ص ٥٠٥، مطبعة الوطن، القاهرة، ١٢٩٩هـ.
(٤٦) راجع: مجلة المشرق (بيروت)، المجلد الثامن (١٩٠٦م)، ص ٤٤٤ ــ ٤٥٧.
(٤٧) راجع: نفح الطيب، ٣، ص ٣٧٤. دار صادر، بيروت.
(٤٨) راجع: عمر فروخ، تاريخ العلوم عند العرب، ص ٢٢٩.
(٤٩) راجع: د. محمد عبدالرحمن مرحبا، الموجز في تاريخ العلوم عند العرب، ص ١٣٣.
(٥٠) راجع: د. أحمد يوسف الحسن، مجلة «المستقبل العربي»، العدد ــ ٣٧ ــ ص ٧٦.
(٥١) راجع: دونالدر. هيل، عبقرية الحضارة العربية منبع الحضارة الأوروبية، ص ٣٦١.
(٥٢) راجع: د. أحمد يوسف الحسن، مجلة «المستقبل العربي»، العدد ــ ٣٧ ــ ص ٧٦.
(٥٣) راجع: المصدر نفسه.
(٥٤) راجع: د. أحمد يوسف الحسن، مجلة «المستقبل العربي»، العدد ــ ٣٧ ــ ١٩٨٢، ص ٨١.
(٥٥) راجع: مجلة «المستقبل العربي» العدد ــ ٣٧ ــ ص ٧٦.
(٥٦) راجع: شارل عيساوي، مجلة «قضايا عربية» العدد الأول ١٩٧٩، ص ٣٣. وقد اعتمد الكاتب على عدة مصادر منها: كتاب أعده تيني فرانك عنوانه «مسح اقتصادي لروما القديمة»، وكتاب جيوليوس بيلوك» سكان العالم اليوناني الروماني».
(٥٧) راجع: مجلة «المستقبل العربي»، العدد ــ ٣٧ ــ ١٩٨٢، ص ٨٤.
(٥٨) راجع: مجلة «قضايا عربية»، العدد الأول، ١٩٧٩، ص ٣٣.
(٥٩) راجع: المصدر نفسه.

اخبار التراث اخبار التراث اخبار التراث اخبار التراث

• المنظمة تدرس إنشاء «جامعة العرب»

انتهت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم مؤخراً من دراسة مشروع إنشاء أول جامعة عربية سترى النور قريباً باسم «جامعة العرب». وستسهم هذه الجامعة في توفير الهيئات والكوادر التعليمية للجامعات العربية في إطار اتجاه ثقافي جديد يهدف إلى تعريب الدراسة في هذه الجامعة تعريباً كاملاً.

• صدور معجم «فهارس المخطوطات العربية في العالم»

صدر عن معهد المخطوطات العربية معجم «فهارس المخطوطات العربية في العالم» من إعداد الأستاذ كوركيس عواد.

والكتاب هو ثمرة سنوات طويلة من الجهد للمؤلف. وقد رتبت مواده على السياق الهجائي لأسماء الأقطار التي تحتوي مخطوطات لها فهارس مطبوعة، كما رتبت المواد داخل كل قطر حسب تسلسل أسماء المدن.

والهدف من الكتاب هو تعميق الصلة بين المثقفين العرب وتراثهم عن طريق تعريفهم بمواطن المخطوطات في العالم، وهو الهدف الذي يسعى المعهد لتحقيقه.

وقع المعجم في جزأين حاول فيهما الأستاذ كوركيس استقصاء ما صدر من فهارس المخطوطات العربية في مكتبات العالم العامة والخاصة، وقد استوعب ما أورده الدكتور فؤاد سزكين في كتابه «تاريخ التراث العربي» واستدرك عليه بإضافات كثيرة وواضحة، كما استدرك على كتاب «تاريخ الأدب العربي» الذي وضعه المستشرق الألماني كارل بروكلمان بإضافات بينة ومفيدة.

• كتاب «القولنج» للرازي

صدر عن «معهد المخطوطات العربية» التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم كتاب «القولنج» تأليف أبي بكر الرازي، مع دراسة مقابلة لرسالة ابن سينا في القولنج، وهو من أهم كتب التراث الطبي العربي في مجال أمراض القولنج، حققه الدكتور صبحي محمود حمّسامي.

وتناول الكتاب تجربة الرازي وتشخيصاته وملاحظاته تجاه أمراض القولنج الجوفية التي كان المؤلف علماً من أعلامها، وقد وقع الكتاب في ثمانية عشر باباً.

المحقق أبرز الناحية العملية عند الرازي عندما قابل كتابه مع المقالة الثانية لرسالة الشيخ الرئيس ابن سينا في نفس الموضوع، والتي جاءت في ثمانية فصول.

• من منشورات معهد التراث العلمي العربي

صدر عن معهد التراث العلمي العربي، فهرس المخطوطات الطبية العربية في مكتبة الدكتور سامي إبراهيم حداد.

وضع الفهرس الدكتور فريد سامي حداد بالاشتراك مع الدكتور هانس هينريش بيسترفيلد.

يصف الفهرس ١٢٥ مخطوطاً في الطب العربي وصفاً فيه «الإيجاز مع التفصيل دون الشرح والتطويل مما يساعد القارىء والباحث على التعرف والتثبت في أسماء الكتب والمؤلفين التي لا تزال مجهولة».

ومما يزيد في أهمية الفهرس أنه يكشف النقاب عن مخطوط وحيد النسخة في العالم.

إلى المشتركين الكرام

نرجو من جميع مشتركينا في الخارج، إفادتنا عن أي نقص يحصل لديهم في اعداد المجلة، خلال مدة أقصاها ثلاثة أشهر من تاريخ صدور العدد، وخلال شهرين بالنسبة لمشتركينا في الداخل.

وذلك، لتعذر تأمين الأعداد لهم بعد هذه المدة، بسبب تحويلها إلى قسم التجليد.

الإدارة



استجابة لرغبة المجلة في تعريف العرب بتاريخهم عبر دراسات علمية ومسؤولة، واستجابة لدعوتها الأساتذة والمؤرخين وطلاب الدراسات العليا لنشر موجز عن رسائلهم الجامعية، فقد وصلنا من الدكتور: «فرج توفيق زخور» عرض لرسالته الدكتوراه بعنوان «تاريخ عكار السياسي والاقتصادي والاجتماعي ١٩٠٨ ــ ١٩٤٣». ونحن في فتحنا هذا الباب نتمنى أن نزيد من اطلاع قرائنا على نتائج باحثينا مؤملين سد ثغرة في مكتبتنا العربية وفهارسها المعتمدة، لما يفيد الجميع.

تاريخ عكّار السّياسي والاقتصادي والاجتماعي ١٩٠٨ - ١٩٤٣

□ دكتوراه حلقة ثالثة ــ قسم التاريخ ــ جامعة القديس يوسف، بيروت ١٩٨٤/٦/٢٣.

□ اللجنة مؤلفة من الدكتور انطوان الحكيم والدكتورين شيرين خيرالله وراوول عساف.

□ التقدير: جيدجداً.



ليس من السهل أن يطرق التاريخ أبواب المناطق اللبنانية النائية، لا لأنها غير جديرة باهتمام الباحثين والمؤرخين، بل لأن الأبواب الموصدة تتطلب المزيد من الترقيب، والمزيد من الفرضات التي قد تقودهم إلى تحمل المشقات والتبعات الكثيرة...

من هنا كان اختياري موضوع «تاريخ عكار السياسي والاقتصادي والاجتماعي ١٩٠٨ ــ ١٩٤٣»، إيماناً مني بضرورة أن يطرق التاريخ أبواب المناطق اللبنانية كلها لأن العناية بتاريخ لبنان يجب أن يتم بجمع ما تبعثر من أصوله، والتفتيش عن أوراقه في كل بلد وقرية، بل في كل حي وزاوية...

لقد أردت من هذه الدراسة أن تكون الموضوع الرئيسي لتاريخ «بلاد عكار» بين سنتي ١٩٠٨ و ١٩٤٣. إلا أنه لا يمكن أن ننظر نظرة واضحة إلى تطور هذه «البلاد» إلا من زاوية ارتباطها بالظروف الموضوعية للمقاطعات والولايات المحيطة بها. وبدا بالامكان الاستجابة إلى ضرورة هذا الوضع الذي يجعل من هذه الدراسة تاريخاً لعلاقات عكار بخاصة مع «ولاية بيروت» قبل ١٩٢٠ من جهة، ومع لبنان ــ بعد إعلان دولة لبنان الكبير ــ من جهة أخرى. وبنظرة شاملة إلى تطور «بلاد عكار»، نستطيع أن نقسمه، زمنياً، إلى عهدين رئيسيين، ينقسم كل منهما بدوره إلى فترات طويلة أو قصيرة.

العهد الأول يشمل حكم الدولة العثمانية لهذه البلاد، والذي يمتد من عام ١٩٠٨ (تاريخ احياء الدستور) إلى نهاية الحرب العالمية الأولى، وقد كانت عكار آنذاك قضاء من أقضية ولاية بيروت،



ويتبع متصرفية طرابلس.

أما العهد الثاني، فيشمل ضم عكار إلى دولة لبنان الكبير عام ١٩٢٠ إلى الاستقلال عام ١٩٤٣، حيث ارتبط القضاء بالجمهورية اللبنانية، مع ما شهد من موجات سياسية ازاء موقفين متناقضين، الأول مؤيد للوحدة اللبنانية، والآخر مؤيد للوحدة مع سورية.

إن الأطروحة تقع في ٤١٤ صفحة، وقد احتوت ثلاثة أقسام، عدا المقدمة والتمهيد والخاتمة والفهارس. وتضمن كل قسم فصلين اثنين.

□ **القسم الأول**: في التاريخ السياسي والاداري. وتضمن الفصل الأول منه الحياة السياسية في ظل الدولة العثمانية، وفي لبنان الجمهورية، مروراً بالاحتلال الفرنسي، وموقف العكاريين من ضم القضاء إلى دولة لبنان الكبير.

وتضمن الفصل الثاني الادارة والمجالس البلدية والاختيارية في القضاء.

□ **القسم الثاني**: في التاريخ الاقتصادي. وتضمن الفصل الأول منه نظام الملكية، واستثمار الأرض، والانتاج الزراعي، والآلات وأساليب الري، وأنواع الضرائب وطرق جبايتها.

وتضمن الثاني الصناعات بطابعها الزراعي والمواصلات وأثرها على انفتاح السوق التجاري العكاري

□ **القسم الثالث**: في التاريخ الاجتماعي. وشمل الفصل الأول منه التطور الديموغرافي، والأسرة، والتجمعات السكنية، وبعض العادات والتقاليد.

أما الفصل الثاني فتضمن الحياة العلمية والثقافية، وانتشار المدارس الخاصة والرسمية في عكار.

وقدمت الدراسة، إلى جانب أقسامها، عدة فهارس أهمها:

١ ــ فهرس الوثائق: وقد حوى ٣٤ وثيقة (مخطوطة) تعود بالفائدة لمضمون الدراسة.

٢ ــ فهرس الملاحق: وقد شمل ١٧ ملحقاً، أكثرها من الجداول التي تصور الواقع بشكل علمي ودقيق للغاية.

٣ ــ فهرس الرسوم البيانية والخرائط: وعددها ٢٣ رسماً بيانياً وخريطة تناولت التطور الديموغرافي في القضاء، وتطور الرسوم البلدية.

هذا إضافة إلى فهارس المقابلات الشخصية، والجريدة الرسمية، والجرائد والمجلات، وأرشيف البلديات، وأرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، والمصادر والمراجع باللغتين العربية والفرنسية.

إن بهذه الأطروحة التاريخية، يضاف إلى مكتبتنا اللبنانية والعربية، ارث تاريخي جديد، لأنها تشرع أمامنا أبواب النصف الأول من القرن العشرين لمنطقة لعبت وما تزال دوراً مهماً في التاريخ اللبناني.



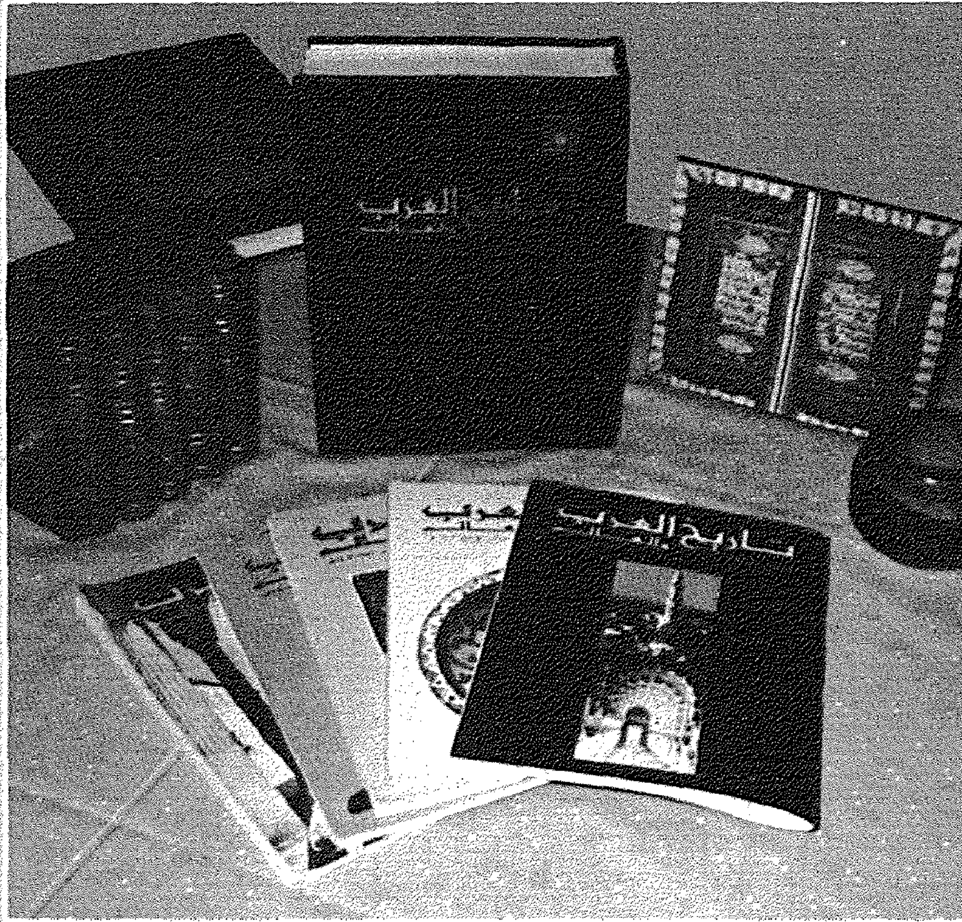
□ اجتماع علماء الفلك العرب، (القرن السادس عشر الميلادي).

احتفظ بمجلدات السنوات الخمس من مجلة

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

تسعة مجلدات فخمة + اشتراك مجاني لعام كامل



٤٠٠ دولار أو ما يعادلها بما فيها أجور البريد المضمون

إقطع هذه القسيمة وأرسلها مرفقة بقيمة المجلدات باسم مجلة تاريخ العرب والعالم إلى العنوان التالي:

شارع السادات - بناية أبو هليل - ص.ب: ٥٩٠٥ - بيروت، لبنان

الاسم الكامل: ____________________

العنوان: ____________________

المدينة: ____________________

الامضاء: ____________________

أرفق القيمة: ☐ شك ☐ شك بريدي ☐ حوالة بريدية